

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00845 8279

P
7
N
28
19
V.

51-32099

APR. 17/4

1815



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

(R)

٧٢
٨/٤

الى كم ذا التعلق والتوان
وكم هذا التماهى فى التماهى حتى

وما ماضى الشباب بمترد
ولا يوم يمر بكملا
ص ١٤٧

Don't make it personal
يذكره الله
= يظف على
ثأر الذم مشهور

على من تدور الدائرة = يهزم
حف اليه = اسرع له

١٢٨

SITY

الجا

لجنة التأليف والترجمة والنشر

طه حسين

الى الاستاذ كراوس
مع اصدق التحيات

T. Chā Husayn

Ma'a al-Mutanabbi.

مع المتنبي

- ١ -

~~١١١ ١٠٩
٢٠٨ ٢٠٨
١٠٩ ١٠٩~~

١١١ ١٠٩
٢٠٨ ٢٠٨
١٠٩ ١٠٩

٢
٢

~~١١١ ١٠٩
٢٠٨ ٢٠٨
١٠٩ ١٠٩~~

49026

SITY

الجا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً،
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

صدره الله أنبأها الزوج الكريمه ونمت كلمته ، ففي ظل هذه
المودة درست هذا الشاعر العظيم ، وفي ذرى هذه الرحمة أملت
هذه الفصول . وانه قلبي ليملؤه البر ويغمره الخانه حين أذكر
ما كنت بديين وتعبيره فيه ، أثناء ذلك ، من حيث الى على الراحة ،
ورغبة الى في التروصه ، والظاح على في الاستمتاع بنعيم الحياة
وجمال الطبيعة في جهال (الالب) ، وما كنت ألقى به عطفك من
اياء واعراضه ، وما لانه يتور في نفسك من غضب مصدره الرحمة
والاستفارة . واني لا أعلم أني كنت في ذلك قاسيا جافيا ، ولكني
أعلم أني مديبه لهذه الجفوة وتلك القسوة بهذا الكتاب ، فأذني لي
في أنه أقدم اليك لعل ينسبك من ذلك ما لا تزالين تذكره

الكتاب الأول

لا أريد أن أدرس المتنبي ، فأنا لم أترك القاهرة ، ولم أعبّر البحر ، ولم آو إلى هذه القرية للبحث والدرس ، وإنما اصطنعت هذا كله طلباً للراحة ، وإيثاراً للفراغ الذي أخلو فيه إلى نفسي .
فقد طالما شغلت عنها في القاهرة بأحداث الحياة الخاصة والعامة . وقد طالما اشتقت إلى أن ألقاها وجهاً لوجه ، وأدير بينها وبينى ألوان الحديث . وأفر فيه من نفسي فأنا كثير السأم لها والضيق بها ، كما قلت في غير موضع . لا أكاد أقبل عليها حتى أنصرف عنها ، وأفزع منها إلى كتاب من هذه الكتب التي تدعوني وتلح في الدعاء ، فلا أكاد أستجيب لها إلا حين أدع مصر وأعتزل المصريين .

لا أريد إذن أن أدرس المتنبي ، فإنني قد فررت بنفسى وأهلى من الدرس والبحث والتحصيل . ولقد صحبت المتنبي طوال العام الجامعي أدرس شعره مع الطلاب وأتحدث عنه إلى جمهور الناس ، حتى سئمت درسه والتحدث عنه .

وكما أكره لابنني أن يُقبل أثناء الصيف على ما كانا يقبلان عليه في عامهما الدراسي ، فأنا أكره لنفسى أن أمضى في درس المتنبي بعد أن أنفقت فيه ما أنفقت من الليالى والأيام .

ومع ذلك فقد طلبت إلى صاحبي حين كان يجمع ما ينبغي أن نحمله من الكتب ألا ينسى ديوان المتنبي . ولم أطلب إليه أن يحمل ديواناً آخر من دواوين الشعر القديم أو الحديث ، وإنما طلبت ديوان المتنبي وحده . وأراد صاحبي أن يحمل ما في مكتبي من الشروح التى كتبها القدماء والمحدثون يفسرون بها هذا الديوان ، وأراد أن يحمل ما في مكتبي من البحوث التى تناول بها القدماء والمحدثون حياة أبى الطيب وشعره ، فأبيت عليه هذا كله ، وتقدمت إليه فى أن يكتفى بأيسر طبعة من طبعات المتنبي ؛ لأننى لا أريد درساً ولا بحثاً وإنما أريد صحبة ومرافقة ليس غير .

وليس المتنبي مع هذا من أحب الشعراء إلى ، وآثرهم عندى ، ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحب أو الإيثار . ولقد أتى علىَّ حينٌ من الدهر لم يكن يخطر لى أنى سأعنى بالمتنبي أو أطيل صحبته ، أو أديم التفكير فيه . ولو أنى

أطعت نفسي وجاريت هواي لاصطحبت شاعراً إسلامياً
قديماً عسيراً كالفرزدق أو ذى الرمة أو الطرماح . أو شاعراً
عباسياً من هؤلاء الذين أحبههم أو أوثرهم ؛ لأننى أجد عندهم لذة
العقل والقلب ، أو لذة الأذن ، أو اللذتين جميعاً ، كمسلم ،
وأبى نواس ، وأبى تمام ، وأبى العلاء . ولكننى لم أطع نفسي
وإنما عصيتها ، ولم أجار هواي وإنما خالفته أشد الخلاف وطلبت
إلى صاحبي على كره منى أن يصطحب المتنبي .

وأكبر الظن أنى إنما فعلت ذلك لأن المتنبي كان وما زال
حديث الناس المتصل منذ أكثر من عامين ، ولأننى حاولت
وما زلت أحاول أن أستكشف السر فى حب المحدثين له ،
وإقبالهم عليه ، وإسرافهم فى هذا الحب والإقبال ، كما أسرف
القدماء فى العناية به حباً وبغضاً وإقبالاً وإعراضاً . *

وأكبر الظن أيضاً أنى إنما فعلت ذلك لأننى أحب أن
أعاند نفسي وأخذها من حين إلى حين ببعض ما تكره من
الأمر . وقد قلت فى غير هذا الموضع إنى لست من المحبين
للمتنبي ولا المشغوفين بشخصه وفنّه ، فلم أجد بأساً فى أن أشق
على نفسي أثناء الراحة ، وأثقل عليها حين تبغض الأثقال عليها .

نعم لم أجد بأساً في أن أقطع عليها لذة الحياة في فرنسا
بين هذه الربي الجميلة ، وفي هذا الجو الحلو ، وبين هذه الكتب
الطريفة والآراء الشاذة التي تتكشف عنها جهود الأدباء
والفلاسفة والنقاد ، والتي أغرق فيها إلى أذني كلما عبرت البحر .
لم أجد بأساً بأن أثقل على نفسي أثناء هذا كله بالتحدث
إلى المتنبي والتحدث عنه ، والاستماع له ، والنظر فيه ، والناس
يعرفون أنني شديد العناد للناس ، فليعرفوا أيضاً أنني شديد
العناد لنفسي كذلك .

لا أريد أن أدرس المتنبي إذن ؛ فالذين يقرءون هذه
الفصول لا ينبغي أن يقرءوها على أنها علم ، ولا على أنها نقد ،
ولا ينبغي أن ينتظروا منها ما ينتظرون من كتب العلم والنقد .
وإنما هي خواطر مرسلّة تثيرها في نفسي قراءة المتنبي في قرية
من قرى الألب في فرنسا .

قراءة المتنبي في غير نظام ولا مواظبة ، وعلى غير نسق
منسجم . إنما هي قراءة متقطعة متفرقة ، أقصد إليها أحياناً لأنني
أريدها ، وأقصد إليها أحياناً أخرى لأن نفسي تنازعني إلى
كتاب من كتب الأدب الفرنسي ، فأعاندها وأمانعها

عند الله كمثل آدم خلقه من تراب .

كان للمتنبي أب وجد ، ولكن المؤرخين والنسابين لا يعرفون من أمر جده قليلاً ولا كثيراً ، ويكادون يختلفون في اسمه كما رأيت .

أما أبوه فقد زعموا أنهم كانوا يعرفون عنه شيئاً ، شيئاً يسيراً جداً . كانوا يزعمون أن أبا المتنبي كان سقاءً في الكوفة . تحدث المؤرخون بذلك ، وهم بين متحدث به يريد أن يرفع من شأن المتنبي الذي انحدر من رجل حقير ، فملاً الدنيا وشغل الناس ، وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبي الذي انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة . كان أبوه يبيع الماء على الناس ، وكان هو يبيع ماء وجهه على الممدوحين^(١) .

وما أظن أن الذين ذكروا مهنة الحسين قد قصدوا إلى إثبات الحق من حيث هو حق ، وتسجيل التاريخ من حيث هو تاريخ . وإنما قصدوا إلى ما ذكرت لك : إلى الرفع من شأن

(١) وإلى هذا أشار بعض الشعراء حين هجاه بقوله :

أى فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء ، وحيناً يبيع ماء الحيا
وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٠ (طبع بولاق)

المتنبى أو الوضع من قدره ، فكأنهم إذن لم يصنعوا شيئاً
وكأنهم إذن لم يعرفوا من أمر أبى المتنبى إلا مثل ما عرفوا من أمر
جده ، أى لم يعرفوا شيئاً ما .

ولعل المتنبى نفسه قد عرف الكثير من أمر أبيه وجده ،
ولكنه كان فيما يظهر غالباً فى الغرور ، مسرفاً فى الكبرياء ، وكان
غروره فيما يظهر أكبر من شعره فأفسد عليه الأمر إفساداً .

والتاريخ أو القصص يحدثنا بأن أبا جرير لم يكن شيئاً ، وبأن
جريراً قد أضاف إليه من الخلال والحصال والأخلاق
ما لم يكن منه بسبب ، حتى غلب به الشعراء وقهر به الفحول ، ثم
لم يمنعه ذلك من أن يظهره للناس كما هو ^(١) ليثبت لهم أن شعره
كان أكبر من غروره ، وأن طبع أبيه قد خذله وأعياه فأنجده

(١) حدث صاحب الأغاني قال : قال إسحاق وقال الأصمعي حدثني
بلال بن جرير — أو حدثت عنه — : أن رجلاً قال لجرير : من أشعر
الناس ؟ قال له : قم حتى أعرفك الجواب ؛ فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه
عطية وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها ، فصاح به ! اخرج
يا أبت ؛ فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال ابن العنز على لحيته فقال :
ألا ترى هذا ؟ قال نعم . قال : ألا تعرفه ؟ قال لا . قال هذا
أبى ، أفندرى لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قلت لا . قال : مخافة أن
يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل
هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم فغلبهم جميعاً (أغاني ج ٧ ص ٥٨
طبع بولاق)

كان بطله الى الناس انه لا يشرف بقدره
وآخا يشرف عرقه به ، وان يفتي
بفسه لا يهداه

شعره ، وأعانه على أن يخلق أباه خلقاً جديداً .

أما المتنبي فلم يستطع شعره أن يغلب غروره ، ولم يستطع
أن يضيف إلى أبيه ما ليس فيه ، ولم يستطع أن يخلق أباه خلقاً
جديداً . ومن يدرى ؟ لعل مصدر ذلك أن جريراً كان يعرف
أباه فصوره كما أراد لا كما كان . وأن المتنبي لم يكن يعرف أباه
فلم يستطع أن يصوره لا كما أراد ولا كما كان .

و بعد فليس يضع من قدر المتنبي عندي / ألا يعرف لنفسه أباً .
وليس يرفع من شأنه أن يكون أبوه من المجد ونباهة الذكر
بحيث كان غالب بن صعصعة أبو الفرزدق وشيخ تميم .

وأنا أقبل من المتنبي في إعجاب لا حد له هذه الأبيات التي
هي من أروع ما قال من الشعر :

أنا ابنُ مَنْ بعضُهُ يَفُوقُ أباه

بأحسِّ والنَّجْلُ بعضُ مَنْ نَجَلَهُ

وإنما يذكرُ الجُدودَ لَهُم

مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنفَدُوا حِيَلَهُ

فَخَرّاً لِعَضْبِ أَرْوَحٍ مُشْتَمِلَهُ

وَسَهْمَ هَرِيٍّ أَرْوَحُ مُعْتَقِلَهُ

وَلْيَفْخَرْ الْفَخْرُ إِذْ غَدَوْتُ بِهِ

(ها)

مُرْتَدِيًّا خَيْرُهُ وَمُنْتَعِلُهُ

أَنَا الَّذِي بَيَّنَّ الْإِلَهُ بِهِ أَلْ

أَقْدَارَ وَالْمَرْءَ حَيْثُ جَعَلَهُ

جَوْهَرَةً تَفْرَحُ الشَّرَافُ بِهَا

وُغْصَةً لَا تُسِيغُهَا السَّيْفُ فَلَهُ

إِنْ الْكَذَّابَ الَّذِي أَكَادُ بِهِ

أَهْوَنَ عِنْدِي مِنَ الَّذِي نَقَلَهُ

فَلَا مُبَالَ وَلَا مُدَاجٍ وَلَا

وَأَنْ وَلَا عَاجِزٍ وَلَا تُكَلَّهُ

وَدَارِعٍ سِيفُهُ فَخَرَّ لَقَى

فِي الْمُلْتَقَى وَالْعَجَاجِ وَالْعَجَلَهُ

وَسَامِعٍ رُعْتُهُ بِقَافِيَةٍ

يَحَارُ فِيهَا الْمُنَقَّحُ الْقَوْلَهُ

وَرُبَّمَا أَشْهَدُ الطَّعَامَ مَعِيَ

مَنْ لَا يُسَاوِي الْخُبْزَ الَّذِي أَكَلَهُ

ليس في ذلك عندي من شك فقد اتهم الرجل في نسبه ^{المتنبى} ،
وسئل عن أبيه وجده فلم يستطع ، أو لم يرد أن يجيب سائله ،
وآثر أن ينتسب إلى المجد والكرم والبأس وأن يزدري
الكائدين له والمرجفين به والمؤلمين عليه . ومع أن هذه
الأبيات تصور ضعف المتنبى من ناحية نسبه أبلغ تصوير لأن
هذا الإسراف في الفخر والغلو في التيه والإغراق في ازدراء
العائنين دليل في حقيقة الأمر على العجز والنكول .

أقول مع أن هذه الأبيات تصور ضعف المتنبى من ناحية
نسبه أبلغ تصوير وأقواه ، فهي في الوقت نفسه تصور فتوة ^{المتنبى} المتنبى
وحسن رأيه في نفسه ، وقوة إيمانه بهذه النفس ، وصدق معرفته
للناس ، وشدة ازدرائه لهم ، واستهزائه بهم . لأنه قد علم
من حقائقهم ودخائل أمورهم ما دفعه دفعا إلى هذا الازدراء
والاستهزاء .

أمه وصبرته

٣

وهل كان المتنبي يعرف أمه ؟ مسألة فيها نظر كما يقول
الأزهريون . فديوان المتنبي صامت بالقياس إلى أمه صمته
بالقياس إلى أبيه . فالصبي الشاب ، والرجل المكتمل ، والمتنبي
راضياً وساخطاً ، ومسروراً ومحزوناً ، لا يذكرا أمه ، كما أنه لا يذكروا
أباه . ولكن الخطب في أم المتنبي أعظم من الخطب في أبيه . فقد
سكت المتنبي نفسه عن أبيه ، ولكن الرواة والمؤرخين ذكروه
فسموه الحسين ، وعرفوا له أباً اختلفوا في اسمه بعض الاختلاف ،
وعرفوا له صناعة هي السقاية في الكوفة ، وهذا على قلته وضالته
كثير بالقياس إلى ما عرفوا عن أم المتنبي . لأنهم لم يعرفوا من
أمرها شيئاً ، ولم يذكروا من أمرها شيئاً .

فنحن لا نعرف اسمها ، ولا نعرف أباه ، ولا نعرف أكانت
عربية من قبل أبيها أم أعجمية . وكل ما نعرفه أن أمها قد
عظفت على المتنبي ، وأحبته وكلفت به ، وعمرت حتى رآته رجلاً .
وهذه السيدة التي قتلها حب حفيدها فيما يقال وكما سنرى

لا نعرف لها اسماً ولا أباً ، وإنما نعرف أن بعض الرواة كانوا يقولون :
إنها همدانية صحيحة النسب ، وإنها كانت من صوايح نساء
الكوفة . وهذا ما يعرفه عنها التاريخ . وهو كذلك كل ما يعرفه
عنها ديوان المتنبي — أستغفر الله — فديوان المتنبي لا يذكر
نسبها ولا يشير إليه ، ولعله يشكك فيه بعض التشكيك بهذا
البيت الذي أملاه الغرور وصاغته الكبرياء ، ووصفه جموح
الشاعر في غير موضعه من الرثاء ، وهو قوله :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد

لكان أباك الضخم كونك لي أمًا

فأقل ما في هذا البيت أن المتنبي يذكر لنا أن جدته قد
كانت بنت أكرم والد ، ولكنها لم تكن محتاجة إلى هذا
النسب لأنه حفيدها . ولكن المتنبي لم يذكر لنا شيئاً عن هذا
الوالد الذي كان أكرم الناس . ومن الانصاف أن نلاحظ أن
المتنبي لم يكن يقرر في أكبر الظن أننا سنتشكك في نسبه
وسنلتبس وجه الحق فيه بعد أن يموت بألف سنة . ولو أنه قدّر
شيئاً من ذلك لأمكن أن يحتاط له بعض الاحتياط . ومن
يدري؟ لعله كان يزدرى شكنا ، كما كان يزدرى كيد المعاصرين .

ولعله كان يجيبنا بكل ما أجابهم به حين قال :

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا أُلْ

بَاحِثٍ وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهُ

وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ

مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيلَهُ

وإذا كان الكائدون للمتنبى من معاصريه قد عجزوا عن أن
ينفروه وينفذوا حيله ، ويضطروه إلى أن يذكر لهم أباءه وجدوده
فإن الباحثين المعاصرين لنا أعجز من أولئك الكائدين . فليس
بين هؤلاء المعاصرين الباحثين وبين المتنبى منافسة ، ولا خصومة ،
وليس هؤلاء الباحثون المعاصرون من العلم بأمر المتنبى ودخيلته
بحيث كان خصومه ومنافسوه في القرن الرابع . فليس من
شك في أن الذين عاصروا المتنبى وخصموه كانوا يعرفون من
سيرته ، ومن أمره جملة أكثر جدا مما نعرف ؛ لأننا لا نعرف
شيئاً أو لا نكاد نعرف شيئاً . بل إن مضي الزمن بيننا وبين
المتنبى قد رفع الرجل عن الخصومات وصفاه من أ كدار
المنافسة ، ورفع بحثنا عنه ودرسنا له عن الأحقاد والضغائن . فنحن
لا نُسَرُّ ، أو أنا على أقل تقدير لا أسروا أحزن إن ظهر أن

نسب المتنبي من جهة أبيه أو من جهة أمه ، قد كان صريحاً
أو مدخولاً . ونحن نبحت ، أو أنا على أقل تقدير أبحث من
أمر المتنبي عن شيء أبقي وأرقى وأقوم من نسبه العربي الصريح
أو المدخول : عن أدبه ، وفنه ، ومكانته من الأدباء ، وأصحاب الفن
القدماء والمحدثين .

ونحن إذا اتهمنا إلى قرارة الأشياء ، لا نكاد نشك في أن
المتنبي قد كان عربياً ، ولكن بشرط أن نفهم من لفظ العربي
معنى أوسع وأعمق وأصدق مما كان يفهمه النسابون في العصور
الأولى ، وما يفهمه المقلدون من الأدباء في العصر الحديث .
فأين العقل العاقل الذي يستطيع أن يصدق ما كان يقال
في العصور الأولى ، وما لا يزال يقال في كثير من المدارس
الأدبية من أن العربي الصريح أو العربي الصليبية هو الذي
يعرف له نسب صحيح إلى قبيلة من قبائل العرب في الشمال
أو في الجنوب ؟

أين العقل العاقل الذي يصدق أن جميع سكان جزيرة
العرب منذ العصور الجاهلية الأولى إلى هذا العصر الذي نعيش
فيه قد حفظوا لأنفسهم أنساباً صريحة صحيحة ترفعهم إلى عدنان

أو إلى قحطان ؟ إنما حفظ الأنساب مزية قد اختصت بها طبقات من أشرف العرب وساداتهم في بعض الأوقات ، ثم أصبحت سُنّة موروثة وعادة مألوفة ، ومظهراً من مظاهر الأرستقراطية . ثم فرضت على أصحابها أن يحفظوها ويتوارثوها ، وابتدعوها ابتداءً إذا غلبهم عليها النسيان .

ومن الحديث المعاد في غير طائل ، بل من الحديث المعاد في كثير من السأم والملل ، أن نذكر ما أثير حول الأنساب وصحتها منذ أقدم العصور العربية ، بل من الحديث المعاد الممل أن نذكر ما أثير حول صحة الأنساب عند الأمم القديمة كالليونان والرومان .

ليس من الحق إذن أن العربي لا يكون عربياً ، حتى يحفظ لنفسه أو يحفظ الناس له نسباً صحيحاً صريحاً ينتهى به إلى قبيلة من القبائل . ولو كان هذا حقاً لتغير كثير جداً من القيم التاريخية والمعاصرة . فأكثر الذين كانوا يرون أنفسهم عرباً في العصور القديمة ، لم يكونوا يحفظون أنسابهم في أكبر الظن . والتاريخ لم يحفظها عنهم على كل حال . أفنجد الآن أنهم كانوا عرباً ؛ لأن أنسابهم لم تصل إلينا ؟ وأكثر المعاصرين من الشعوب

العربية في الشرق الأدنى ، لا يحفظون أنسابهم ، ولا يستطيعون أن يرقوا بها إلى عدنان أو قحطان ، أفنجد تحذّرهم من العنصر العربي الصريح ، وما هذا العنصر الصريح ؟ وكيف السبيل إلى تحقيقه ، واستخلاصه من العناصر المختلفة التي لا تحصى ، والتي اتصلت به وأثرت فيه على تتابع الأحداث ومرّ العصور .

ولكن ماذا !؟ أراي أستطرد وأسرف في الاستطراد ، وأكاد أثير مسألة الأجناس التي يثيرها بعض الساسة المعاصرين ، ويندفعون معها إلى كثير من الحق ، وإلى كثير من الظلم أيضاً . والأمر أيسر من هذا ، فالتفكير في نسب المتنبي ، والحديث عنه أهون من أن يدفعنا إلى أن نخوض هذه الغمرات .

كان المتنبي يرى أنه عربي ، وسار حياته كلها سيرة ملائمة لهذا الرأي ، ولعل هذا الرأي كان أبلغ المؤثرات في حياته العملية ، وهو أبلغ المؤثرات في حياته الفنية على كل حال . وقد أنبأنا المتنبي برأيه هذا في نفسه حين قال :

لا بقومي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بي

وبنفسى فخرتُ لا بجُدودي

وَبِهِمْ فُخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّ

دَ وَعَوَّذُ الْجَانِي وَغَوْتُ الطَّرِيدِ

فهذا البيت الثاني صريح في أن المتنبي كان يعلن إلى الناس أنه لا يشرف بقومه وإنما يشرف قومه به ، وأنه يفخر بنفسه لا بأجداده ، وإن كان قومه فخر العرب ومجتمع خلاهم وخصالهم . فما الذي يمنعنا من أن نصدق المتنبي ، ونرى معه أنه كان عربياً قحطانياً ؟ لا شيء إلا أنه لم يحفظ نسبه ، ولم يحفظه له المؤرخون ، فأمره في ذلك أمر الكثرة التي لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم . أفنجدد عربيتهم ؛ لأنهم قد أضاعوا هذه الأنساب . وما يمنعنا إذن أن نجدد إنسانية الناس ؛ لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأول ، أو إلى الأناس الأولين ؟ إنما أفهم الشك في عربية المتنبي لو أن المؤرخين رووا أن له نسباً معروفاً أو قريباً من المعروف في أمة غير عربية ، وأنه قد جحد هذا النسب وتبرأ منه ، واصطنع لنفسه نسباً عربياً . ولكني لم أر أحداً عاب المتنبي بهذا ، أو أضاف إليه نسباً أعجمياً أو جعله عربياً بالولاء . وإذن فلنقبل من المتنبي ، ومن أصدقائه انتسابه إلى العرب ، فذلك

لا يغير من العلم شيئاً ، وأكبر الظن أنه يلائم الحق .
أفهم أن ينسب ابن الرومي إلى اليونان ؛ لأن جده اليوناني
قد حفظ اسمه ، وأن ينسب من قبل أمه إلى الفرس ؛ لأن أمه
الفارسية قد كانت معروفة ، وأفهم أن ينسب بشار إلى الفرس
لأنه كان يفاخر بذلك ولا يخفيه ، وأفهم أن تثار المناقشات إن
زعم زاعم أن بشاراً كان عربياً ، بل أفهم أن تثار المناقشات
حول طائفة أبي تمام ، ثم حول عربيته لأن المعاصرين قد شكوا
في نسبه وغمزوه ببعض الهنات . ولكني لا أفهم الشك في
عربية المتنبي ، مادامت القرائن لا تنسبه إلى أمة أعجمية ،
ومادام خصومه على كثرتهم وشدة بأسهم لم يفعلوا ذلك ،
ومادام هو ينبئنا بأنه عربي صريح .

ومن حَقَّ أن تسألني لماذا أطيل الحديث عن نسب
المتنبي ، وأظهر الشك في معرفته لأمه ومعرفته لأبيه ، مادمت
لا أميل إلى الجدل في عنصره العربي الصريح . من حَقَّ
أن تلقى على هذا السؤال .

فاعلم يا سيدي أنني لم أثير هذه المناقشة الطويلة لأعرف
أكان المتنبي عربياً أم أعجمياً ، وإنما أثيرها لآتني منها إلى

فإن حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك ، وهي أن المتنبي لم يكن
 يستطيع أن يفاخر بأسرته ؛ ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه .
 التمس لذلك ما شئت من علة ، فهذا لا يعنيني ، وإنما الذي
 يعنيني ، ويجب أن يعنيك ، هو أن شعور المتنبي الصبي
 بهذه الضعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدينين
 قد كان العنصر الأول الذي أثر في شخصية المتنبي ، وبغض
 إليه الناس ، وفرض عليه أن يرى أن حياته بينهم لم تكن
 حياة أترابه ورفاقه ، وإنما كانت حياة يحيط بها كثير من
 الغموض ، ويأخذها كثير من الشذوذ .

رأى نفسه شاذاً لأمر ليس له فيه يد ، وليس له عليه
 سلطان . ففكر تفكير الشاذ وعاش عيشة الشاذ ، ثم انضمت
 إلى هذا العنصر عناصر أخرى سيظهرها لنا شعره . فكوّنت
 هذه الشخصية التي لم نستطع أن نفهمها ، ولا أن نحللها إلى الآن .

ليكن المتنبي عربياً من قحطان أو من عدنان ، أو ليكن
 فارسياً ، أو ليكن نبطياً ، أو ليكن ما شئت ، فالأمر الذي
 لاشك فيه هو أن هذا الصبي الذي نراه متى أخذنا في قراءة
 ديوانه ، نبات شعبي خالص ، نشأ في هذا الشعب الكوفي الذي

كان في أوائل القرن الرابع مضطرباً أشد الاضطراب . فدرّس هذه البيئة الشعبية الكوفية التي أنبتت هذا النبات الشاذ أقوم وأجدي من البحث عن أبيه ، أكان من جعفي ، وعن أمه أكانت من همدان .

وتسألني -- ومن حقك أن تسألني -- عن مظاهر هذا الغموض الذي أحاط بحياة المتنبي ، وعن مواطن هذا الشذوذ الذي أخذها من كل وجه في بيئته الكوفية . فلاحظ قبل كل شيء غموض الأمر في نسبه ، ولاحظ بعد ذلك خلود يوانه من ذكر أمه وأبيه ، أو الإشارة إليهما ، ولاحظ بعد هذا وذاك هذا الكذاب الذي كان يكاد به عند أبي العشائر ، ثم لاحظ آخر الأمر أنه حين عرف شوق جدته إليه ، ووجد الشوق إلى لقائها ، وذهب لتنعم وينعم هو بهذا اللقاء لم يستطع أن يدخل الكوفة ، فذهب إلى بغداد وكتب إلى جدته لتشخص إليه . فلما انتهى إليها كتابه فرحت به فقتلها الفرح .

أليس هذا كله دليلاً على أن شيئاً كثيراً من الغموض قد أحاط بأسرة المتنبي .

لماذا احتاج المؤرخون إلى أن يتحدثوا عن أبيه ، وعجزوا

أو لم يريدوا أن يتحدثوا عن أمه ، ولم يتحدث هو عن هذه وذاك ؟

لماذا كاد الكائدون للمتنبي في نسبه ؟ لماذا تعمد الغربية عن الكوفة وألحَّ فيها ، وتجنب الحياة في العراق ما وسعه هذا التجنب ؟ لماذا عجز عن دخول الكوفة حين خفَّ للقاء جدته ، فمضى إلى بغداد وطلب إلى جدته أن تشخص إليه ؟ كل هذه حقائق واقعة لا نستطيع أن نشك فيها ، ولكننا لا نستطيع أن نعللها تعليلاً قاطعاً . والمتنبي يحقق لنا هذه الأحداث في هذه القصيدة الخالدة التي يرثي بها جدته ، فاقراً معي هذه الأبيات ، ولكن قراءة المستأنى المتمهل الذي لا يمر بالشعر مرّاً ، والذي لا يشغله الجمال الفني عن التماس نفس الشاعر ، وما يكن في ضميره من العواطف المكظومة ، والأهواء المكثومة ، والخواطر التي لا يعرب عنها إلا بالإشارة والتلميح :
طَلَبْتُ لَهَا حَظًّا ففَاتَتْ وَفَاتَنِي

وقد رَضِيتُ بِي لو رَضِيتُ بِهَا قِسْمًا

فَأَصْبَحْتُ أُسْتَسْقَى الْغَمَّ لِقَبْرِهَا

وقد كُنْتُ أُسْتَسْقَى الْوَعْيَ وَالْقَنَا الصُّمًّا

وكنْتُ قُبَيْلَ الْمَوْتِ أَسْتَغْظُمُ النَّوَى
فَقَدْ صَارَتْ الصُّغْرَى الَّتِي كَانَتْ الْعُظْمَى
هَبْنِي أَخَذْتُ الثَّارَ فَيْكَ مِنَ الْعِدَى
فَكَيْفَ بِأَخِذِ الثَّارِ فَيْكَ مِنَ الْحُمَى
وَمَا أُنْسَدَتْ الدُّنْيَا عَلَى لَضِيقِهَا
وَلَكِنَّ طَرْفًا لَا أَرَاكَ بِهِ أَعْمَى
فَوَا أَسَافًا إِلَّا أَكْبَّ مُقَبَّلًا
لِرَأْسِكَ وَالصَّذْرِ الَّذِي مُلْنَا حَزْمًا
وَأَلَّا أَلَاقِي رُوحَكَ الطَّيِّبَ الَّذِي
كَأَنَّ ذِكْرَكَ الْمِسْكَ كَانَ لَهُ جِسْمًا
وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمِ وَالِدٍ
لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا
لَئِنْ لَدَّ يَوْمُ الشَّامِتِينَ بِمَوْتِهَا
لَقَدْ وَلَدْتُ مِنِّي لِأَنْفِهِمْ رَغْمًا
تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعْظَمًا غَيْرَ نَفْسِهِ
وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا

ولا سالكاً إلا فؤادَ عِجَاجِهِ
ولا واجِداً إلا لِمَكْرُمَةٍ طَعْمَا
يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ
وما تَبْتَغِي؟ ما أَتَبْتَغِي جَلًّا أَنْ يُسَمَّى
كَأَنَّ بَيْنَهُمْ عَالِمُونَ بِأَنِّي
جُلُوبٌ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعَادِنِهِ الْيَتِيمَا
وما أَلْجَعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي
بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا
وَلَكِنِّي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ
وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْغَشْمَا
وَجَاعِلُهُ يَوْمَ الْإِقْلَاءِ تَحِيَّتِي
وإِلَّا فَلَسْتُ السَّيِّدَ الْبَطْلَ الْقَرْمَا
إِذَا فَلَّ عَزْمِي عَنْ مَدَى خَوْفٍ بُعْدِهِ
فَأَبْعَدُ شَيْءٍ مُمَكِّنٌ لَمْ يَجِدِ عَزْمَا
وإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نَفْسَهُمْ
بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا

كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا إِذَا شِئْتَ فَادْهَبِي
وَيَا نَفْسِ زِيدِي فِي كَرَائِمِهَا قَدْ مَا
فَلَا عَبَرْتَ بِي سَاعَةً لَا تُعِزُّنِي

وَلَا صَحَبَتْنِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَا
فَهُوَ قَدْ طَلَبَ لَجْدَتَهُ حِظًا لَمْ يَدْرِكْهُ ، لِأَنِّهَا أَسْرَعَتْ إِلَى
الْمَوْتِ ، وَلِأَنَّ هَذَا الْحِظَّ أَبْطَأَ عَلَى طَالِبِهِ . وَهُوَ يَسْأَلُ كَيْفَ
يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثَارَ لَهَا مِنَ الْحَمَى الَّتِي قَضَتْ عَلَيْهَا . عَلَى فِرْضِ
أَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَثَارَ لَهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ أَسَاءُوا إِلَيْهَا .

فَمَنْ حَقَّقْنَا أَنْ نَسْأَلَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ مِنْ هُمْ ، وَمَنْ
عَسَى أَنْ يَكُونُوا ؟ وَمَنْ حَقَّقْنَا أَنْ نَسْأَلَ عَنْ هَذِهِ الْمَسَاءَةِ مَا هِيَ
وَمَا عَسَى أَنْ تَكُونَ ؟ مَنْ حَقَّقْنَا أَنْ نَسْأَلَ ، وَلَكِنْ الْمُنْتَبِي
لَمْ يَقْدِرْ هَذَا السُّؤَالَ فَلَمْ يَجِبْ ، أَوْ قَدَّرَهُ وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَجِيبَ عَلَيْهِ
لِأَنَّهُ آثَرَ التَّلْمِيحَ عَلَى التَّصْرِيحِ ، وَلِأَنَّهُ رَأَى ، وَمَنْ حَقَّقَهُ أَنْ
يَرَى ، أَنَّ هَذِهِ أُمُورَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْنِينَا ، أَوْ إِنَّمَا هِيَ تَعْنِيهِ
وَحْدَهُ ، وَحَسْبُهُ أَنْ يَعْرِفَ بَعْضُهَا نَاسٌ مِنَ الْمَعَاصِرِينَ قَلِيلُونَ
أَوْ كَثِيرُونَ .

✱ هَذَا يَدُلُّ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ عَلَى أَنَّ سِرًّا مِنَ الْأَسْرَارِ كَانَ
يَكْتَنِفُ حَيَاةَ أَبِي الطَّيِّبِ وَيَحِيطُ بِأَسْرَتِهِ ، وَيَسْتَرِ عُنَا حَقِيقَةِ

الصلة التي كانت بينه وبين هذه الجدة الصالحة ، والتي كانت
بين الحسين السقاء وبين هذه الجدة الصالحة أيضاً ، والتي
اقتضت أن تهمل أمّ المتنبي إهمالاً تاماً .

والمتنبي لا يكتفى بهذا التلميح الموجز ، وإنما يطيل فيه
إطالة مقصودة تصور ما يملأ نفسه من الضغينة والحقد ، وما يغم
قلبه من المودة والبغض ، ولكنه على هذه الإطالة لا يفصل
هذا التلميح ولا يكشف عما يدل عليه من غموض .

فهو يحدثنا بأن قوماً قد يُسَرُّون بموت جدته ، ويشمتون
به وبها ، ولكنه يعلن إلى هؤلاء الناس أنها إن مضت
وأعجزها الموت عن أن تكبتهم وترد كيدهم في نحورهم ، فقد
ولدته رغماً لأنوفهم ، وكتبنا لما في صدورهم من الحقد والشنان .
ثم هو يصف لنا نفسه كما تعود أن يصفها شديدة البأس ، قوية
المراس ، أبية الضيم ، ممتنعة على الذل . ولكننا نقف من
هذا الوصف المألوف في شعر المتنبي عند هذا البيت الذي
لا يخلو من غرابة تدعو إلى التفكير .

تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعْظَمًا غَيْرَ نَفْسِهِ

وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا

فهو إذن لم يتغرب عن الكوفة حباً في الغربة ، ولكن
إيثاراً لها ولمشقاتها وأخطارها على العافية في الكوفة . وهو
لأمر ما قد آثر هذه الغربة ، وتعرض لما قد تنكشف عنه
من الأخطار والأهوال .

ولعلنا نغلو حين نقول لأمر ما ، فهو يبين لنا هذا الأمر
أو هذه الأمور في هذا البيت نفسه وفي الأبيات التي تليه .
فهو تغرب لأنه لم يكن يستعظم إلا نفسه ، وهو تغرب لأنه
لم يكن يقبل حكماً إلا لخالقه . وما معنى هذا ؟ معناه في
أكبر الظن أنه تغرب منكراً للحياة في الكوفة . وماذا
عسى كان ينكر من الحياة في الكوفة ؟ إنماها أمران اثنان
كانا خليقين أن ينكرهما المتنبي : أحدهما يتصل بالحياة
الاجتماعية ، والآخر يتصل بالحياة السياسية . وليس من شك
عندي — ولك أنت أن تشك — في أن المتنبي لما تقدمت
به السن قليلاً قد عرف من أمر نفسه ، ومن أمر أسرته
ما أنكره ، وما لم يستطع أن يقيم معه في الكوفة فأثر الرحيل .
فهذا هو الأمر الاجتماعي الذي يتصل بشخص المتنبي
وأسرته ، ومكانه ومكان هذه الأسرة في طبقته الاجتماعية .

فأما الأمر الآخر الذي يتصل بالحياة السياسية ، فأبيات
المتنبى التي روينها آنفاً ، تدل عليه أيضاً دلالة واضحة ،
وستبينه بعد قليل في شيء من الجلاء لا يحتمل اللبس .

وهو عندى أثر من آثار الأمر الأول . فقد كان المتنبى ثائراً

على نظام الحكم المستقر في الكوفة ، ضيقاً به ، راغباً في تغييره

أو جاداً في هذا التغيير . ولعل هذا كله لم يقنعك كما أقنعى

بأن طفولة المتنبى لم تكن طفولة عادية مألوفة ، وبأن صبي

المتنبى لم يكن صبي عادياً مألوفاً ، وبأن الكذاب الذي كان

يكاد به عند أبي العشائر ، ويراها أهون عنده من ناقله لم

يكن كذاباً كله ، وإنما كان له أصل يملأ صدر المتنبى غيظاً

وحفيظة ويدوده عن الكوفة بل يبعض إليه الحياة في العراق

ويحمله على أن ينفق عمره غريباً مجوّلاً في الآفاق .

هذا كله يكفينى لأقتنع بأن مولد المتنبى كان شاذاً ،

وبأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها ، ولم

يستطع أن يلائم بين نفسه الشاذة وبين البيئة الكوفية التي

كان يراد له أن يعيش فيها . فما هذه البيئة ؟

٤

وهل تريدني على أن أعيد عليك ما امتلأت به السكتب
والصحف من تصوير الحياة العراقية خاصة ؛ والإسلامية عامة
آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع . أظنك أرفق بنفسك
وبي من أن تنتظر مني هذا الحديث المعاد ، ولكن لا بأس
بأن نتذكر إن كنا قد نسينا أن هذه الحياة العراقية خاصة
والإسلامية عامة كانت تنحل إلى ثلاثة أشياء ، كل منها
خليق بالتفكير الطويل العميق ؛ لأن لكل منها أثراً بالغاً في
أحداث ذلك العصر على اختلافها :

الأمر الأول فساد السياسة ، والأمر الثاني الاقتصاد ،
والأمر الثالث رقي العقل . وما أظن أنك محتاج إلى أن أذكر
لك فساد أمر الخلافة في ذلك العصر ، فكل كتب التاريخ
وكل كتب الأدب تصوّر لك ما كان من انهيار سلاطين
الخلفاء وانحلال أمرهم ، وخضوعهم المطلق لعبث الجند ، وقادة
الجند ، ولسلاطين الخدم والنساء . وما نشأ عن ذلك كله من

عجز السلطان المركزي في بغداد عن أن يجمع أطراف الدولة
ويجزم أمرها ، كما كان يفعل حين كان الخلفاء خلفاء ،
وحين كانت الخلافة خلافة ، وحين لم يكن أمير المؤمنين لعبة
في يد خادم أو أمة . ثم ما نشأ عن هذا كله من استقلال
الأطراف ، وطموح الولاة إلى الملك ، وظهور القوميات الوطنية
في الشرق والغرب ، ونشوء عهد يشبه عهد الإقطاع في أوروبا
أثناء القرون الوسطى .

أنت تعرف هذا كله ، ولست أحدثك بمجديد إن أعدته
عليك ، وهو من غير شك يصور لك فساد السياسة الإسلامية
في ذلك العصر . وفساد هذه السياسة الإسلامية قد استتبع
من غير شك فساد الاقتصاد الإسلامي . فما دام السلطان
المركزي مضطرباً عاجزاً ، كثير التقلب ، فشؤون المال في الدولة
مضطربة مختلطة كثيرة الارتباك . وإذن فجباية الضرائب ،
وتحصيل الدخل ، وملء الخزانة ، كل ذلك مضطرب أيضاً .
وإذن فدافعوا الضرائب على اختلافهم وتباين طبقاتهم ، معرضون
لألوان من الظلم لا يمكن إحصاؤها . وإذن فالتعاون بينهم
وبين السلطان منعدم ، وسوء الظن قائم مقام هذا التعاون :

السلطان محتاج إلى المال دائماً ، وهو معتقد أن
الرعية قادرة دائماً على أن ترضى حاجته إلى هذا المال ، والرعية
سيئة الرأي في السلطان ، ترى ظلمه و بطشه ، وعجزه وعيبه
بما تدفع إليه من مال ، فلا تطيب له نفسها عن شيء . فهي
تظهر الفقر ، وتعلن الشكوى ، وتضمر البغض للحكومة ،
وتجد في أن تخفي عليها ما تملك . فالعداء مستحكم بين الراعي
والرعية . كل يرى نفسه لصاحبه خصماً ، وكل ينتهز لصاحبه
الفرصة ويتربص بصاحبه الدوائر . وعجز السلطان واضطرابه ،
وعبت الجند والخدم ، يدفعه إلى شيء آخر غير ظلم الرعية ؛
يدفعه إلى ظلم أعوانه أنفسهم . فهو يأجر الجند إن استطاع ،
فإذا أعياه ذلك لم يؤدّ إلى الجند أجورهم ، وإذن فسوء الظن
قائم بينه وبين الجند ؛ يرى هو أنهم نهمون لا يشبعون ،
ويرون هم أنه مستأثر دونهم بالمال ، يستغلهم ولا يؤدي إليهم
أجراً . فسياسة السلطان للجند وطاعة الجند للسلطان يقومان
على المكر والخداع ، أكثر مما يقومان على الصراحة
والإخلاص . والأمر ليس مقصوراً على الجند وقادتهم ،
ولكنه يتجاوز أولئك وهؤلاء إلى أصحاب المناصب المدنية

على اختلافها . فهم أيضاً لا يتقاضون أجورهم في نظام ، وهم
أيضاً مدفوعون إلى أن يسيئوا الظن بالسلطان ، والسلطان
مدفوع إلى أن يسيء بهم الظن ، وهم مدفوعون إلى شر من
هذا ، مدفوعون إلى أن يأجروا أنفسهم على حساب الرعية ،
يظلمون ويغصبون ، يسرقون ويرتشون . والرعية ترى هذا
وتتقيه ما استطاعت — وكلما تستطيع — فهي تنكر السلطان
وجند السلطان ، وأعوان السلطان . وهي أيضاً تريد أن تعيش
وأن تعيش في لين إن وجدت إلى ذلك سبيلاً . والسلطان
يضرب لها المثل وينصب لها القدوة . فما لها لا تظلم كما يظلم
السلطان ، وما لها لا تغصب كما يغصب السلطان . وإذن فقوام
الأمر كله الظلم والغصب ، وإفلات المرء بما يستطيع أن
يفلت به من نعيم الحياة ولذاتها .

ومن هنا يوجد الأغنياء الذين لا تحصى ثروتهم ،
والفقراء الذين لا يتصور فقرهم ، والمضطربون بين الغنى
والفقر الذين يواتيهم الحظ ؛ فيباعدون أقصى النعيم . ثم
تخلفهم الأمانى وعودها ، فيهبطون إلى قرارة البؤس .
وما أظنك في حاجة إلى أن أؤكد لك أن هذه الصور

التي عرضتها عليك ليست صوراً قد اخترعها الخيال من عند نفسه ، وألفها تأليفاً ، مؤثراً في هذا التأليف الغلو والإغراق . إنما هي صور متواضعة ، أقل ما توصف به أنها أيسر وأهون ، وأقل بشاعة وسماجة مما نقرؤه في كتب التاريخ الذي يعرض علينا فساد السياسة والاقتصاد مفصلاً أقبح تفصيل وأشنعه . يعرضه علينا مكتوباً بالدم لا بالمداد .

X أما رقيُّ العقل في هذا العصر فليس أقل ظهوراً وجلاء من فساد السياسة والاقتصاد . فهو العصر الذي نضجت فيه الحضارة الإسلامية ، وأدركت رشدها ، واستكملت قوتها ، وأخذت تؤتي ثمرها طيباً لذيذاً في كل فرع من فروع العلم ، والفلسفة والأدب والفن .

وكان العراق بالضبط أخصب مركز لهذه الحضارة الناضجة الراشدة المثمرة . فيه التقت أكثر الأجناس التي تتألف منها الدولة الإسلامية ، أو على أقل تقدير أكثر هذه الأجناس استعداداً للحضارة ، وأحسنها بلاء فيها ، وأعظمها حظاً من الإنتاج قديماً وحديثاً . فيه كان العرب ومعهم تراثهم التليد والطريف من الأدب والدين . وفيه كان الفرس ومعهم

حضارتهم الساسانية المعقدة التي تمتاز بالترف المادى والعقلى
معاً ، وفيه كانت أخلاط الساميين الذين نقلوا تراث اليهود ،
وتمثلوا تراث اليونان ، وكانوا تراجمة لهذه الحضارة الجديدة ،
ينقلون إليها تراث الأولين من أهل الشرق والغرب ، ويعينونها
على أن تسيغه وتمثله . ولن يخلو العراق من يونانيين انحدروا
إليه وأقاموا فيه طائعين ، للاقتصاد والتماس المنفعة ، وكارهين
بحكم الحروب المتصلة بين المسلمين والبيزنطيين وبحكم الرق أيضاً .

ولن يخلو العراق من الهنود الذين كانوا يفسدون طوعاً
أو كرهاً كالـ اليونان . ثم لم يخل العراق ممن كانوا يمثلون
الأقاليم والأطراف الغربية للدولة ، كانوا يفسدون للتجارة ،
وكانوا يفسدون للسياسة ، وكانوا يفسدون لطاب العلم أيضاً ،
وكل هذه الأجناس كانت تلتقى متعارفة لا متناكرة ،
ومؤتلفة لا مختلفة ، ومتعاونة لا متقاطعة ، قد زالت بينها
الفروق ، وألغيت بينها الحجب ، وصبغت الحضارة الجديدة
صبغة واحدة ، وجعلت لها لغة واحدة هي اللغة العربية ،
بها تتحدث ، وبها تكتب ، وفيها تدون ، وعن هذا كله
نشأت الظاهرة التي تعيننا الآن ، وهي أن رقى العقل في هذا

العصر قد انتهى إلى ما لم ينته إليه قط في العصور الإسلامية السابقة . فأحدث آثاراً غريبة أقل ما توصف به أنها كانت متناقضة أشد التناقض :

اختلطت الثقافات المختلفة وانتشرت في الطبقات كلها ،
في الطبقات القوية ، وفي الطبقات الوسطى ، وفي الطبقات
الضعيفة الحاملة ؛ ونشأ عن انتشار الثقافة وتغلغل العلم في
جميع الطبقات أن كل متعلم مثقف طمح إلى حال خير من
حاله التي هو فيها ، وفتحت الثقافة المثقفين أبواب الحيل ،
ومدت لهم أسباب النجاح ، ومهدت لهم سبل الفوز . فأما
الأغنياء وأصحاب الصولة فقد طمعوا وجهدوا في أن يتزيدوا
من الغنى والصولة ، وظفروا من ذلك بالشئ الكثير .

وأما أوساط الناس فقد طمعوا في السيادة ، وسموا إلى
المكانات العليا ، وبلغوا منها كثيراً مما أرادوا . وأما الطبقات
الضعيفة الحاملة فقد طمعت في أن ترقى درجة أو درجات ،
وظفرت من ذلك بكثير مما أرادت أيضاً . ولكن الطمع
الإنساني لا حد له ، والطموح إلى الكمال لا يقف ، والأمور
الاجتماعية لا تضطرد على هذا النمو السهل الذي يتصوره

العقل ، فكل طمع في أى طبقة من الطبقات يصده طمع مثله ، وكل طموح يقاومه طموح مثله ، وكل ظفر ينتهى إليه فرد من الأفراد أو طبقة من الطبقات ، انما هو انتصار على فرد آخر ، أو ظهور على طبقة أخرى ، فهو إن أَرْضَى قوماً يسخط آخرين ، والحياة الإنسانية لذلك دائماً حرب متصلة ، وصراع مستمر ، وطموح لا ينتضى ، وآمال لا تحدد وجشع لا يرضى ؛ فإذا أُتيح لهذه الحياة سلاح من العقل الراقى ، والثقافة الواسعة ، والعلم الذى يفتق الحيلة ويرهف الحس ، ويذكى نار الشعور ، ويشحذ العزم ، لم يكن بدّ من أن ينتهى الأمر إلى الثورة وإلى الاضطراب ، وإلى مثل ما نشهده فى ذلك العصر من فساد السياسة ، والاقتصاد والخلق والشعور الدينى أيضاً . وإذا كنا قد لاحظنا ما لاحظناه من فساد السياسة الإسلامية فى ذلك الوقت وغليانها كما يغلى المرجل ، ثم انفجارها آخر الأمر وانتهاءها إلى ما انتهت إليه من الكوارث والأحداث .

فالثورة البابكية أو الخرمية فى أول القرن الثالث ، وثورة الزنج أواسط هذا القرن وثورة القرامطة فى آخره ،

وفي أثناء القرن الرابع لم تكن إلا نتائج طبيعية لتفاعل هذه العناصر التي أشرنا إليها في كثير من الإيجاز .

ولعل أخص ما يمتاز به هذه الثورات الثلاث أنها كلها كانت تقصد إلى تغيير الحياة الاقتصادية ، بحيث يغير توزيع الثروة بين الناس ، ويتحقق شيء من العدل والمساواة بين الأفراد والجماعات ، وأنها كلها كانت تقصد كذلك إلى تقوية الشخصية الفردية ، وتحريرها من القيود والأغلال التي فرضها عليها النظام الديني والسياسي والاجتماعي ، فقد كان الأفراد كما هم دائماً يمتثلون في أن يتحللوا من هذه القيود بين الحين والحين ؛ فكانوا يحاولون اللهو والعبث ، واستباحة ما لم يكن مباحا ، يجهرون بذلك إن أتيت لهم الفرص ، ويسرّون ذلك إن حيل بينهم وبين الإعلان ، فإذا هذه الثورات تطالب لهم بالحق في أن يجهروا من ذلك بما أحبوا ، وفي أن يأخذوا من ذلك ما أرادوا ، تعلن ذلك في غير تحفظ حيناً ، وتعلن ذلك مع التحفظ والاحتياط حيناً آخر ، وهي على كل حال تملق أهواء العامة وشهواتهم وحاجاتهم إلى استباحة ما لا يباح ، والاستمتاع بما لا يحل الاستمتاع به .

والثقافة تهون عليهم إثم ذلك من جهة ، وتفتق لهم
الحيلة في ذلك من جهة أخرى ، والغرائز المظلومة تستجيب
لهذه الدعوات الجريئة الملحة المغرية ، والأمـر يختلط بين
الخاصة والعامة ، وبين العالم والجاهل ، وبين المقدم عن فهم
ورأى ، والمقدم عن انتهاز للفرصة واستمتاع بالساعة التي هو
فيها ، حتى فسد الأمر واختلط ، وحتى طغى السيل وكاد
يكتسح كل شيء ، وقد قاومه المعتضد ، وأقام الجسور التي
حصرتة حيناً ، ولكن المعتضد لم يكـد يموت حتى انهارت
هذه الجسور ، واندفع السيل أمامه لا يلوى على شيء ،
وعجزت الدولة الإسلامية عن مقاومة هذا الطوفان الخطر ،
الذي أثاره ما كان من التفاعل بين هذه العناصر التي صورناها
منذ حين .

في هذا العصر الذي نحن بإزائه عظمت الشخصية الفردية
حتى انتهت من القوة إلى حد لم تبلغه قط في التاريخ
الإسلامي ، وضعفت قوة الجماعة حتى كادت لا تكون شيئاً
يذكر ، ونشأ عن ذلك أن قويت الأثرة وتحكمت في الأفراد
وتسلطت على سيرتهم وتفكيرهم ، وأحجى الإيثار أو كاد

يَمَحِي ، وضعف تأثير العواطف الطبيعية التي تعتمد عليها
الحياة الاجتماعية المستقرة ، ولم يكن غريباً أن يُمكر الصديق
بصديقه ، ويغدر الخليل بخليله ، ويكيد الابن لأبيه ، ويبغى
الأخ على أخيه ، ولم يكن من الغريب أن تستباح الدماء
التي عصمها الله ، وتنتهك الحرمات التي أمر الله أن ترعى .
ويجب أن نلاحظ أن كل هذه الظواهر التي كانت
حتمات واقعة في ذلك العصر لم تكن تتخذ طرقها ميسرة
ممهدة مستقيمة . وإنما كانت تلتوى وتعوج وتدور حول
الصعاب والمشكلات إذا لم تستطع أن تقتحمها ، وليس من
شك في أن كثيراً من التضليل والتغدير قد ساط على جماعات
بريئة مطمئنة غافلة . فلبس لها الحق بالباطل ، وزين لها الشر
حتى رآته خيراً ، ودفعها بألوان الإغراء العنيف حتى اندفعت
أمامها في هذه الصحراء تلتمس الرى من هذا الماء الذي كانت
تراه رأى العين وتركض إليه ؛ حتى إذا بلغت لم تجده شيئاً
ووجدت عنده الخيبة والبؤس والشقاء .

فهذه الجماعات الضخمة التي ثارت مع بابك الخرمي أو مع
صاحب الزنج ، أو مع دعاة القرامطة لم تكن كلها مقدمة عن

علم بما تقدم عليه ، وإنما ثارت تلتبس العدل الاجتماعى الذى
تتطلبه النفس الإنسانية دائماً وتتطلبه ماحة شاكية كلما عظم
حظها من البؤس والشقاء ، وقد عرف قادتها وسادتها كيف
يلبسون عليها الأمر ويزينون لها الشر ، وعرف الحكام
وأعوان الحكام كيف يبغضون إليها النظام القائم ويزهدونها
فيه ، ويدفعونها إلى الثورة به والخروج عليه .

فى هذا العصر الذى نحن بأزائه ، وفى هذا الاضطراب
المتصل والفساد الشائع ، كثر المغامرون والمخاطرون وأصحاب
المطامع التى لا تحدد . وظفر بعض هؤلاء المغامرين بما كان
يريده كله أو بعضه ، ظفراً يطول حيناً ويقصر حيناً ، ولكنه
ظفر على كل حال من شأنه أن يغرى بالمغامرة ويدفع إلى
المخاطرة ، ويزيد أثرة الأفراد ، ويضيف فى حياة الجماعات
فساداً إلى فساد .

فى هذه البيئة المنكرة التى لم نبالغ ولم نغل فى تصويرها
ولد المتنبى . وأكبر الظن أن مولده كان أثراً من آثار هذا
الفساد العظيم ، أو أنه لم يخل من تأثر به على كل حال .
ولد المتنبى فى بيئة كان الدم يصبغها من حين إلى حين .

ولد الحسين في سنة

كان الدم يصبغها ثم لا يكاد يجف حتى يسفك دم آخر / ولم يكن الدم وحده يصبغها ، وإنما كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكراً من سفك الدم ، هو النهب والسلب واستباحة الأعراس ، وانتهاك الحرمات ، والاستخفاف بقوانين الخلق والدين .

أضف إلى هذا الشر كله شراً آخر سياسياً جنسياً إن صح هذا التعبير ، وهو أن الأمة العربية التي أقامت هذا الملك الضخم ، وشيدت هذه الحضارة المزدهرة قد غلبت على أمرها وطردت من مستقر سلطاتها ، فأنحاز إلى الشام والجزيرة منها من انحاز ، وخضع للذل منها من أقام في العراق ، ودفع إلى الجهالة والبداءة منها من انحاز إلى جزيرة العرب وأقام فيها .

وتسلط الغلمان والرقيق والمغامرون من الخدم وأشباه الخدم على الملوك والأمراء والخلفاء يعبثون باسمهم ويبطشون بسلطانهم ، ويظلمون دون أن يردعهم رادع أو يزعمهم وازع أو يصدحهم عن ذلك صاد ، فعامة الناس طامعون في العدل العام ، وهم مع ذلك ينكر بعضهم بعضاً ، ويمكر بعضهم ببعض ويعتدي بعضهم على بعض . وخاصة الناس متنافسون متدابرون

لا يعرفون لما بينهم من التنافس والتدابير حدا ، ولا يعرفون
لما يثيره التنافس والتدابير في نفوسهم من الآمال والأهواء ،
ومن المطامع والمآرب غاية ينتهون إليها .

ملك عظيم ينقض ، وسلطان هائل ينهار ، وقوم
يتهالكون على فتات ذلك الملك وأنقاض هذا السلطان .
فإذا ولد في هذه البيئة صبي ذكي القلب مرهف الحس ، رقيق
المزاج ، حاد الشعور ، ملتهب العاطفة ، قوى الخيال ، كان
من الطبيعي أن يسير السيرة التي تكون منه هذا الشخص الذي
يعرف بالمتنبى .

ومع ذلك فقد يكون من الخير أن نصحب هذا المتنبى
في طريقه القصيرة التي سلكها منذ ولد سنة ثلاث وثلاثمائة
إلى أن مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . وقد نجد غموضاً
والتواء في هذه الطريق ، ولكنها على كل حال أيسر من
كثير من الطرق التي سلكها غيره من الشعراء ، لأنه هو يسرها
لنا فأحسن تيسيرها .

وطفولة المتنبي مجهولة بالطبع كطفولة غيره من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه. وليس في ذلك شيء من الغرابة ، مادامنا نجعل من أمر أسرته الخاصة كل شيء ، أو نكاد نجعل من أمرها كل شيء ، وما دما لا نعرف شيئا عن أمه ، ولا نكاد نعرف أو لا نعرف شيئا عن أبيه . فطبيعي ألا نعرف عن طفولته شيئا ما .

والذي نعرفه عن صبي المتنبي ينقسم قسمين : أحدهما ينبئنا به الرواة ، وأنا أقف منه موقف التحفظ والاحتياط ، ولكني لا أهمله ولا أغيه .

والثاني ينبئنا به المتنبي نفسه ، فيما حفظ لنا ديوانه من شعر الصبي . وأنا أطمئن إليه اطمئنانا ما ، وآخذه أخذ الناقد الذي لا يصدق كل ما يلقي إليه في غير تفكير .

فأما الرواة فيحدثوننا أن المتنبي دفع إلى مدرسة من ^{ذهبت} مدارس العلويين ، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين ^(١) . فبدأ

(١) خزانة الأدب ج ١ ص ٣٨٢ (طبع القاهرة) .

هناك

في هذه المدرسة أو في هذا المكتب تعليمه ، ولا يزيد الرواة على
هذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه . ولكن المتأخرين والمحدثين
منهم خاصة يذهبون في فهم هذا الخبر مذهباً أقل ما يوصف به
أنه لا يخلو من مبالغة . فهم يظنون أن هذه المدرسة العلوية
كانت مدرسة أرستقراطية ممتازة ، وهم بعد ذلك يرسلون
لأنفسهم العنان في تفسير اختلاف الصبي إلى هذه المدرسة العلوية
الأرستقراطية ، ويفسرونه تفسيرات مختلفة .

أما أنا فلست أدري أكانت المدرسة العلوية هذه ممتازة
أرستقراطية حقاً ، أم كانت مدرسة كغيرها من المدارس ،
وهذه المدارس ولكنها تعلم على مذهب الشيعة العلويين . فكان العلويون
يؤثرون أن يرسلوا إليها أبناءهم ؟ فلفظ العلويين في هذا الخبر
عندي يوشك أن يكون مرادفاً للفظ الشيعة ، وواضح جداً أن
المدارس في مدينة كمدينة الكوفة كانت تختلف باختلاف
السكان لهذه المدينة . فالشيعة من هؤلاء السكان مدارسهم ،
والسنين منهم مدارسهم أيضاً . وجائز أن تسمى مدارس الشيعة
مدارس علوية ، كما تسمى مدارس أهل السنة مدارس عباسية .
وأكبر الظن عندي أيضاً أن الأرستقراطيين الممتازين

من الشيعة العلوية ومن أهل السنة ، لم يكونوا يرسلون أبناءهم في طور الصبا إلى المدارس العامة . وإنما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين . فإذا شبوا خلَّوْا بينهم وبين الاختلاف إلى مجالس العلم في الأندية والمساجد الجامعة . إنما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم إلى هذه المكاتب والمدارس .

للشيعة العلويين مكاتبهم ومدارسهم ، ولأهل السنة مكاتبهم ومدارسهم أيضاً . فاختلاف المتنبي إلى هذه المدرسة العلوية لا يدل عندى على امتياز ولا على استثناء . وإنما يدل على الاتجاه الدينى الذى وجه إليه الصبى . ويدل على أن الذين كانوا يكفلون هذا الصبى ويقومون على تربيته وتنشئته كانوا من الشيعة العلويين .

ولسنا فى حاجة إلى أن نطيل البحث لنعرف ماذا كان يتلقى المتنبي فى هذه المدرسة التى اختلف إليها أيام صباه . فالراجح بل المحقق أنه تعلم فيها الكتابة والقراءة ، وقرأ فيها القرآن كله أو بعضه ، وتلقى فيها أصول الدين وفروعه على مذهب الشيعة العلويين . وسمع فيها الشعر ، وروى منه أطرافاً ، وتعلم فيها شيئاً من علوم اللغة والأدب بوجه عام .

وقد كان لهذه المدرسة تأثير ظاهر في عقل هذا الصبي وقلبه
ينبئنا به الديوان . فقد حفظ الديوان المتنبي مقطوعات من
الشعر قالها الصبي وهو يختلف إلى المكتب .

وليس يعني أن نؤرخ بالدقة هذه المقطوعات ، فقد لا تكون
السبيل ميسرة إلى هذا التاريخ . ولكن الشيء الذي نستطيع
أن نحققه هو أن ثلاث [☆]حصال تظهر لنا في هذا الشعر :

الخصلة الأولى أن الصبي مقلد في الفن الشعري ، يتأثر بما
كان يحفظ في المدرسة ، أو ما كان يسمع فيها من شعر القدماء ،
ومن شعر المعاصرين الذين سبقوه بوقت قصير . وهذا طبيعي
فالأصل في الابتداء الفني التقليد بحيث يقلد المبتدئ واحداً
أو غير واحد من الذين سبقوه في الفن الذي يزاوله . يلتبس نفسه
كما يقول الفرنسيون في هذا التقليد حتى إذا وجدها استغل قواها
وعواطفها واستثمر كنوزها ودخائلها ، واستخرج منها شخصيته
التي تنمو على مر الزمن وطول المراتب . فليس غريباً أن يكون فن
المتنبي في صباه فناً تقليدياً ليست له قيمة خاصة .

والخصلة الثانية أن هذا الشعر ، شعر صبي متشيع للعلويين ،
متأثر بآراء الشيعة وبآراء الغلاة منهم خاصة ، وسنرى هذا
بعد قليل .

حصال
الصبي

والخصلة الثالثة أن هذا الشعر شعر صبي لم يكن بعيداً كل
البعد عن أمور القرامطة وأخبارهم ، وعن كلفهم بسفك الدماء ،
وشغفهم بالحروب والغارات . وقد يجوز أن نضيف إلى هذه
الخصال الثلاث ، خصلة رابعة ، وهي أن هذا الصبي كان طويل
اللسان شيئاً ما ، مستعداً استعداداً حسناً للسخرية ثم الهجاء .
وكل هذه الخصال تدلنا على أن الصبي قد كان ممتازاً حقاً ،
فليس قليلاً على صبي لم يكن يتجاوز العاشرة أن يقول شعراً
يروي ، وأن يمس بهذا الشعر الغزل والحجاسة ، والمدح والهجاء
وفلسفة الغالية من الشيعة .

والآن يحسن أن نقف عند هذه المقطوعات لحظة لنرى
أتصور حقاً كل هذه الخصال التي أحصيناها ؛ فانظر إلى هذين
البيتين اللذين يحدثنا الديوان بأنهما أول ما نظم من الشعر في
صباه . وليس يعنينا أكانا في الحق أول ما نظم أم لم يكونا .
وإنما الذي يعنينا أنهما من شعر الصبي وأنهما يصوران ما أشرت
إليه من التقليد ، و يصوران الصنعة والجهد والتكلف ، و يصوران
صبياً يريد أن يصنع الشعر ويحس في نفسه الرغبة في ذلك
فيعمد إليه ، ولكنه لا يحسن التصرف فيه :

① بِأَبِي مَنْ وَدِدْتُهُ فافترقنا

وقضى الله بعد ذلك اجتماعا

② فافترقنا حولا فلما التقينا

كان تسليمه على وداعا

* فالفكرة الشعرية التي يريد الصبي أن يصورها في أنه أحب شخصا ، فلم يكده يحبه حتى فرق الدهر بينهما ، ثم طال انتظاره للقاء من أحب وأتيح له هذا اللقاء ، ولكنه لم يطل بل فرق الدهر بينهما مرة أخرى . فالصبي سيء الحظ يحب ثم يحال بينه وبين من أحب قبل أن ينعم بعشرته . ثم يتاح له اللقاء فيقدر أنه سيستدرك ما فاتته من نعم ، ولكن قسوة الدهر تخيب أمله هذا أيضا . وأكبر الظن أن الفكرة التي حمت الصبي على أن ينظم هذين البيتين هي هذه التي توجد في الشطر الأخير من البيت الثاني وهي :

كان تسليمه على وداعا

أعجب الفتى بهذا المعنى فأراد أن ينظمه ، وأن يصل إليه ، فتكلف لذلك بيتا ونصف بيت . وأنت ترى مظهر التكلف في قوله :

بَابِي مَنْ وَدِدْتُهُ فَافْتَرَقْنَا

فكلمة وددته هنا نابية قلقة مكرهة على الاستقرار في مكانها الذي هي فيه . أراد الصبي أن يقول أحببته فلم يستقم له الوزن ، فالتمس كلمة تؤدي له هذا المعنى وتلائم هذا الوزن فلم يجد إلا « وددته » هذه . ثم انظر إلى الشطر الثاني من هذا البيت :

وَقَضَى اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ اجْتِمَاعَا

فستراه في نفسه حسناً مستقيماً ولكنه مع الشطر الأول قلق ، يظهر عليه التكلف الشديد لا لشيء فيما أظن ، إلا لأن الشاعر الصبي قد أعجل ولم يملك ما ينبغي له من الأناة ولم يتم معناه الذي ضمنه الشطر الأول . وإنما وثب منه وثوباً إلى هذا المعنى الثاني ، لأنه عجل يريد أن يصل إلى الشطر الذي ألقى إليه ، والذي حمله على نظم هذين البيتين . وكذلك الشطر الأول من البيت الثاني يصور عبث الصبي واجتهاده ، وما كان يلقي من المشقة في هذا الاجتهاد . فانظر إلى قوله « فافترقنا حولاً » بعد قوله « وقضى الله بعد ذلك اجتماعاً » وانظر بعد ذلك إلى البيتين جميعاً ، فستظهر لك الصنعة والمحاولة ظهوراً لا يدع سبيلاً إلى

الشك في أن الصبي قد أنفق جهداً ثقيلاً ووقتاً طويلاً ، حتى
استخرج من نفسه هذين البيتين .

وسواء أكان هذا الشعر جيداً أم رديئاً مستقيماً أم ملتوياً
فانى أجد في نفسى حبا له وميلاً إليه ؛ لأننى أتمثل هذا الجهد
العنيف الذى بذله هذا الصبي الذكى ، حتى استخرج هذين
البيتين . ومن يدرى ؟ لعلنى إنما أحب هذين البيتين وأعجب
بجهد الصبي فى استخراجهما ؛ لأننى شهدت صبيّاً أحبه يبذل مثل
هذا الجهد ، وينفق مثل هذا الوقت ويستخرج مثل هذا الشعر ،
ولم أجد بداً من أن أثنى له على شعره وأهنته بما انتهى إليه
من الفوز . ولم أكن فى هذه التهنئة ولا فى ذلك الثناء متكافئاً
ولا غالياً ، وإنما كنت صادقاً مرسلّاً نفسى على سجيتهما ،
أصدر عن العاطفة أكثر مما أصدر عن الفن .

وانظر بعد هذين البيتين إلى هذه الأبيات الثلاثة الأخرى
التي قالها صبيّنا فى حديثه ، كما ينبئنا الديوان ، وكما تنبئنا هى أيضاً .
فسترى من جهة أنها كالبيتين الأولين . أُلقيَ منها على الصبي بيت
هو البيت الأخير ، وهو الذى حمّله على أن يتكلف البيتين
الآخرين ليصل إليه ، وكان هذا البيت الأخير كحظ ذلك الشطر

الأخير من البيتين السابقين ، حفظه الناس وأحبوه ، وتمثلوا به
لأنه وحى الطبع البريء وأهملوا ما قبله لأنه متكلف مصنوع :

① أَبْغَى الْهَوَىٰ أَسْفًا يَوْمَ النَّوَىٰ بَدَنِي

وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ

① رُوحٌ تَرَدَّدَ فِي مِثْلِ الْخِلَالِ إِذَا

أُطَارَتْ الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَمْ يَبِينِ

① كَفَىٰ بِجِسْمِي نُحُولًا أَنِّي رَجُلٌ

لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

فواضح جداً أن بيت المقطوعة هو البيت الأخير وأن
الفكرة التي يريد الصبي تصويرها هي الإغراق في وصف
النحول . فانظر اليه كيف تكلف الوصول إلى هذا البيت :

أَبْغَى الْهَوَىٰ أَسْفًا يَوْمَ النَّوَىٰ بَدَنِي

فأسفا هنا كلمة لم تأت إلا لتقيم الوزن ، ونبوها عن
موضعها أظهر من أن يدل عليه . ولكننا مع ذلك نلاحظ
شيئاً من الموسيقى قد وفق الشاعر اليه بين الهوى والنوى ،
وهو يدل على شيء من الرق في صناعة النظم . وعلى أن

الصبي قد استطاع أن يتصرف شيئاً ما في الألفاظ .
ونلاحظ كذلك أنه قد صرع في هذا البيت بين البدن
والوسن ، صنيع الشاعر الذي يريد أن ينشئ قصيدة
طويلة . ولعله لم يستطع أن يتجاوز البيت الثالث فوقف عنده .
ولعله تجاوزه وأتم قصيدته ، ولكنه لم يرض عما بعد البيت الثالث
فأسقطه حين أراد أن يجمع الديوان . أما البيت الثاني فعبث
الصبي ظاهر فيه وهو لا يخلو من ظرف وخفة روح . هو إعادة
لقول الشاعر القديم :

وَلَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتَ مِنِّي مُعَلَّقٌ

بَعُودٍ ثُمَّامٍ مَا تَأَوَّدَ عُودُهَا

ولكن الصبي اختصر الطريق وأراح نفسه وجعل جسمه
عود الثمام لا شيئاً معلقاً بهذا العود . ثم انظر إلى قوله :

أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثُّوبَ لَمْ يَبِينِ

فسترى فيه الطفولة الحلوة ، والحدأة العذبة . وليس من
شك في أن طبيعة الشاعر الحدث قد واثته أكثر مما واثته في
البيتين السابقين .

واقراً هذين البيتين الآخرين وكأنه ارتجأهما ارتجاءً حين

قيل له وهو في المكتب ما أحسن هذه الوفرة فقال :

لا تَحْسُنُ الْوَفْرَةَ حَتَّى تُرَى

مَنْشُورَةَ الصَّفْرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالِ

عَلَى فَتَى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةٍ

يَعْلَمُهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السَّبَالِ

ولعلك تلاحظ معي أن في هذين البيتين جزالة مطبوعة

لا نلاحظها في الأبيات السابقة . وأنهما بريئان البراءة كلهما

من الصنعة والتعمل ، ولكن لم أروهما لهذا وحده ، وإنما رويتهما

لما يصوران من نزاع هذا الصبي الحدث إلى الحرب والقتال

ورؤية الدم المسفوك . وما ينان به من حفيظة تضرب في نفس

الصبي ، وضعيفة تضطرم في قلبه الغض ، وتطابق لسانه بهذا الكلام

الملتهب . ولك في فهم هذين البيتين وجهان فيما يظهر . فويل

كانت الوفرة التي استحسننت له وفرته هو ؟ وإذن فهو غير

راض عن نفسه ولا مطمئن إلى حاله ، وإنما هو يتحرق شوقا

إلى الشباب الذي يمنحه القوة والحرية ، وإلى الظروف التي تتيح

له خوض غمار الحرب ، وعلى صعده من دماء الأعداء ، أو هل

كانت الوفرة وفرة ترُب من أترابه في المكتب ؟ فالصبي إذن

يهجو ولا يرضى عن هؤلاء الصبية المنعمين الذين يعنون بوفرتهم
وتنسيق شعورهم أكثر مما يعنون بحياة الخشونة .

☆ ومهما يكن من شيء ففي هذين البيتين ريح البيئة الدامية
التي كان يعيش فيها الصبية من أتراب المتنبي ، بين تلك الغارات
التي كانت تنتهي بالقرامطة إلى الكوفة وسوادها من حين
إلى حين .

وتستطيع الآن أن تقرأ في هذه الأبيات التي قالها الصبي
يعبث فيها برجلين قتلا جرذا وأظهراه للناس :

④ لَقَدْ أَصْبَحَ الْجُرَذُ الْمُسْتَعِيرُ

أَسِيرَ الْمَنَايَا صَرِيعَ الْعَطَبِ

⑤ رَمَاهُ الْكِفَانِيُّ وَالْعَامِرِيُّ

وَتَلَّاهُ لِلْوَجْهِ فِعْلَ الْعَرَبِ

⑥ كَلَّا الرَّجُلَيْنِ أَتَى قَتْلَهُ

فَأَيُّكُمَا غَلَّ حُرَّ السَّلبِ ؟

⑦ وَأَيُّكُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ ؟

فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الذَّنَبِ

فظاهر أن هذا الشعر ليس شعر صبي يُقرَّزُ وإِنما هو شعر شاعر قد راض نفسه على نظم الكلام ، وتعلم كيف يصرف هذا الكلام كما يحب من وجوه القول ، بل تجاوز رياضة النفس على اجادة النظم إلى التماس الهجاء الممض والسخرية اللاذعة ، وإلى ترتيب المعنى وتأليفه وحمايته من الاختلاط والاضطراب .

فالشاعر الناشئ يقص علينا في البيت الأول والثاني قصة مؤثرة فيها ما يحزن ، وفيها ما يثير الإعجاب . في البيت الأول ما يحزن ويدعو إلى الرثاء لهذا الجرذ المسكين الذي أسرته المنايا وصرعه العطب ، وفي البيت الثاني ما يعجب من أمر هذا الكناني وهذا العامري اللذين تعاونوا على رمي الجرذ وتلاه للوجه كما يفعل العرب البواسل . وفي هذين البيتين تنتهي القصة ظريفة سريعة مضحكة ، بما فيها من رثاء مصنوع ، وإعجاب متكلف . ولكن شاعرنا الصبي لا يكتفى بالقصة وإِنما يريد أن يستغلها ويستثمرها ويستخرج منها الذخائر والكنوز . فهو يحقق أن كلا الرجلين قد قتل الجرذ . فهل كانت للجرذ درع ؟ وهل كان له سيف ورمح ! وهل كانت له بيضة ودرقة ! وهل

كان يحمل ذهباً وفضة ومتاعاً ؟ كل هذه الصور يثيرها الشطر
الأخير من البيت الثالث . ثم انظر إلى هذا البيت الأخير :

وَأَيْكُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ

فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الذَّنْبِ

فلن ترى سخرية ألذع من هذه السخرية ولا هجاء أَمْضَ
من هذا الهجاء . ولن ترى أشد من هذا الازدراء للحضريين
من أهل الكوفة المعاصرين له ، الذين استسلموا واستكانوا وقنعوا
من الشجاعة والنجدة ، ومن المخاطرة وحسن البلاء ، بأن يتعاون
اثنان منهم على قتل جرد ، ثم يظهران ذلك للناس إعجاباً به
واختيالاً ، على حين تضطرب البادية بما يملؤها من الأهوال التي
يثيرها القرامطة ، وعلى حين تندفع البادية من وقت إلى وقت
حتى تبلغ الحضر وتبلغ الكوفة نفسها ، فتمزق أهلها كل ممزق
وتعلمهم كيف يكون البأس والنجدة ، وكيف تكون الشجاعة
والبسالة فلا يتعلمون .

حقاً لقد مرن الصبي على قول الشعر وصح فيه قول جرير
في عمر بن أبي ربيعة إن صدقتني الذاكرة : ما زال هذا القرشي
يهذي حتى قال الشعر^(١) .

(١) أغاني ج ١ ص ٣٨ (طبع بولاق) .

وللصبي مقطوعة أخرى في الهجاء ليس لها حظ هذه
المقطوعة من الجودة ولا من البراعة في السخرية ولكنها تصور
اتجاه الصبي إلى الصناعة اللفظية بعض الشيء . وهي هذه
الآبيات التي فالحا يهجوها القاضي الذهبي :

لَمَّا نُسِبْتَ فَكُنْتَ أَبْنَاءَ لَغَيْرِ أَبِ

ثُمَّ اخْتَبِرْتَ فَلَمْ تَرْجِعْ إِلَى أَدَبِ

سُمِّيتَ بِالذَّهَبِيِّ الْيَوْمَ تَسْمِيَّةٌ

مُشْتَقَّةٌ مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ لَا الذَّهَبِ

مُلَقَّبُ بِكَ مَا لُقِّبْتَ وَيُكْ بِه

يَا أَيُّهَا اللَّقْبُ الْمُلْقَى عَلَى اللَّقَبِ

وأظن أن قول أبي تمام في بائيته المشهورة :

وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةٌ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ

هو المثال الذي صاغ الصبي عليه أبياته في هجاء القاضي .

وكل ما في هذه الآبيات إنما هو ابتهاج الصبي بأنه قد استطاع
أن يستنبط هذا المعنى فيجعل نسبة القاضي إلى شيء مشتق من
ذهاب العقل لا إلى الذهب . والذي يعنيننا من هذه الآبيات

إنما هو دلالتها على أن صبيننا قد أخذ منذ طوره الأول يتجه
بعض الاتجاه إلى مذهب أبي تمام .

قال الرواة : وقد خرج المتنبي من الكوفة مع أبيه إلى
البادية فأقام فيها حيناً ، ثم عاد منها . وقد نما جسمه وعقله ،
وفصح لسانه وأصبح فتى يملأ العين والأذن .

ومن العسير أن نقطع بالسبب أو الأسباب التي حمت الصبي
على أن يرتحل إلى البادية . فهل ارتحل لمجرد التبدى والاستفادة
لجسمه ولسانه وفنه الشعري من الإقامة بين هؤلاء العرب
الباديين الذين كان العلماء يختلفون إليهم و يقيمون بين
أظهرهم ، يأخذون عنهم اللغة ويروون عنهم الشعر والأيام
والأساطير ؟ أم هل ارتحل الفتى إلى البادية لشيء آخر غير هذا
يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية التي كانت محيطة به ؟ وبعبارة
أوضح هل ارتحل الفتى إلى البادية كما كان يرتحل إليها المتعلمون
التماساً للصحة ورياضة اللسان ؟ أم ارتحل إليها التماساً لهذه
البيئة القرمطية التي كانت متصلة أشد الاتصال بحياة الشعب
الكوفي في ذلك الوقت ، تبعث الرعب في قلوب فريق منه
وتبعث الحب في قلوب فريق آخر ، كما هي الحال بالقياس

إلى الشيوعية الروسية الآن التي تتصل أشد الاتصال بطبقات
الشعوب المتحضرة في أوروبا وفي غير أوروبا . فيتهاك عليها
قوم ، ويتألب عليها قوم آخرون .

ليس من اليسير أن نقطع بشيء من هذا ، ولكن الذي
نستطيع أن نقطع به ونحن مطمئنون ، هو أن رحلة المتنبي إلى
البادية قد نفعته من الناحيتين جميعاً ؛ فقد ربا جسمه ، ونما عقله
وفصح لسانه ، وتعلم أصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية
والعملية معا . وشعر المتنبي في صباه بعد عودته من البادية إلى
السكوفة ، يبين لنا هذا أوضح تبين وأجلاء .

فلننظر قبل كل شيء إلى هذه الأبيات التي استبقاها المتنبي
في ديوانه ، وهي عندى بقية من قصيدة لعلها كانت مطولة مفصلة ،
فلما أراد المتنبي جمع ديوانه حذف منها أكثرها ، مداراة للظروف ،
وإشفاقا من السلطان ، وهذه الأبيات الثلاثة التي استبقاها
المتنبي كافية كل الكفاية لإثبات أن هذا الغلام قد عاد من
البادية القرمطية وهو قرمطي الرأي متحفز ليكون قرمطي
السيرة أيضاً .

وفي هذه الأبيات الثلاثة جزالة بدوية لا تخفى :

إلى أى حين أنت فى زىٍّ مُحَرَّمٍ
وحتى متى فى شِقْوَةٍ وإلى كم ؟

وإلا تَمُتَ تحتَ السُّيُوفِ مُكْرَمًا
تَمُتَ وتُقاسِ الذِّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ
فَتَبْ وَاثِقًا بِاللَّهِ وَثَبَةً مَّاجِدٍ

يرى الموتَ فى الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فى القَمَرِ

فانظر إلى هذا التحرق الذى يظهره الغلام إلى تغيير حاله
والخروج عما هو فيه من الدعة والأمن والطمأنينة ، إلى حال
أخرى فيها خوف وقلق واضطراب ومخاطرة .

هو يكره لنفسه زى الحريم أى زى الرجل الوادع الذى
يحرم ما حرم الله ، ويمتنع عن قتل الصيد ، وعما يمتنع عنه
المحرمون بالحج . هو يريد أن يكون مُحِلًّا ، وأن يتناول ما لا يتناولوه
الوادعون لأن حياة الدعة والإحرام لم تجن عليه إلا شقاء .
فهو يريد أن يلمس السعادة والعزة فى حياة البؤس والفتك ،
وهو مطمئن إلى أنه إن لم يتعرض للبأس والفتك ، ولم
يصطل نار الحرب اتقاء للموت كريماً تحت السيوف ، أدركه

الموت ذليلاً مهيناً في ظل الدعة والإحرام .

وانظر إلى هذا البيت الأخير .

فتب وثقاً بالله وثبة ماجد

يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

فهو لا يريد بهذا الوثوب إلا الخروج على السلطان ، وشق

عصا الطاعة والمخالفة عما يأمر به النظام المألوف .

ليس عندي من شك في أن هذه الأبيات تصور ما عاد به

الغلام من البادية بعد أن عاش في بيئتها الخشنة المقتنعة بالمذهب

الجديد ، المنتظرة من وراء هذا المذهب وانتشاره الخير كل الخير .

وتصور كذلك ما عاد به الغلام من البادية من هذه

الرصانة اللفظية التي ترفع اللفظ عن الابتذال ، وتكسبه عذوبة

نحس فيها ريح الصحراء .

وإذا كانت هذه الأبيات تصور تأثر المتنبي بالبيئة العملية

القرمطية ، فإن هناك قصيدة أخرى طويلة بعض الشيء تصور

تأثر المتنبي بالمذهب النظري للقرامطة وغلاة الشيعة . وهي

هذه القصيدة التي مدح بها المتنبي — فيما يقول الديوان —

رجلاً يعرف بأبي الفضل ، وأراد أن يستكشف مذهبه ،

فيا يقول الديوان أيضاً ، وفيما يقول الرواة كذلك . وعندى
أن المتنبي لم يرد أن يمتحن أبا الفضل ، ولا أن يستكشف
مذهبه ، وإنما أراد أن يمدحه لا أكثر ولا أقل . وأن
يمدحه بما كان هذا الرجل يحب أن يمدح به . وسواء
على أكان المتنبي مؤمناً بهذه الآراء التي أثبتها في قصيدته
أم لم يكن ، فحسبي أنه أثبت هذه الآراء ، وجهر بها ،
وتقرّب بها إلى رجل ، واتمس بها العطاء .

ولست أروى صدر هذه القصيدة ، فقد أحتاج أن
أعود إليه حين أستأنف الكلام عن فنّ المتنبي . وإنما

أكتفي برواية هذه الأبيات :

يا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُصَفَّى جَوْهَرًا

من ذاتِ ذِي الْمَلَكُوتِ أَسْمَى مَنْ سَمَا

نُورٌ تَظَاهَرَ فِيكَ لَاهُوتِيَّةٌ

فَتَكَادُ تَعْلَمُ عِلْمَ مَا لَنْ يُعْلَمَا

وَيَهُمُّ فِيكَ إِذَا نَطَقْتَ فَصَاحَةً

من كلِّ عُضْوٍ مِنْكَ أَنْ يَتَكَلَّمَا

أَنَا مُبْصِرٌ وَأُظُنُّ أَنِّي نَائِمٌ
مَنْ كَانَ يَحْلُمُ بِالْإِلَهِ فَأَحْلُمَا
كَبْرَ الْعِيَانِ عَلَى حَتَّى إِنَّهُ
صَارَ الْيَقِينُ مِنَ الْعِيَانِ تَوَهُمَا

فنحن هنا بإزاء رأى صريح فى الحلول ، فالمتنبى يرى
أن صاحبه ملك قد صفى جوهره من ذات ذى الملكوت ،
أى أن روحه قبس من ذات الله . وهو يرى أن هذا
القبس نور لاهوتى قد استقر فى صاحبه ، فكاد يظهره على
الغيب ، وهو يكبر ما يرى . فهو يقظان يرى الله ، وهو
يظن أنه نائم ، ثم ينكر أن يكون نائماً ، لأن الله لا يرى
فى الأحلام . وهو يكبر هذا العيان ، ويرى أنه أعظم وأجل
من أن يثبت له أمثاله . فيرتاب فيما يرى ويكاد يتهم نفسه
بالخيال والوهم . وهذا الكلام وحده صريح فى انحراف
المتنبى عن الجادة الدينية ، واندفاعه إلى هذا اللون من ألوان
الفلسفة التى هى إلى الاتحاد أقرب منها إلى شىء آخر .

ومن هنا نفهم أنه حين أراد أن يثبت هذه القصيدة
فى الديوان زعم للرواة أو زعم الرواة له أنه إنما امتحن بهذه

الأبيات أبا الفضل ، وأراد أن يعرف مذهبه . كلام يقصد به
إلى الاعتذار وإلى التقية أكثر من أى شىء آخر .
وعندى أن المتنبي حين ارتحل إلى البادية إنما اتصل فيها
لا بالبيئة القرمطية العادية ، بل بداعٍ من دعاة القرامطة الذين
كانوا يجولون في البادية . ومن يدري ؟ لعل هذا الداعى كان
أبا الفضل نفسه هذا الذى يمدحه المتنبي . ومن يدري ؟ لعل
المتنبي لم يعد إلى الكوفة من البادية مصطحباً أباه وجدده ، وإنما
عاد مصطحباً رجلاً آخر أو قوماً آخرين ، يريدون أن يستقروا
في الكوفة وأن يدعوا فيها لمذهب القرامطة .

ومهما يكن من شىء وسواء واتتنا النصوص التى بقيت لنا
أم لم تواتنا ، فانى أجد فى نفسى شعوراً قوياً جداً بأن المتنبي
قد نشأ نشأة شيعية غالية ، لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية
خالصة . وعلى كل حال فقد أثار القرامطة على الكوفة سنة
ست عشرة وثلثمائة ، يقودهم إمامهم أبو طاهر فدمروا وحرقوا
ونهبوا وسلبوا وفعلوا الأفاعيل^(١) . وكانوا يقدرّون أن الطريق
ستخلو لهم إلى بغداد . ولكن الأمر لم يتم لهم كما أرادوا . فعذبوا

(١) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٥٦

الكوفة وسوادها ، وأرهبوها عاماً كاملاً ، ثم رحلوا بعد ذلك إلى البحرين .

وكان المتنبى حين أغار القرامطة على الكوفة في الرابعة عشرة من عمره ، وكان المتنبى حين جلا القرامطة عن العراق في الخامسة عشرة من عمره .

ونلاحظ أنه في ذلك الوقت بعد جلاء القرامطة عن العراق لم يستقر في الكوفة . وإنما يحدثنا الرواة أنه ارتحل عنها وارتحل معه أبوه إلى بغداد . فلماذا ارتحل إلى بغداد بعد جلاء القرامطة عن الكوفة ؟ لأنه كان يريد أن يذهب إلى بغداد ليتم الدرس ، وليشقى طريقه إلى المجد الأدبي ، فأخترت غارة القرامطة رحلته شيئاً ما ؟ أم لأنه كان قد تورط وتورط معه أبوه ، وتورط معهما كثير من الناس في فتنة القرامطة هذه ؟ فلما انهزم القرامطة وجلوا عن العراق لم يستطع المتنبى وأمثاله أن يقيموا في الكوفة إشفاقاً من السلطان ومن تتبعه للذين أعانوا القرامطة من قريب أو من بعيد .

كلا الأمرين ممكن ، ولكني أرجح الأمر الثاني لأنه يلائم ما رأينا من نشأة المتنبى كلها . ولأن إقامة المتنبى في بغداد

لم تتصل ، ولو قد كان المتنبي قصد إلى بغداد يلتمس العلم والأدب
والمجد الشعري ، لأقام فيها فأطال المقام ، ولانَّصل بالمعروفين
من علمائها وأدبائها وأصحاب المكانة السياسية والاجتماعية
فيها . ولكنه فيما نعلم لم يصنع من ذلك شيئاً ، إنما أقام ببغداد
فترة قصيرة ، ثم ارتحل عنها إلى الجزيرة وشمال الشام ، ومعه
أبوه فيما يقول الرواة .

هل ذهب المتنبي إلى بغداد هارباً من السلطان كما قلنا ؟
أم هل ذهب إليها هارباً من السلطان ومبتغيًا شيئاً آخر ؟
فلو قد أراد الهرب وحده لكان في البادية وصحراء السماوة
مَفْزَع ومهرب من السلطان . ولكنه يترك الكوفة إلى
عاصمة الخلافة ، حيث القوة المركزية التي كانت تصارع
القرامطة أشد صراع وأعنفه .

أحب أن نذكر هنا أن أمور الشيعة والقرامطة لم تكن
تجرى في وضوح ويسر ، وإنما كان قوامها التكتُّم والتحفُّظ ،
والجماعات السرية المبالغة في حفظ السرِّ وإخفائه . وما دُمْتُ
قد افترضتُ منذ حين أن المتنبي إنما ذهب إلى البادية ليمتعلِّم
على بعض دُعاة القرامطة ، فلأَمْض في الفرض على طبيعته ،

ولأرجح كما قدّمت أن المتنبي عاد من البادية مع بعض دعاة القرامطة ، واشتغل في الكوفة بنشر الدعوة القرمطية ، وأن المتنبي سافر من الكوفة بعد جلاء القرامطة ، فقصده إلى بغداد لأمر يتصل بالدعوة . ولست أستبعد ، بل أنا أرجح جدا أن يكون في بغداد مركز قوى من مراكز الدعوة القرمطية . ذهب إليه المتنبي فأدّى إليه شيئا ، وتلقى منه شيئا ، وترك بغداد قاصداً إلى الجزيرة ثم إلى الشام .

لست أدري أتسعدنا النصوص التي بقيت لنا من شعر المتنبي أم لا تسعدنا ؟ ولكننى قوى الشعور بأن المتنبي لم يرحل إلى الشام طالباً للرزق فحسب ، وإنما ذهب إلى الشام داعية من دعاة القرامطة ، في هذا القسم الشمالى من سوريا ، الذى لم يكن قد أدركه الاضطراب القرمطى ، كما أدرك غيره من أقسام الشام .

مهما يكن من شيء فلم يكده يبلغ المتنبي السابعة عشرة من عمره حتى كان قد هجر الكوفة ، وترك بغداد ، وانتهى إلى شمال الشام ، واستأنف حياة جديدة ليست من الصّبا . فى شيء ، وإنما هى حياة الشباب . هالبا للره

فلنستخلص من كل ما قدمنا أن المتنبي قد قطع المرحلة الأولى من طريقه ، مرحلة الصِّبا . ولم يكد يبلغ آخرها ، حتى كان قد تمَّ له حظه من الشعر ، وتمَّ له حظه من القرمطة ، وتمَّ له حظه من القوة البدنية أيضاً . ويكفي أن ننظر في هذه القصيدة التي قالها في بغداد ، يمدح بها رجلاً رسمياً — محمد بن عبد الله العلوي — لنرى منها أنه قد استكمل حظه من القدرة على نظم الشعر الجيد ، وإن لم يبلغ بعد ما قدَّر له من النبوغ :

أَهْلًا بِدَارِ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا

أُبْعِدُ مَا بَانَ عَنْكَ خُرْدُهَا

خَلَّتْ بِهَا تَنْطَوِي عَلَى كَبِدِ

نَضِيحَةِ فَوْقَ خَلْبِهَا يَدُهَا

يَا حَادِي عَيْسِيهَا وَأَحْسِنِي

أَوْجَدُ مَيْتًا قَبِيلَ أَفْقِدُهَا

تَوَفَّا قَلِيلًا بِهَا عَلَى فَلَا

أَقْلَ مِنْ نَظَرَةِ أَرْوَدُهَا

ففي فؤادِ المُحِبِّ نارُ جَوَى
أَحَرُّ نارِ الجحيمِ أَبْرَدُهَا
شَابَ مِنَ الهَجَرِ فَرَقُ لِمَتِهِ
فصارَ مِثْلَ الدِّمَقْسِ أَسْوَدُهَا
بَانُوا بِخُرْعَوْبَةٍ لَهَا كَفَلُ
يَكَادُ عِنْدَ الْقِيَامِ يُقَعِدُهَا
رَبْحَلَةٌ أَسْمَرٌ مُقْبِلُهَا
سِبْجَلَةٌ أَبْيَضٌ مُجَرَّدُهَا
يَا عَاذِلَ الْعَاشِقِينَ دَعِ فِتْنَةً
أَضَاهَا اللَّهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا
لَيْسَ يُحْيِيكَ الْمَلَامُ فِي هَمَمٍ
أَقْرَبُهَا مِنْكَ عَنْكَ أَبْعَدُهَا
بُئْسَ اللَّيَالِي سَهَدَتْ مِنْ طَرَبٍ
شَوْقًا إِلَى مَنْ يَبِيتُ يَرَقُدُهَا
أَحْيَيْتُهَا وَالدَّمُوعُ تُنْجِدُنِي
شُؤُونُهَا وَالظَّلَامُ يُنْجِدُهَا

لا نَاقَتِي تَقْبَلُ الرَّدِيفَ وَلَا
بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أَجْهَدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا
زِمَامُهَا ، وَالشُّسُوعُ مَقْوَدُهَا
أَشَدُّ عَصْفِ الرِّيحِ يَسْبِقُهُ
تَحْتِي مِنْ خَطْوِهَا تَأْوُدُهَا
فِي مِثْلِ ظَهْرِ الْمَجَنِّ مُتَّصِلِ
بِمِثْلِ بَطْنِ الْمَجَنِّ قَرَدُودُهَا
مُرْتَمِيَاتُ بَنَّا إِلَى ابْنِ عُبَيْ
سِدِ اللَّهِ غِيْطَانُهَا وَفَدَفْدُهَا
إِلَى فَتَى يُصْدِرُ الرَّمَّاحَ وَقَدْ
أَنْهَلَهَا فِي الْقُلُوبِ مُورِدُهَا
لَهُ أَيَادٍ إِلَى سَابِقَةٍ
أَعْدُ مِنْهَا وَلَا أَعَدُّهَا
يُعْطَى فَلَا مَطْلَهُ يُكَدِّرُهَا
بِهَا وَلَا مِنْهُ يُنَكِّدُهَا

خَيْرُ قُرَيْشٍ أَبَا وَأَمَّجَدُهَا
 أَكْثَرُهَا نَائِلًا وَأَجْوَدُهَا
 أَطْعَمُهَا بِالْقَنَاقَةِ أَضْرَبُهَا
 بِالسَّيْفِ جَجَجَاحُهَا مُسَوِّدُهَا
 أَفْرَسُهَا فَارِسًا وَأَطْوَلُهَا
 بَاعًا وَمَغْوَارُهَا وَسَيِّدُهَا
 تَاجُ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ وَبِهِ
 سَمًا لَهَا فَرَعُهَا وَمَحْتِدُهَا
 شَمْسُ ضُحَاهَا هِلَالُ لَيْلِهَا
 دُرُّ تَقَاصِيرِهَا زَبَرُجَدُهَا
 يَا لَيْتَ بِي ضَرْبَةً أُتِيحَ لَهَا
 كَمَا أُتِيحَتْ لَهُ مُحَمَّةُهَا
 أَثَرُ فِيهَا وَفِي الْحَدِيدِ وَمَا
 أَثَرُ فِي وَجْهِهِ مُهَنْدُهَا
 فَاعْتَبَطَتْ إِذْ رَأَتْ تَزَيْنُهَا
 بِمِثْلِهِ وَالْجِرَاحُ تَحْسُدُهَا

وَأَيَقِنَ النَّاسُ أَنْ زَارِعَهَا
بِالْمَكْرِ فِي قَلْبِهِ سَيَحْصُدهَا
أَصْبَحَ حَسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ
يُحَذِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصْـمِدُهَا
تَبْكِي عَلَى الْأَنْصُلِ الْغُمُودُ إِذَا
أَنْذَرَهَا أَنَّهُ يَجْرُدُهَا
لَعَلَّهَا أَنَّهَا تَصِيرُ دَمًا
وَأَنَّهُ فِي الرِّقَابِ يَغْمِدُهَا
أَطْلَقَهَا فَالْعَدُوُّ مِنْ جَزَعٍ
يَذُمُّهَا وَالصَّدِيقُ يَحْمَدُهَا
تَنْقَدِحُ النَّارُ مِنْ مَضَارِبِهَا
وَصَبُّ مَاءِ الرِّقَابِ يُخَمِدُهَا
إِذَا أَضَلَّ الْهُمَامُ مُهْجَتَهُ
يَوْمًا فَأُطْرَفُنَّ تَنْشُدُهَا
قَدْ أَجْمَعَتْ هَذِهِ الْخَلِيقَةُ لِي
أَنْتَ يَا ابْنَ النَّبِيِّ أَوْحَدُهَا

وَأَنْتَ بِالْأَمْسِ كُنْتَ مُحْتَمَلًا
شَيْخَ مَعَدٍّ وَأَنْتَ أَمْرُهَا
وَكَمْ وَكَمْ نِعْمَةٌ مُجَلَّةٌ
رَبَّيْتَهَا كَانَتْ مِنْكَ مَوْلُودُهَا
وَكَمْ وَكَمْ حَاجَةٌ سَمَحَتْ بِهَا
أَقْرَبُ مِنِّي إِلَى مَوْعِدُهَا
وَمَكْرُمَاتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَمِ الْ
بِرٍّ إِلَى مَنَزِلِي تُرَدِّدُهَا
أَقَرَّ جِلْدِي بِهَا عَلَى فَلَا
أَقْدِرُ حَتَّى الْمَاتِ أَجَحِّدُهَا
فَعُدَّ بِهَا لَا عَدِمْتُهَا أَبَدًا
خَيْرُ صَلَاتِ الْكَرِيمِ أَعُوذُهَا
فَالْقَصِيدَةُ كَمَا تَرَى طَوِيلَةٌ قَدْ بَلَغَتْ الْأَرْبَعِينَ بَيْتًا ، وَهِيَ
أَطْوَلُ مَا حَفِظَ دِيْوَانُ الْمُتَنَبِّئِ لَنَا مِنْ شِعْرِهِ فِي هَذَا الطُّورِ . وَهِيَ
كَامِلَةٌ الْخَلْقُ قَدْ اسْتَوْفَتْ حَظَهَا مِنَ النِّظَامِ الْفَنِيِّ الْمُرُوثِ .
وَهِيَ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةً أَقْسَامًا :

القسم الأول غزل من هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن
يفتتحوا به القصيدة . وقد طال نفس الشاعر فيه شيئاً فبلغ
أثنى عشر بيتاً .

والقسم الثاني وصف من هذا الوصف الذي تعود الشعراء
أن ينتقلوا إليه إذا قضوا حظهم من الغزل ، وأن يتخذوه
طريقاً إلى الغرض الأساسى الذى يقصدون اليه . وقد قصر
نفس الشاعر فيه فلم يتجاوز به خمسة وعشرين بيتاً . ومعنى
هذا كله أن الفتى قد أخذ يعقد شعره ويسلك إليه طريق
غيره من الشعراء ، ويلم فى القصيدة الواحدة بغير فن من فنون
الشعر لا يجد فى ذلك مشقة ولا حرجاً ، ولا يهتم فى ذلك
جهداً ولا عناء . وأنت إذا أخذت القصيدة جملة رأيت طبيعة
الشاعر سمحة سهلة مواتية لا تبخل عليه ولا تُعْنِيهِ ، وإنما تمنحه
كل ما يريد منها . فلسنا نحس تكلف المحصر ولا جهد المقل .
ولعلنا نحس أن هذه القصيدة كانت تتدفق من نفس الشاعر
كما يتدفق السيل ، وتنحدر منها الانحداراً يوشك أن يكون عنيفاً .
ولعل مصدر هذا الإحساس هذا البحر الذى اختاره الشاعر والذى
تظهر فيه السرعة والانحدار ، وتدافع فيه أبيات القصيدة وألفاظ

البيت تدافع الموج . ولعل مصدر هذا الإحساس أيضاً هذه
القافية التي اختارها الشاعر ، والتي جمعت بين خصلتين ظاهرتين :
إحداها المتانة والقوة ، والأخرى الرحب والسعة . فهذه الدال
التي تسبقها حركة يسبقها سكون تصور المتانة والقوة . وهذه الهاء
المطلقة تصور الرحب والسعة .

وأنت إذا أخذتها تفصيلاً استطعت أن تتبين فيها خصلتين
فنيتين هما الآن — وسيكونان دائماً — القوام الفني لشعر المتنبي ،
يسرف فيهما أحياناً فيفسد شعره ، ويقصد فيهما أحياناً
فيجمل شعره ، ولكنه لا يكاد يخلص منهما في وقت من
الأوقات :

فأما الخصلة الأولى فهي المطابقة التي يحجبها المتنبي أشد
الحب ، ويستخرج منها فنوناً من الجمال نراها فاترة في الطور
الأول من شعره ، ولكنها تقوى وتشتد كلما استكمل الشاعر
حظه من القوة ، فنونا من الجمال تؤثر في العقل والذوق والحس
جميعاً ، فتنشئ شيئاً من الموسيقى اليسيرة الحلوة في أكثر
الأحيان . ذلك أن المتنبي يحسن المقابلة بين الأضداد في أنفسها ،
كما يحسن المقابلة بين الألفاظ التي يختارها ، ليدل بها على هذه

الأضداد ، فإذا تمت له المقابلة بين المعاني المتضادة وتم له الاختيار الحسن للألفاظ التي تدل عليها ، عرف كيف يضعها في مواضعها من النظم ، وكيف يلائم بينها وبين ما يسبقها وما يلحقها من الألفاظ ، وتأتى له بذلك تحقيق شئ من الانسجام البديع يليهيك ويشغلك عما تكلف الشاعر من الجهد في تحقيق هذا الفن . ولست في حاجة إلى أن أعيد عليك ما في هذه القصيدة من الأبيات التي عمد فيها المتنبي إلى المطابقة فوفوق أحيانا ، وأخطأه التوفيق أحيانا أخرى . فما أظنك إلا قد لاحظت هذه الأبيات أثناء قراءة القصيدة ، وليس عليك بأس من أن تعود إلى قراءتها مرة أخرى لتحقيق صحة هذه الملاحظة .

والخصلة الثانية المبالغة التي يعمد اليها المتنبي لأسباب سنوضحها في هذا الموضع من الحديث مبطل ولكننا نكتفي الآن بأن نلاحظ منها طبيعة المتنبي نفسه ، فهو قوى الحس ، حاد المزاج ، عنيف النفس ، مندفع بحكم هذا كله إلى الغلو والاسراف . وكذلك نلاحظ تقليد الشاعر لشعراء القرن الثالث الذين كلفوا بالبديع وأمعنوا فيه وعنوا منه بالمبالغة عناية خاصة .

ثم نلاحظ آخر الأمر انتشار مذهب المبالغة بين النقاد منذ

صوّره قدامة في كتابه نقد الشعر^(١) ، وأذاعه على أنه مذهب أرسططاليس وآثره في الشعر كما كان يؤثره أرسططاليس على القصد والاعتدال^(٢) ، فجمال الشعر عند المتنبي في هذا الطور ، وفي الأطوار التي تليه ، راجع دائماً إلى هاتين الخصلتين الفنيّتين : المطابقة من ناحية ، والمبالغة من ناحية أخرى ؛ يجمع بينهما الشاعر حيناً ويفرق بينهما حيناً آخر ، فيعجبك مرة ويسوءك مرة أخرى . فأما إذا أخذت أجزاء القصيدة الثلاثة ، وامتنعتها جزءاً جزءاً ، فلن تجد فيها المتنبي شخصية قوية ولا معنى مبتكراً ، وإنما هي المعاني المألوفة في الغزل والوصف والمديح ، حتى هذه المحاولة التي أراد الشاعر بها أن يظهر شيئاً من الجهد حين وصف نعله ، حيث يصف الشعراء إبلهم ، وأسبغ على هذه النعل من الصفات ما يسبغه الشعراء على الابل . هذه المحاولة نفسها ليست مبتكرة وإنما هي إطناب وتفصيل ، حيث آثر أبو نواس الاجمال والايجاز في قوله :

إِلَيْكَ أبا العباسِ مِنْ دُونِ مَنْ مَشَى

عَلَيْهَا أُمْتَطَيْنَا الْحَضْرَمِيَّ الْمَأْسِنَا

(١) كتاب نقد الشعر لقدامة ص ١٩ (طبع الجوائب)

(٢) Poétique II et XXIV

فلم يزد المتنبي على أن قال إنه سعى إلى ممدوحه ماشياً
يركب نعليه كما قال أبو نواس ، ولكنه فصل ذلك ، فشبّه أجزاء
النعل بالأدوات التي يصطنعها راكب الناقة .

وإذا كانت هذه المحاولة تقليداً صرفاً من الجهة الفنية
الخالصة ، فإن لها دلالتها القيمة من الجهة التاريخية ؛ لأنها
على الأقل تنبئنا بأن الشاعر الفتي لم يسافر من الكوفة
إلى بغداد راكباً ، وإنما ذهب إليها راجلاً ، وذهب إليها
راجلاً مسرعاً يسابق الريح . فإذا صح هذا التقدير فإن الفتي قد
أعجل عن الاستعداد للرحيل ، وفرّ من الكوفة فراراً كما قدمنا .

والمدح الذي يكون الجزء الثالث من القصيدة ، والجزء
الأهم والأطول ، ليس أدنى إلى الابتكار ولا أقرب إلى التجديد
من الجزأين الأولين . بل هو برىء من الابتكار الجدى إن
صح هذا التعبير كل البراءة . هو مدح تقليدى بأوضح معانى
الكلمة وأدقها ، لا يتجاوز الشاعر به أن يصف ممدوحه ،
بأنه أكرم قريش وأشجعها وأعظمها حظاً من الخصال التي
يمتاز بها الرجل حقاً ، وبأنه كان أحلم قريش وأحكمها حين
بلغ الحلم ، وبأنه ابن النبی ، وبأنه أوحّد الخليفة وأجمعها

لصفات النبيل والشرف إلى غير هذا من الأوصاف التي تعود الشعراء أن يرصّوها في مدحهم رصاً . ومع ذلك فقد حاول الشاعر أن يجدد فأخطأه التوفيق ، وظهر أنه لا يزال في حاجة إلى ممارسة قول الشعر وتصريف الكلام ، وذلك حين أراد أن يذكر الضربة التي تلقاها ممدوحه في وقعة من الوقعات ، فزعم أن هذه الضربة شرفت ممدوحه ، ولم تلحق به ضرراً ولا أذى .

فهذا تفكير أطفال وحديث فتى يلغو . والمتنبى معتمد في مدحه كما اعتمد في غزله ووصفه على الطباق والمبالغة ، ^{يس} ويظهر ذلك ظهوراً واضحاً حين يحدثنا بأن الأغمد تبكى على النصول إذا علمت أنها ستجرد ، وبأن هذه النصول تغمد في الأعناق والرءوس فتقدح النار ، ولكن الدماء التي تسفكها تخمد هذه النار التي تقدحها . فأنت ترى في هذا الكلام المبالغة والطباق معاً ، وتحس فيه محاولة الشاعر استغلال هذين الأصلين من أصول البديع وأنه إن وفق في ذلك حيناً فما يزال يخطئه التوفيق كثيراً . لأنه على تقدمه في الصنعة لم يستكمل بعد حظه من المهارة والإتقان .

على أن هذه القصيدة تدلنا على شيء آخر له قيمته من
الناحية التاريخية . فالشاعر لم يمدح أحداً من رجال الحكم ،
ولم يتجه إلى أحد من المتصلين بالسلطان العباسي القائم ،
وإنما مدح رجلاً علوياً ، فأوضح ما يستنبط من ذلك أن
المتنبى حين وصل إلى بغداد كان محتفظاً بمذهبه السياسي ،
منحرفاً عن السلطان العباسي القائم في بغداد . ولكننا
لا نرى في القصيدة مذهب القرامطة ولا إشارة إلى نظرية
الحلول . فلا أقل من أن نفهم من ذلك أن شاعرنا متحفظ
محتاط ، وأنه لا يمدح هذا العلوي رغبة في مدحه أو إخلاصاً
في حبه وحب العلويين ، وإنما يمدحه ملتصقاً لنواله — يريد
أن يستعين بهذا النوال على الرحيل من بغداد إلى الشام .

وأثناء إقامة المتنبى في بغداد رأى الفتى من غير شك
ما لم يره في الكوفة ولا في البادية من مظاهر الترف وألوان
النعيم ، وفنون العبث واللهو . فزاد سخطه على النظام
الاجتماعي ، وحنقه على توزيع الثروة بين الناس ، والغريب
أنه لم يستبق مما رأى ومما سمع في بغداد هذه المرة إلا ما ترويه
لنا عنه الأخبار من أنه كان يمشى مرة في بغداد ، ومعه

خمسة دراهم ، فرأى بطيخاً أعجبه لأنه كان باكورة ، فساوم فيه صاحبه حتى عرض عليه دراهمه الخمسة ، ولكنه لم يبلغ منه شيئاً . ووقف الفتى حزينا ينظر إلى البطيخ وإلى الدراهم ، وإذا تاجر يخرج من خان مقابل لبائع البطيخ ، فينهض البائع إليه متملقاً مبالغاً في التملق ، يدعو له ويعرض عليه بطيخه ، والتاجر يأبى ويمتنع ، والرجل يهبط بالثمن شيئاً فشيئاً حتى سمح التاجر وطابت نفسه عن شراء هذا البطيخ بدرهمين اثنين ، وأمر البائع أن يحمله إلى داره . فلما انصرف التاجر أظهر المتنبي عجبه لصاحب البطيخ من هذه الحماقة التي حملته على أن يرفض خمسة دراهم كان يعرضها عليه ويقبل من التاجر درهمين ، لم تطب نفسه عنهما إلا بعد المساومة والعناء . فقال له التاجر : ويلاك إنه يملك مائتي ألف دينار !!

ويزعم الرواة على المتنبي أنه أحب المال منذ ذلك الوقت وكلف بالغنى ، وحرص على أن يملك مائتي ألف دينار .
ومهما يكن من أمر هذه القصة فلست أريد أن أحملها أكثر مما تحتمل ، ولست أرى فيها إلا رمزاً لما تأثر به

الشاعر الفتي أثناء إقامته في بغداد من حماقة العامة واستكاثهم
وطغيان الخاصة والأغنياء ، وإسرافهم في استغلال هذه
العامة الحمقاء المستكينة .

أقبل الفتي على بغداد قرمطيا منهزماً ، حانقاً على النظام
الاجتماعي والسياسي ، وخرج من بغداد إلى الشام ، وأضاف
حنقاً إلى حنق ، وسخطاً إلى سخط ، وازداد حظه من التردد
على السلطان والنظام . وإذا أضفنا إلى هذه القصة قصة
أخرى يرويها الرواة عن المتنبي الصبي أثناء إقامته بالكوفة
استطعنا أن نتبين العناصر الخلقية والعقلية التي كوّنت
شخصية هذا الفتي المندفع المخاطر والضارب في الأرض يبتغي
شيئاً لعله لم يكن يحققه ولا يعرفه إلا توهماً .

فقد زعم الرواة أن الصبي كان يختلف إلى وراق
في الكوفة يجلس عنده وينظر فيما يحضره من الكتب ، فأقبل
ذات يوم رجل ، ومعه كتاب لأبي عبيدة في اللغة ، يقع
في ثلاثين ورقة ، وكان الرجل يعرض كتابه للبيع ، فأخذه
الصبي وجعل يطيل النظر فيه حتى ضاق به البائع وقال له :
يا هذا إنما جئت بهذا الكتاب لأبيعه وأنت إذا أردت حفظه

واستقصاه احتجت إلى أيام . قال الصبي فإذا كنت قد وعيت ما فيه ؟ قال البائع فهو لك . ثم امتحن القوم الصبي فإذا هو قد حفظ ما في الكتاب .

لا أريد أن أحمل هذه القصة أيضاً أكثر مما تحتمل ، وإنما أرى فيها رمزاً لنشاط الصبي وحضور ذهنه وحدة ذكائه . وإذن فقد أدرك الفتى نفسه وهو متميز من غيره بذكاء غير شائع في الناس ، وهو مع ذلك فقير بأُس يشتهى من لذات الحياة المتواضعة ما لا يستطيع أن يبلغه وإن بذل الجهد والمال ، والأغنياء البُلَه من حوله ينعمون ويترفون ويكرهون على النعيم والترف إكراهاً ، فلا غرابة في أن يمتلئ هذا الفتى بنفسه وفي أن يشعر قلبه ببعض هذه الحياة التي تجري فيها الأمور على غير ما يقتضيه العدل والحق والإنصاف . ولا غرابة في أن يقصد إلى الشام وفي نفسه خواطر كثيرة مختلطة مضطربة ليس من اليسير تمييزها ، ولكنها على كل حال خواطر متشائم ساخط يريد أن تتغير الظروف من حوله لمصاحبة الناس جميعاً ، فإن لم يكن إلى ذلك سبيل فلا أقل من أن تتغير الظروف حوله لمصلحته هو خاصة .

وأكد أعتقد أن حياة المتنبي بعد سفره من بغداد تمثل هذين النوعين من الأمل ، وهذين الفئتين من المحاولة . فهو في أول أمره مخلص صادق فيما بينه وبين نفسه ، معجب بنفسه من غير شك ، ولكنه ليس مسرفاً في الأثرة ، يرى أنه قد يستطيع تغيير ظروف الحياة لمصاحبة المظلومين والمستضعفين وسبيله إلى ذلك نشر الدعوة القرمطية وتغيير الأمور السياسية في مكان بعيد بعض الشيء عن مركز السلطان ومستقر الخلافة . وقد اندفع الفتى في ذلك وجهد في أن يصل إليه مخاطراً يوماً متحفظاً يوماً آخر ، متجاوزاً الحدود يوماً ثالثاً ، حتى أدركه الاخفاق ثم أدركه اليأس ، فلم يجد بداً من المرتبة الثانية التي تقوى فيها الأثرة بعد أن أخفق الايثار ، ويقوى فيها الطمع وحب النفس بعد أن أخفق الرفق بالناس والنصح لهم وحملهم على الإصلاح .

هنالك ظهر المتنبي على طبيعته الصحيحة التي أخفاها حينما كرم الشباب ، واندفاعه الطبيعي إلى الخير ، فلما أدركه الاخفاق وألمت به الخيبة انجلت عنه غمرة الشباب ، وظهر كما أراد الله له أن يكون شاعراً نابغة ، نابه الذكر مؤثراً لنفسه بالخير

مسرفاً في إظهار نفسه بالخير لا يستبقي من آماله الأولى إلا الحق
على الجماعة والازدراء لها والبغض لما تقدم عليه من نظام وتخضع
له من سلطان ، ولـكننا فيما يظهر نتعجل الحوادث بعض
الشيء ، والخير في أن نصطنع الأناة ونسائر الشاعر في طريقه
حتى نقطع معه المرحلة الثانية انتي انتهت به إلى السجن ثم إلى
اليأس والقنوط .

وأول مسألة تعرض لنا في هذه الطريق ، مسألة تاريخية
بالطبع ، أو مسألتان تاريخيتان . فتى ارتحل المتنبي عن بغداد
قاصداً إلى الشام ؟ وهل من سبيل إلى توقيت القصائد التي
قالها في الشام قبل أن تنتهي به الحوادث إلى السجن ؟

فأما المسألة الأولى فليس إلى الجواب عنها من سبيل ؛
لأن المؤرخين لا يحدثوننا بشيء يعين الوقت الذي خرج
المتنبي فيه من بغداد أو يقرب به . والديوان نفسه لا ينبئنا من
هذا بشيء ، ولكنني أرجح خلافاً لما ظن الأستاذ بلاشير^(١)
أن إقامة المتنبي في بغداد لم تطل ، وإنما مر الشاعر بها مرّاً
لم ينفق فيها إلا الوقت الذي مكن له من أن يتهيأ للرحيل إلى
الشام ؛ لأنه لم يكن آمناً في بغداد كما لم يكن آمناً في الكوفة .
وعندي أنه خلافاً لما ظن الأستاذ بلاشير أيضاً لم يختلف إلى
مجالس العلماء ، ولا إلى أندية الأدب ، ولم يتصل بأحد من

الأشخاص الظاهرين في بغداد إلا محمد بن عبد الله العلوي
الذي مدحه بالقصيدة التي فرغنا من تحليلها آنفا ؛ وما
أراه مدحه إلا ليستعين بنائله على الرحيل .

لم يكن المتنبي آمناً في بغداد لأنه كما رأيت كان
قرمطي الهوى ولأن بغداد كانت شديدة الاضطرابات بأحداث
القرامطة الذين كانوا يغيرون عليها منذ وقت قصير . وما أرى
إلا أن المتنبي قد أنفق ما أنفق من الوقت في بغداد وجلاً
مضطرباً ، وخرج منها خائفاً يترقب ، وانتفع في إقامته وسفره
بأنه شخص مجهول لا ينم عليه اسم معروف ، ولا تفضحه مكانة
ممتازة . وأكبر الظن أن خوفه واحتياطه هما اللذان حملاه على
أن يخفي اسمه ونسبه إن كان له نسب على القبائل التي كان
ينتقل بينها اثناء رحلته .

وأوضح دليل على أنه لم يطل الإقامة في بغداد أن ديوانه
لا يحفظ لنا شعراً قاله في بغداد إلا مدحه لهذا العلوي . ولو قد
أقام المتنبي ببغداد إقامة أمن وفراغ بال ، لما أعياه أن يقول
كثيراً من الشعر في كثير من الأشخاص وفي كثير من
المشاهد التي شهدناها في دار السلام .

وأما المسألة الثانية فالأمر فيها مختلف بعض الشيء ، فقصائد المتنبي التي قالها بين خروجه من بغداد ودخوله السجن منشورة في القسم الأول من ديوانه على نحو يظهر أنه قصد به إلى كثير من التعمية والتضليل . فهناك قصائد مقدمة في الديوان وقد كان إنشاؤها متأخراً ، وهناك قصائد متأخرة في الديوان ، وقد كان إنشاؤها متقدماً . وما أشك في أن هذا التأخير والتقديم شيء أريد لأمر ليس في حاجة إلى التوضيح . وأكثر الأشخاص الذين قصد إليهم المتنبي بمدحه وثنائه في هذا الطور خاملون لم يعرفهم أو لم يكدهم يعرفهم التاريخ .

ومع ذلك فقد يخيل إليّ أن توقيت هذه القصائد إن لم يكن ممكناً كله فليس مستحيلاً كله ، ولى إلى ذلك التوقيت طريقتان .

فأما أولاها فتتصل بنفس الشاعر ، وأما ثانيتهما فتتصل بطريق الشاعر حين اضطرابه في بلاد الشام ، فاما الطريقة الأولى : وهي الطريقة النفسية إن صح هذا التعبير فإني استنبطها من طبيعة الحياة العقلية والشعورية التي كان يحياها المتنبي قبل أن تلم به الكارثة ، فقد رأيناه قرمطى الهوى في الكوفة

لا يتحفظ ولا يحتاط ، ورأينا شيعيا في بغداد متحرجا يصطنع
الحذر ، ورأينا أنه في أكبر الظن إنما سافر بقرمطيته إلى
الشام ليدعو إليها هناك . وإذن فلا بد إن صح هذا الغرض
من أن يمتاز شعر المتنبي في هذا الطور من حياته بشيئين :
أحدهما آراء قرمطية تظهر في هذا الشعر من حين إلى حين
لأنها هي آراء الشاعر ، وهي قوام حياته وتفكيره ونشاطه
الخفي ، فلا يستطيع الشاعر أن يمحوها من آثاره الأدبية محوًا .
والثاني تحفظ واحتياط ، وإيثار للعافية يدفع الشاعر إلى أن
يخفي آراءه ما استطاع إذا خاف أو شك ، وإلى أن يلمح بهذه
الآراء إذا أمن أو طمع ، وإلى أن يجهز بما يمكن الجمهور به من
هذه الآراء إذا أمن واطمأن . فإذا استطعنا أن نتبين هاتين
الخصلتين في طائفة من قصائد المتنبي فأكبر الظن أن هذه
القصائد قد قيلت في هذا الطور . على أني أكثر اعتماداً على
الطريقة الثانية الجغرافية منى على هذه الطريقة الأولى النفسية ،
فالظاهر أن المتنبي قد خرج من بغداد متابعاً طريق الجزيرة
حتى انتهى إليها فأقام فيها وفي شمال الشام دهرًا يتنقل بين
القبائل البادية وبين المتحضرين في المدن ، يمدح الرؤساء وسراة

الناس كما يمدح أوساطهم وفقراءهم أيضاً ، وهو في أثناء هذا كله يمتحن أولئك وهؤلاء ليتبين استعدادهم للقرمطية وتهيؤهم للخروج على السلطان العباسي الذي كانوا يخضعون له في ذلك الوقت خضوعاً فيه غير قليل من التلون والاضطراب . فإن وجد عندهم استعداداً لقبول دعوته أذاعها فيهم وإن لم يجد كتم عنهم أمره ، وهو في الحالين يعيش بما يأخذه منهم أجراً لما يهدي إليهم من المديح .

وأنت إذا قرأت القسم الأول من ديوان المتنبي بعد خروجه من العراق رأيتَه ينقسم ثلاثة أقسام جغرافية إن صح هذا التعبير :

القسم الأول قيل في الجزيرة وشمال الشام ، ومدح به جماعة من رؤساء البادية ، وأغنياء الحاضرة وأوساطها ، وأصحاب المناصب فيها . والقسم الثاني قيل في اللاذقية وهو موقوف على التنوخيين الذين قد نطيل عنهم الحديث . والقسم الثالث قيل في طرابلس .

يحدثنا الشاعر نفسه بذلك ، وأنت تفهم من سياق شعره في التنوخيين ، أنه قد غاب عن اللاذقية حيناً ، فأقام في طبرية

ثم عاد إليها . وإذن فيخيل إلى أن المتنبي قد جاء سوريا من
شمالها فأقام في هذا الشمال دهرًا ، ثم مضى فأقام في طرابلس
حينًا قصيرًا ، ثم انحرف إلى اللاذقية ، فأطال فيها المقام شيئًا ،
ثم انصرف عنها إلى طبرية فأقام قليلًا ، ثم عاد إلى اللاذقية
فجدد العهد بها وتهيا فيها لما كان يريد أن يحدث من خطب ،
ثم تركها إلى البادية غير بعيد عن حمص ، فلم يكد يعلن الدعوة
إلى الثورة حتى أخذ ، وألقي في السجن . ويجب أن يكون
أخذه وإلقاؤه في السجن ، في سنة ثلاث أو أربع وعشرين
وثلاثمائة . فنحن نراه يمدح أحد التنوخيين ، ويبرئ نفسه
إليه من تهمة رمى بها عنده ، وهي تهمة الهجاء له ؛ فيقول :

وما أَرَبْتُ عَلَى الْعِشْرِينَ سِنِي

فَكَيْفَ مَلَّيْتُ مِنْ طُولِ الْبَقَاءِ

وأقل ما يفهم من هذا البيت أن الشاعر قاله سنة ثلاث
وعشرين وثلاثمائة . وسترى أنه مدح التنوخيين قبل أن
يحدث الأمر الذي اضطره إلى السجن . وأظن أننا حين نستعين
بهاتين الطريقتين نستطيع أن نوقت توقيتًا مقاربًا تاريخ هذا
القسم من شعر المتنبي ، وأن نمحو الغموض الذي أحيط به هذا

القسم عمداً في الديوان ، بما اصطنع فيه من تقديم وتأخير .
ومهما يكن من شيء فإني أفترض أن المتنبي قد سلك
هذه الطريق التي رسمتها مع قليل أو كثير من الانحراف لا يؤثر
في صورتها العامة تأثيراً ذا خطر . وإذن فسأسلك هذه الطريق
نفسها في درس شعره في هذا الطور على النحو الآتي :

- ١ — شعره في سوريا الشمالية .
 - ٢ — شعره في طرابلس .
 - ٣ — شعره في اللاذقية .
 - ٤ — شعره حين كان يستعد للثورة في البادية .
 - ٥ — وأخيراً شعره في السجن .
-

٧

وبين أيدينا في الديوان — إن صح ما ذهبت إليه من
الفرض ، وما عمدت إليه من الإحصاء — ست عشرة قصيدة
ومقطوعة قالها المتنبي في أول عهده بالشام ، حين كان في الشمال
متنقلاً بين أهل البادية وأهل الحضر .

وقد مدح بهذا الشعر أو بأكثره على الأقل جماعة
من العرب ، ليس فيهم إلا مضرى واحد ، هو سعيد بن
عبد الله بن الحسين الكلابي القيسي ، ومدحه بالقصيدة
التي مطلعها :

أحيا وأيسرُ ما قاسيتُ ما قتلا

والبين جاز على ضغني وما عدلا

ولبعض الكلابيين من رهط هذا الرجل ، قال هاتين
المقطوعتين فيما أرجح ، وفيهما تلميح ظاهر إلى غرضه ، وإلى
دعوته القرمطية :

إِذَا مَا شَرِبْتَ الْخَمْرَ صِرَفًا مَهْنًا
شَرِبْنَا الَّذِي مِنْ مِثْلِهِ شَرِبَ الْكَرْمُ
أَلَا حَبَّذَا قَوْمٌ نَدَامَاهُمْ الْقَنَا
يُسْقُونَهَا رِيًّا وَسَاقِيهِمُ الْعَزْمُ

لِأَجَبَّتِي أَنْ يَمْلَأُوا
بِالْصَافِيَاتِ الْأَكْوَؤُبا
وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا
وَعَلَى أَنْ لَا أَشْرَبَا
حَتَّى تَكُونَ الْبَاتِرَا
تُ الْمُسْمِعَاتِ فَاظْرَبَا

وفيهم رجل واحد هو سيف الدولة . مدحه في هذا
الطور بميميته التي يقول في أولها :

ذِكْرُ الصَّبَا وَمَرَابِعُ الْأَرَامِ
جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي

وأما الآخرون ففقهطيونيون ، منهم الأزدي ، وهو

أبو المنتصر شجاع الأزدي ، وقد مدحه بالقصيدة التي مطلعها :

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ
وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقُّ

ومنهم جماعة من الطائيين ، هم على بن أحمد الطائي ،

ومدحه بالقصيدة التي أولها :

حُشَّاشَةُ نَفْسٍ وَدَعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا
فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أَشِيعُ

وشجاع بن محمد الطائي ، وقد مدحه بقصيدتين مطلع

أولاهما قوله :

عَزِيزُ أَسَى مِنْ دَاوُدَ الْحَدَقُ النُّجْلُ
عِيَاءٌ بِهِ مَاتَ الْمُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ

ومطلع الثانية قوله :

الْيَوْمَ عَهْدُكُمْ فَأَيْنَ الْمَوْعِدُ
هِيَهَاتَ لَيْسَ لِيَوْمٍ عَهْدُكُمْ غَدُ

وعبد الله وأخوه أبو عبادة ابنا يحيى بن البحتري الشاعر

وقد مدحه بقصيدتين مطلع أولاهما :

بَكَيْتُ يَارَبْعُ حَتَّى كِدْتُ أَبْكِيكَ
وَجُدْتُ بِي وَبِدَمْعِي فِي مَغَانِيكَ

ومطلع الثانية :

أَرِيْقُكَ أَمْ مَاءُ الْغَمَامَةِ أَمْ خَمْرُ
بَنِي بَرُودٍ وَهُوَ فِي كَبْدِي جَمْرُ

ومدح أخاه بالقصيدة التي يقول في أولها :

مَا الشَّوْقُ مُقْتَنِعًا مِنِّي بِذَا الْكَمَدِ
حَتَّى أَكُونَ بِلَا قَلْبٍ وَلَا كَبَدٍ

ونلاحظ أنه في هذه القصائد الثلاث لم يذكر البحترى
الشاعر جده ممدوحيه ولم يشر إليه ، ولعل هذا يلائم ما كان
معروفاً عن المتنبي من الإمعان في قراءة شعر المحدثين وأدب
البلغاء ، والادعاء مع ذلك أنه لا يقرؤها ولا يحسن العلم بهما
حتى افتضح في ذلك^(١).

ومدح غير هؤلاء محمد بن زريق ، وكان على بعض

العمل في طرسوس بالقصيدة التي مطلعها :

(١) الصبح المنبي ص ٧٩ ، ٨٠

هَذِي بَرَزْتُ لَنَا فَهَجْتِ رَسِيصًا
ثُمَّ انْتَنَيْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيصًا
وَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْتَحِلَ مِنْ طَرَسُوسَ اسْتَجَدَّاهُ بِالْأَيَّاتِ
الَّتِي أَوْلَاهَا :

مُحَمَّدُ بْنُ زُرَيْقٍ مَا نَرَى أَحَدًا
إِذَا فَقَدْنَاكَ يُعْطَى قَبْلَ أَنْ يَعِدَا
وَمَدَحَ كَذَلِكَ مَسَاوِرَ بْنِ مُحَمَّدٍ الرَّومِيَّ ، وَكَانَ حَاجِبًا
بِقَصِيدَتَيْنِ يَقُولُ فِي أَوْلَاهُمَا :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلَيْكَ التَّبْرِيحُ
أَغْدَاهُ ذَا الرَّشَاءِ الْأَغْنَى الشَّيْخُ
وَيَقُولُ فِي الْآخَرَى :

أُمْسَاوِرُهُ أَمْ قَرْنُ شَمْسٍ هَذَا
أَمْ لَيْثُ غَابٍ يَقْدُمُ الْأُسْتَاذَا
وَمَدَحَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْمُبَارَكِ الْأَنْطَاكِيَّ بِالقَصِيدَةِ
الَّتِي أَوْلَاهَا :

صَلَّةُ الْهَجْرِ لِي وَهَجْرُ الْوَصَالِ
نَكْسَانِي فِي السُّقْمِ نَكْسَ الْهَالِلِ

وكل هؤلاء الناس كان مقياً في شمال سوريا حين مدحه
المتنبى ، فمنهم من كان بأنطاكية ، ومنهم من كان بمنبج ،
ومنهم من كان بطرسوس ، ولا يتعرض منزل واحد منهم
للشك إلا أن يكون مساور بن محمد الرومى ، وأحسب المتنبى
لقيه في حلب أو قريباً منها .

ويرى الأستاذ بلاشير^(١) والدكتور عبد الوهاب عزام^(٢) ؛
أنه لم يمدح مساوراً إلا في وقت متأخر بعد موت محمد بن رائق ؛
والذالية تؤيد هذا الرأي ، ولكنى مع ذلك أميل إلى ترجيح
ما قدمته ، ولعله مدحه مرتين . مدحه بالحائية في طوره
هذا وبالذالية بعد موت ابن رائق ، وإن كانت إغارة المصريين
على الشام قد تكررت .

وأنت إذا قرأت هذا الشعر كله لم تشك في أنه الشعر
الذى يلى ما قدمنا الحديث عنه في الفصول السابقة ، أى أنه الشعر
الذى قيل في آخر الصبا وأول الشباب ، وعند وصول المتنبى
إلى شمال الشام .

R. Blachère : Abou t-Tayyib al-Motanabbî p. 109 (١)

(٢) ذكرى أبى الطيب للدكتور عزام ص ٥٨

فيه كل الخصائص التي تثبت هذا إثباتاً قاطعاً ، فالآراء
القرمطية ظاهرة فيه كما سترى ، إلا أن يتحفظ الشاعر ويحتاط .
والمذهب الفنى الذى ابتدأ الفتى به شعره ظاهر فيه كل الظهور
تقليد للقدماء ، ولأبى تمام خاصة ، واعتماد ظاهر على الطباق
والمبالغة ، يسرف فيهما إن استعصت عليه القريحة ، ويقتصد
فيهما إن واثاه الطبع .

ثم ظاهرة أخرى نجدها في هذا العصر عند جماعة من
الشعراء ولم يسلم منها المتنبي ، لا في هذا الطور ولا في بعض
الأطوار الأخرى التي تليه ، وهي تكلف القوافي التي لا تخلو
من عسر والتي لم يكن المطبوعون من الشعراء المتقدمين
يتكلفونها ؛ فكافيتته في مدح البحتري ، وذاليتته في مدح مساور
ابن محمد الرومي تدلان على أن الفتى كان يأخذ نفسه بشيء
من الشدة ليظهر شيئاً من البراعة في اصطناع القوافي ، والقدرة
على استدلالها .

ثم أنت حين تقرأ هذا الشعر تكاد تحس في ألفاظه ،
ومعانيه ، وأساليبه بنو طبيعة الشاعر ، وتقدم ملكته الفنية
نحو الرشيد والنضج شيئاً فشيئاً . ولولا أنى أكره الاطالة

والإملال فيما لا حاجة إلى الاطالة فيه والإملال به لاستقصيت
 هذا المقدار من شعر المتنبي ، ولدرسته قصيدة قصيدة ، ومقطوعة
 مقطوعة ، ولحاولت أن أستنبط من هذا الاستقصاء والدرس
 نمو الملكة الفنية عند هذا الشاعر الشاب ، ولكنني إن فعلت
 أثقلت عليك وعلى نفسي ، ولم أنته بك ولا بنفسي إلى غاية
 هذا الحديث . فخذ أنت هذا الشعر وقف عليه من وقتك أياماً ،
 فما أشك في أنك ستصل إلى ما لا أريد أنا أن أطيل فيه .
 ولكنني واقف معك عند بعض هذا الشعر ، فاجتهد في أن
 تتذوقه لعلنا نتعرف أصول فن المتنبي في شيء من التفصيل ،
 والوضوح ، ينفعنا حين نعبّر هذا الطور من أطواره الفنية .
 ولناخذ لاميته التي مدح بها سعيد بن عبد الله ، فإنها
 خليفة ببعض التفكير لأننا نلتمس فيها صبا الشاعر وطفولته ،
 لا في اللفظ وحده ، بل في الشعور والتفكير أيضاً ، فاقراً معي
 هذا الغزل الذي قدمه بين يديه :

أحيا وأيسرُ ما قاسيتُ ما قتلاً

والبينُ جارَ على ضعفي وما عدلاً

فانظر إليه كيف أراد أن يعبر عن أنه يحتمل من البين

ما لا سبيل إلى الحياة معه ، فدار حول هذا المعنى ، ولم يستطع أن يؤديه إلا في شيء من التكلف ، فاصطنع هذا الفعل في أول البيت ، ثم أضاف إليه هذه الجملة الحالية ثم لم يستطع أن يؤدي هذه الجملة الحالية نفسها دون شيء من المعاظة حين جمع بين هذين الموصولين في قوله :

أيسر ما قاسيت ما قتلا

ولعله أشفق من التنافر الذي يأتي من كثرة القافات فأثر هذا التعقيد اليسير . ثم انظر إلى الشطر الثاني من هذا البيت :

والبين جار على ضعفي وما عدلا

فسترى فيه طباقا ظاهرا يخلب بعض الشيء ، ولكنك ستحس أن الشطر كله لا حاجة إليه ، وأن القافية قد أكرهت إكراهاً وعتلت إلى مكانها عتلاً ، وأن الشاعر قد استوفى معناه الأساسي في الشطر الأول ، ثم جاء بالشطر الثاني ليتم البيت . فإذا انتقلت إلى البيت الثاني :

والوجدُ يقوى كما تقوى النوى أبداً

والصبرُ ينحلُّ في جسعي كما نحلَّ

أحسست في نفس الشاعر فرحاً بهذه الملاءمة التي اهتدى إليها

بين قوة النوى وقوة الوجد في الشطر الأول ، وبين نحول الصبر ، ونحول الجسم في الشطر الثاني . وبهذا الطباق البعيد بين قوة الوجد والنوى ، ونحول الصبر والجسم . ولكن انظر إلى قوله : أبدا ، فسترى أن هذه الكلمة إنما جاءت لتقيم وزن الشطر لا لشيء آخر ، فإن لقوة النوى وإن كانت غريبة حدا يجب أن تنتهى إليه فتنتهى معها قوة الوجد ، وانظر إلى الشطر الثاني كيف أعاد الضمير فيه على الجسم في شيء من التكلف لا يخفى ، ثم انتقل إلى البيت الثالث :

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتُ

لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا

فسترى فيه مبالغة ظاهرها يخلب ، ولكن تحقيقها يدل على أن صاحبها صبي ، لم ينفذ تفكيره بعد ، ذلك إلى إرجاع الضمير في لها على المنايا ، مع تقدم الضمير وتأخر المرجع في اللفظ ، وأنا أعلم أن هذا ليس خطأ ، ولست أذكره لذلك ، وإنما أذكره لأضع يدك على الجهد الذى يبذله الصبي في إقامة شعره .

واقراً البيت الرابع :

بِمَا بِجَفْنَيْكَ مِنْ سِحْرِ صِلِي دَنْقًا

يَهْوَى الْحَيَاةَ وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتَ فَلَا

فستنكر منه هذا الاستحلاف الذي يفجأك بهذه الباء تليها باء أخرى لا يفصل بينهما إلا هذا الموصول ، وهو حازر غير حصين كما يقول النحاة . ثم أتم قراءة البيت فسترى فيه قصوراً في الأداء لم يستطع الشاعر أن يخلص منه فاضطر إلى الحذف وإلى الاضمار . فهو يريد أن يقول لصاحبه : صلي دنقا يهوى الحياة ما وصلته ، فأما إن صددت عنه فليس يهواها .

والمتنبى مضطر بحكم الجهد إلى مثل هذا التكلف ، ولكنه سيمضى فيه وسيستجيزه ، ولعله كان يحس من الناس شيئاً من الإنكار فيأبى عليه عناده إلا أن يغيظ مخاصمه بالإلحاح فيما يكرهون ، وما دام النحو يجيز له مثل هذا فليس عليه بأس من الإيغال فيه ، وكذلك ينتقل المتنبى من التكلف إلى التعقيد ، ومن التعقيد الذي تفرضه الضرورة إلى التعقيد الذي يصبح مذهباً من مذاهب الشعر ، وفناً من فنون الأداء .

مثل المتنبى في ذلك مثل الفرزدق الذي كان يرى المعازلة وسيلة من وسائل الأداء الشعري ، ويعتمد تجاوز المألوف ليغيظ

خصومه من النحويين ^(١)؛ ثم انظر إلى البيت الخامس :

إِلَّا يَشِبُّ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبْدٌ

شَيْبًا إِذَا خَضَبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلًا

فقد صرف فيه الشيب تصريفا يكاد يذكر بتلاميذ المكاتب ،
فجاء منه بالمضارع والماضي والمصدر ، ثم أسنده إلى الكبد .
ثم لم يكفه ذلك حتى جعل السلوة خضابا ، وحتى جعل شيب
هذه الكبد مستعصيا على هذا الخضاب .

أما البيت السادس فخلو مؤثر ، فيه حنين الفتى ، لا إلى
صاحبته هذه ، بل إلى وطنه ذلك الذي هجره ، والذي ما زال
يتنسم ريحه ، ويمسك على نفسه عقله بما يحمل إليه هذا النسيم :

يُجْنُّ شَوْقًا فَلَوْلَا أَنَّ رَائِحَةَ

تَزُورُهُ فِي رِيَّاحِ الشَّرْقِ مَا عَقَلَا

ولكن الشاعر لا يكاد يدع هذا البيت حتى يعود إلى
التكلف والجهد فاقرأ البيت السابع :

هَا فَانْظُرِي أَوْ فَظُنِّي بِي تَرَى حُرْقًا

مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَأَلَا

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٧

فإنك واضع يدك على ما في هذا البيت من المشقة والعسر
فهذه الهاء في أول البيت ، وطلب الشاعر إلى صاحبه أن
تنظر أو أن تظن به أى أن تتخيله ، ثم إنباؤه إياها بأنها إن
نظرت أو ظنت به فسترى به حرقاً مهلكة ، وانظر إليه كيف
عبر عن هذه الحرق المهلكة بأن من لم يذق منها طرفاً فقد نجا .
فما أظن أن التكلف ينتهى بشاعر إلى تقصير أشد من هذا
التقصير .

ولكن شاعرنا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة
من عمره فليس عليه من هذا الجهد بأس ، وسترى إذا أمضيت
في قراءة الديوان أن النسيب ليس من الفنون التى يحبها المتنبي
أو يحفل بها ، وإنما هو يتكلفه على غير طبعه احتفاظاً بالسنة
المألوفة عند الشعراء .

وانظر بعد هذا الغزل كيف تخلص الشاعر إلى ممدوحه
بهذا البيت الذى عابه عليه النقاد ظالمين :

عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعُ لِي

إلى التى تَرَكَتْنِي فِي الْهَوَى مَثَلًا

فهم أنكروا على الفتى أن يجعل الأمير شفيعاً له عند

صاحبته ، ولكنهم نسوا أن الفتى يمدح رجلاً بدوياً ، وأن السُّنة كانت متصلة بأن قومًا أعظم خطراً من هذا البدوى قد شفَعوا في الحب للمحبين .

أو لم تحفظ الأخبار أن الحسين بن علي شفع لقيس ابن ذريح عند أبي لبني ^(١) ، وأن بعض عمال الأمويين شفع لقيس بن الملوح عند أبي ليلى ^(٢) ، وأن ابن أبي عتيق سافر بين عمر وبين الثريا ^(٣) ، فما يمنع المتنبى أن يشفع هذا الأعرجي الكلابي عند التي تركته مثلاً في الهوى ؟

ليس على الشاعر بأس من هذا البيت ، وإنما البأس عليه من البيت الذي يليه والذي يمثل طفولة الشاعر وسداجته حقاً .

أَيَقْنْتُ أَنَّ سَعِيدًا طَالِبُ بَدَمِي

لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمَحِ مُعْتَقِلًا

فدع هاتين الباءين اللتين توشكان أن تلتقيا في الشطر الثاني لولا هذا الضمير الضعيف الذي يحول بينهما ما استطاع ،

(١) الأغاني ج ٨ ص ١١٣ (طبع بولاق)

(٢) الأغاني ج ١ ص ١٧٣ » »

(٣) الأغاني ج ١ ص ٢٦ » »

وانظر إلى هذا التكلف الشنيع ، إلى هذا التكلف في المعنى
لا في اللفظ . رأى الفتى ممدوحه ، وقد اعتقل الرمح فاستيقن
أنه طالب بدمه . عند من ؟ عند صاحبتة هذه التي تعنيه وتضنيه
وتجعله مثلاً للعشاق المدنفين . ما أقسى قلب هذا الفتى الذي يحمد
من أميره أن يهدد حبيبته بالرمح ، فلو أن الأمير طعنها بهذا
الرمح فقتلها أكان يرضى عنه هذا الغلام ؟ أم هو يريد حباً
بالاكره ، ويرى أن صاحبتة غرة مثله إذا رأت الرمح خافت
واسمحت بما كانت تبخل به ، وما موقف الأمير بين هذين
العاشقين ؟ قد كنا نحتمله شفيعاً ، فأما مخوفاً ومكرهاً على الحب
فلا . ولكن الفتى لم يرد شيئاً من هذا ، وإنما هو عبث شاعر
واحتيال في الوصول إلى الممدوح مع شيء من الظرف والدعابة ،
ما أرى إلا أنه وقع من نفس الممدوح الأعرابي موقعاً حسناً ،
وإن لم يعجبنا نحن المتحضرين .

ويمضي الشاعر في مدح عادي لصاحبه ، قوامه المبالغة
في وصف الكرم حتى يصل إلى هذا البيت الذي لا بأس
بما فيه من الموسيقى ، وإن كانت المبالغة فيه شديدة جداً :

تُرَابُهُ فِي كَلَابٍ كُحْلُ أَعْيُنِهَا
وَسَيْفُهُ فِي جَنَابٍ يَسْبِقُ الْعَذْلَا
فانظر إلى الملاءمة الموسيقية بين تراب وكلاب وجناب ،
وانظر إلى نظمه للمثل السائر في غير تكلف ولا جهد ، ولكن
ما رأيك في قوم يكتحلون بالتراب .
وانظر إلى هذه الأبيات .

هُوَ الْأَمِيرُ الَّذِي بَادَتْ تَمِيمٌ بِهِ
قَدَمَا وَسَاقَ إِلَيْهَا حَيْنُهَا الْأَجَلَا
لَمَّا رَأَوْهُ وَخَيْلُ النَّصْرِ مُقْبِلَةٌ
وَالْحَرْبُ غَيْرُ عَوَانٍ أَسْلَمُوا الْحِلَالَا
وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ
إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا
فاليق الأخير منها يذكرك من غير شك بقول جرير
للأخطل :

مَا زِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ
خِيَالًا تَشُدُّ عَلَيْكُمْ وَرَجَالَا

واقراً هذا البيت :

فَبَعْدَهُ وَإِلَى ذَا الْيَوْمِ لَوْ رَكَضَتْ

بِالْخَيْلِ فِي لَهَوَاتِ الطُّفْلِ مَا سَعَلَا

فما رأيك في هذا الطفل الذي تركض في لهواته تميم بخيلها
فلا يأخذه السعال ؟ ما عسى أن يكون هذا الطفل ؟ وما عسى
أن تكون تميم وخيل تميم ؟

وعلى هذا النحو من الكلام الذي تتكلف فيه المبالغة
في المعنى والملاءمة بين الألفاظ يمضى الشاعر حتى يتم قصيدته .
ونحن لا نكاد نخرج من هذه القصيدة بشيء ذى غناء ، إلا أننا
نرى هذا الفتى يكلف نفسه ألوان الجهد وفنون الغناء ، مبتهجاً
بذلك غير محزون له ، ولا مظهر به ضجرًا ؛ لأنه يستقبل فنّه
وأمله بنشاط الفتوة وميعة الصبا ، وهذه الثقة التى لا يعرفها
إلا الشباب .

ولم يصرح المتنبي في هذه القصيدة بمذهبه القرمطى ،
ولم يلمح له ، ولكنك رأيت أنه قد لمح لأقارب الممدوح فى
المقطوعتين السابقتين ، وليس من شك فى أنه أقام مع هؤلاء
الكلابيين ما أقام ، وقال لهم ما قال دون أن يجد عندهم غناء .

فلنقف لحظة قصيرة عند هذه القصيدة الأخرى ، التي
مدح بها المتنبي أبا المنتصر شجاع بن أوس بن معن الرضى
الازدى كما يقول الديوان ، فسرى أن القراءة الأولى
لهذه القصيدة تخالف القصيدة الماضية خلافاً ظاهراً من
وجوه :

ففي هذه القصيدة الثانية نحس للشاعر غناء صادقاً ،
يصور نفسه ويجلو عواطفه . وليس العشق في هذا الغناء
إلا رمزاً غامضاً لمعنى غامض ، هو الذى يتغنى الشاعر به دون
أن يعرب عنه في أول الأمر ، وإنما يتركه لك ، تفهم منه
ما تشاء أو تفهم منه ما تستطيع . فإذا كنت ملماً بحياة
الشاعر ، ظاهراً على دخائله مصاحباً له منذ نشأته الأولى ،
شاهداً لما مازج صباه من حزن ، وما عرض له في حياته من
أسى وحسرة ، فأنت فاهم عنه ، محقق لما يتغنى به ، وإن كنت
غريباً عن الشاعر تسمع له مصادفة وتقرؤه على غير علم دقيق
بحاله ، فأنت تراه شاعراً كغيره من الشعراء يعشق كما
يعشقون ، فينسب كما ينسبون . ويكفى أن تقرأ الأبيات
الأولى من هذه القصيدة لترى صحة ما أشير إليه :

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ
 وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَفَّقُ
 جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى
 عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفِقُ
 مَالِاحَ بَرَقُ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرُ
 إِلَّا انْتَنَيْتُ وَلِي فَوَادَّ شَيْقُ

فالشاعر في هذه الأبيات يتغنى كما ترى غناء غامضاً
 بعواطف مبهمه ، وإن ظهر منها أنها العشق ، ولكن هذا الغناء
 صادق الالهجة قوى النغمة ، يصدر عن قلب حزين وينتهى
 إلى القلوب فيشير فيها الحزن والأسى . فأرق الشاعر متصل يقفو
 بعضه أثر بعض ، والشاعر يقرر ذلك ولا ينكره ؛ لأنه يرى أن
 مثله خليق أن يأرق . فأما عامة الناس فيفهمون من هذا
 الشطر الأول شدة العشق ، وحدة الحب ، ولوعة الهوى ، وأما
 العارفون بأمر المتنبي فيفهمون من هذا الشطر همَّ الشاعر الذي
 يطيل ليله ويضاعف أرقه ، وأمل الشاعر الذي يملأ قلبه ، ويبعد
 عن متناوله . والشاعر محزون يزيد حزنه كلما مرت الساعات

والأيام ، وقد ينتهى به هذا الحزن المتصل المتزايد إلى البكاء .

ثم انظر إلى البيت الثانى :

جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى

عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفِقُ

فهل ترى غناء أصدق من هذا الغناء ، وأبلغ تأثيراً فى النفس ،
ومع ذلك فليس فى البيت شىء جديد ، ولا معنى طريف ،
ولكن صدق لهجة الشاعر ، والجمع بين تسهيد العين وخفقان
القلب يشيع فى هذا البيت حزناً لا أدرى كيف أحققه ، ولكنى
أعلم أنه شديد العدوى سريع الانتقال إلى سامعيه وقارئيه .

ثم انظر إلى هذا البيت الثالث :

مَا لَاحَ بَرَقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ

إِلَّا انْتَنِيتُ وَلِي فُؤَادٌ شَقِيقٌ

فسترى فيه مثل ما رأيت فى البيت السابق ، وستجد فيه حنين
الشاعر إلى وطنه الذى لم تزل نفسه به متصلة لم تسلم عنه بعد .
ثم اقرأ الأبيات الثلاثة التى تاتى بعد ذلك ، فسترى أن
الشاعر قد أدرك نفسه فاخفى شخصه ، وتكاف ما يتكاف
الشعراء من هذا النسيب المصنوع . فظهر تكلفه فى لفظه ،

وأسلوبه ومعناه ، فهو قد جرب من نار الهوى ما تنطفئ نار
الغضا قبل أن ينطفئ ، وما تعجز نار الغضا عن إحراق
ما يحرقه ، فالمعنى فى نفسه ليس شيئاً وليس أداؤه بخير منه :

جَرَبْتُ مِنْ نَارِ الْهَوَى مَا تَنْطَفِئُ
نَارُ الْغُضَا وَتَكِلُ عَمَّا يُحْرِقُ

واقراً البيت الذى يأتى بعد ذلك ، فسترى طفولة الشاعر
قد عادت إلى الظهور ، وستحس رضى الصبي أو رضى الفتى عن
هذا المعنى الذى يحسبه شيئاً ، وليس بشيء ، وإنما هو السخف
الذى يخدع العامة ، وليس من ورائه طائل :

وَعَدَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ
فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ

يريد أن العشق وحده هو سبيل الموت ، وقد سبق المتنبي
نفسه إلى هذا المعنى فى القصيدة التى حللناها آنفا حين قال :

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتَ

لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا

ولما عرف الشاعر أنه قد كان مخطئاً فى لوم العشاق قبل
أن يذوق العشق لم يربداً من أن يعذرهم ، ومن أن يعترف بأن

ما يلقي من ألم العشق وجواه ليس إلا جزاء له على ما قدم إلى
العاشقين من ذنب :

وَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّنِي

عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ فِيهِ مَا لَقُوا

فالشاعر كما ترى ممعن في تكلفه ، راض عن هذا التكلف
بحسب أنه قد استنبط معنى خطيراً ، فهو يئمه ويستوفيه ، ولعلك
أحسست كما أحسست أنا أن الشاعر قد آذى نفسك حين
بدأ صادقاً فأرضاك ، ثم انحدر إلى التكلف فأسخطك . ولكن
الشاعر نفسه قد أحس هذا التكلف وهو ضيق به لا يطيق
المضى فيه ، وهو محزون حقاً ، ولا بد له من أن يعود إلى لهجته
الأولى ، ومن أن يرسل نفسه على سجيته ، ومن أن يتغنى
حزنه العميق ، وهو في هذا الغناء أوضح شيئاً منه في الغناء
الذي بدأ به القصيدة :

أَبْنَى أَيْبِنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلِ

أَبَدًا غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعَقُ

نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ

جَمَعْتُهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا

أَيْنَ الْأَكْسِرَةِ الْجَبَابِرَةُ الْإِلَى
كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ وَلَا بَقُوا
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ
حَتَّى تَوَى فَحَوَاهُ لَحْدُ ضَيْقُ
خُرْسٍ إِذَا نُودُوا كَانَ لَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَالٌ مُطْلَقُ
فَالَمُوتُ آتٍ وَالنَّفُوسُ نَفَاسُ
وَالْمُسْتَعْرِ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحَقُ
وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةُ
وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ وَالشَّيْبَةُ أَنْزَقُ
وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ وَلِمَتِي
مُسَوَّدَةٌ وَلِمَاءُ وَجْهِ رُونَقُ
حَذَرًا عَلَيْهِ قَبْلَ يَوْمِ فِرَاقِهِ
حَتَّى لَكِدْتُ بِمَاءِ جَفْنِي أَشْرَقُ
اقْرَأْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ ؟ أَرَأَيْتَ مَا فِيهَا مِنَ الْحُزَنِ ؟ أَلْخِطُ
الْبَيْتَ الْأَوَّلَ مِنْهَا كَيْفَ يَمَثِلُ أَطْمَئِنَّانَ الشَّاعِرَ إِلَى هَؤُلَاءِ

الذين يتحدث إليهم لأنهم بنو أبيه ليسوا مضرين ولا عجماء ؟
أرأيت أنه يسجل أن القحطانية أهل منازل ينعب فيها
غراب اليين أبدا . فلهجرة من طبعهم ، والغربة معروضة عليهم ؟
ثم أرأيت كيف مضى الشاعر في هذه الشكوى مفلسا
في سذاجة توشك أن تكون عامية ، بل هي أشبه بالوعظ منها
بالفلسفة ؟ ولكن الذى ينبغى أن نفكر فيه هو أن هذه الفلسفة
الساذجة أصل لهذه الشجرة التى ستنمو وتمتد أغصانها حتى
تملأ شعر المتنبي مواعظ وحكما وأمثالا .

والذى ينبغى أن نفكر فيه أيضاً هو أننا نكاد نحس في
هذه الأبيات بدء التفكير الفلسفى الحزين عند هذا الفتى ، وأن
هذا التفكير الفلسفى إنما يأتى من رجوع الفتى إلى نفسه
أولاً وإلى قومه ثانياً .

فهو يرى نفسه غريباً مشرداً ، سىء الحال ، وهو يرى
قومه بعد ذلك غرباء مشردين ، قد تسلط عليهم من كان
ينبغى أن يتسلطوا هم عليه ، واستأثر بالأمر دونهم من كان
ينبغى ألا يكون له من الأمر شيء . والطباق كما ترى في
هذه الأبيات ، هو القوام الفنى لشعر الشاعر لا يعدل

عنه ، ولا يكاد يعدل به أداة فنية أخرى .

وانظر إلى آخر هذه الأبيات ، وإلى بكاء الشاعر على الشباب ، وهو في ريعان الشباب ، وإلى تعليل الشاعر لبكائه هذا على شباب لم يفارقه ، بل لم يكد يستقبله ، بالخوف من مفارقتة التي ليس منها بد .

وأكبر ظني أن الشاعر يتكلف التعليل هنا ، كما تكلفه حين ذكر لومه للعاشقين ، واعتذاره بعد ذلك عنهم ، ولكنه هنا ليس فاحش التكلف ، ولعله هو لا يعرف لماذا يبكي الشباب ؟ ولا يرى أنه إنما يبكي الشباب لأنه في حاجة إلى البكاء ليس غير ، كما هو يشكو العشق لأنه في حاجة إلى الشكوى ليس غير . ولعل من أوضح الأدلة على صدق الشاعر في هذه القصيدة أو في القسم الأول منها أنه قد نسي أو كاد ينسى ممدوحه ، واندفع في تفكيره وحزنه وغنائه لهذا التفكير والحزن حتى إذا قضى من ذلك أربه أو كاد ، ذكر أنه ينشئ قصيدة في المدح والثناء ، لا في الحزن والغناء ، فاقترض التفكير والتعبير اقتضاباً ، ولم يلمس تخلصاً إلى المدح ؛ لأنه فارغ البال للتكلف والاحتيال ، فلجأ إلى أمّا وقال :

أَمَّا بَنُو أَوْسٍ بْنِ مَعْنٍ بْنِ الرِّضَى
فَأَعَزُّ مَنْ تُجَدَى إِلَيْهِ الْأَيْنُقُ
ويمضى الشاعر فى مدحه لبنى أوس هؤلاء مبالغاً كدأبه
مردداً ما قال الناس فى المدح ، ثم يخلص إلى محمد ممدوحه
فيصفه بما لا يغنى ، ولكنى أحب أن تقف عند هذا البيت :
لم يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
أَحَدًا وَظَنَى أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ

لترى ما فيه من المبالغة الفاحشة التى لا تصدر عن الفن
الخالص أكثر مما تصدر عن فساد الرأى الدينى عند الفتى ،
وتأثره بهذه القرمطية التى تبيح للناس أو لبعض الناس على
الأقل من الرأى والقول والعمل ما لم يكن يستباح .

فنحن بأزاء قصيدة لها خطرهما فى تصوير نفس المتنبي
حين كان يودع الصبا ويستقبل الشباب . هى نفس حزينة
معنأة مؤرقة لأن لها همًّا بعيداً ، ولأنها قد أخذت تفكر فى
الناس وفى نفسها ، وتستنبط من هذا التفكير أموراً لا تسر
ولا ترضى ، وما زال الفتى قرمطياً ماضياً فى قرمطيته . وما زال
الفتى معتمداً فى فنه على المبالغة والطباق .

فلندع هذه القصيدة ، ولننتقل إلى قصيدة أخرى يظهر
أنها قيلت بعد هذه القصيدة بزمان ما ، ولكنها قيات حين
كان المتنبي متنقلاً في شمال الشام ، وهي هذه السينية التي
مدح بها الشاعر محمد بن زريق الطرسوسي والتي بذل فيها
الفتى كثيراً من الجهد وقال فيها كثيراً من الخطل . فلم ينل
عليها فيما يقول ياقوت^(١) إلا عشرة دراهم ، ثم شفع له شافع
فنال عشرة دراهم أخرى . وما أرى إلا أنه قد زاد في الشعر
حين زيد في العطاء . فقال الأبيات الدالية التي نجدتها في
الديوان والتي يمدح فيها ابن زريق أيضاً .

فاقرأ هذه الأبيات التي قدمها الشاعر بين يدي المدح لترى
التكلف في أبشع صوره ، والتعمّل في أشنع مظاهره ، واترى
كيف ينتهى الشاعر الفتى أحياناً من السخف إلى ما لا يطاق :

هَذِي بَرَزْتُ لَنَا فَهَجْتُ رَسِيْسَا

ثُمَّ ائْتَنَيْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيْسَا

وَجَعَلْتَ حَظِّي مِنْكَ حَظِّي فِي الْكَرَى

وَتَرَكْتَنِي لِلْفَرَقْدَيْنِ جَلِيْسَا

قَطَّعْتَ ذِيَّكَ الْخُمَارَ بِسَكْرَةٍ
وَأَدَّرْتَ مِنْ خَمْرِ الْفِرَاقِ كُؤُسًا
فالكلام إلى هنا فارغ ولكنه محتمل آخر الأمر ، فإذا
أردت سخر الأطفال . فانظر إلى قوله :

إِنْ كُنْتَ ظَاعِنَةً فَإِنَّ مَدَامِي
تَكْفِي مَزَادَكُمْ وَتُرْوِي الْعِيسَا
أترى إلى هذه الدموع التي يسفحها المتنبي ! فإذا هي من
الغزارة بحيث يستطيع القوم أن يأخذوا منها ما يملأ مزادهم
ليشربوا اثناء السفر ، وما يكفي لرى الابل اثناء السفر أيضاً .
ولكن المتنبي لم يسأل نفسه أتصلح دموعه لشرب
صاحبه الحسناء ؟ أم هي من العذوبة بحيث تلائم هذا الجسم
الغضَّ البضَّ ، وتبعث فيه الجمال والحياة ؟ على أن ظن المتنبي
بصاحبه ليس حسناً . فانظر إلى قوله :

حَاشَى لِمِثْلِكَ أَنْ تَكُونَ بِخَيْلَةٍ
وَلِمِثْلِ وَجْهِكَ أَنْ يَكُونَ عُبُوسًا
وَلِمِثْلِ وَصْلِكَ أَنْ يَكُونَ مُمْنَعًا
وَلِمِثْلِ نَيْلِكَ أَنْ يَكُونَ خَسِيسًا

ولست أدري بأى امرأة أراد المتنبي أن يشبب فى هذين البيتين ، وما أرى إلا أنه كان يشبب بمن لا يحسن التشبيب بها من النساء ؛ فالمرأة التى ترتفع عن البخل ، ويرتفع وصلها عن التمتع ، ليست خليقة بالشعر إلا حين يقصد إلى هجائها . ولكن المتنبي لا يقف عند مثل هذا التفكير ، بل لا يكره أن ينقض هذين البيتين . فيهدف صاحبه بالدل الذى يمنعها من أن تتكلم ، والخفر الذى يمنعها أن تميمس فيقول :

خَوْدُ جَنْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَوَازِلِي
حَرْبًا وَغَادَرَتِ الْفُؤَادَ وَطِيسَا
بَيْضَاءَ يَمْنَعُهَا تَكَلَّمَ دَلُّهَا
تَيْهًا وَيَمْنَعُهَا الْحَيَاءُ تَمِيسَا

فهى أرفع من البخل ، ووصلها أرفع من الامتناع ، ولكنها مع ذلك من الدل والتميه ، ومن الخفر والحياء بحيث لا تستطيع أن تتكلم ، ولا أن تميمس . فهى بخيلة كريمة ، وهى ممنعة مبتذلة ، وهى حمية وقحة . وقد وجد الشاعر عندها آخر الأمر دواءه من كل داء ، فأعرض عن الأطباء وهانت عليه صفات زعيمهم العظيم :

لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءً دَائِي عِنْدَهَا

هَانَتْ عَلَيَّ صِفَاتُ جَالِينُوسَا

ويظهر أن هذه الفتاة التي لا يكره المتنبي أن يرويها
بدموعه والتي جمعت النقائص من صفات النساء قد شغلت
فتانا حقا ، فأنسته التخلص إلى المدوح . وإذا هو يقتضب
الكلام اقتضاباً ، ويهجم على مدوحه هجوماً لا رفق فيه
ولا ظرف . فيقول :

أَبْقَى زُرَيْقٌ لِلشُّعُورِ مُحَمَّدًا

أَبْقَى نَفِيسٌ لِلنَّفِيسِ نَفِيسًا

فانظر إلى هذه النمنمة ، أو إلى هذه الفسفة ، أو إلى هذه
النسبة التي تأتي من تكرار النفيس ثلاث مرات في شطر
واحد ، واعذر محمد بن زريق إذا ضاق بصاحبه المتنبي أولاً ،
وبهذا التكرار ثانياً ، وبما سيأتي من السخف ثالثاً . فلم يعط
الفتى إلا عشرة دراهم ولم يزد إلا بعد أن شفع إليه الشافعون
وزاد المتنبي في المدح .

ولكن المهم من هذه القصيدة هي هذه الأبيات التي
تظهر المبالغة القرمطية فيها أبشع مظهر ، لا من الناحية الدينية

وحدها ، بل من الناحية الفنية أيضاً .
فالمبالغة حسنة في الشعر بشرط أن تكون معقولة يسيغها
الذوق . فإذا تجاوزت هذا الحد كانت سخفاً أو هجاء ،
وكان من حق المدوح أن يظن أن مادحه يسخر منه
ويستهزئ به ، ولسكن محمد بن زريق كان لحسن حظ المتنبي
أجهل من هذا كله فيما يقول الرواة .

بَشَرٌ تَصَوَّرَ غَايَةً فِي آيَةٍ
تَنْفَى الظُّنُونُ وَتُقْسِدُ التَّقْيِيسَا
وَبِهِ يُضَنُّ عَلَى الْبَرِيَّةِ لَا بِهَا

وعليه منها لا عايبا يُوسَى
لو كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ
لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ صِرْنَ شُمُوسَا
أو كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ سَيْفُهُ

فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ لِأَعْيَا عِيسَى
أو كَانَ لُجُّ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ
مَا انْشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى

أَوْ كَانَ لِلنِّيرانِ ضَوْءٌ جَمِينُهُ

عُبِدَتْ فَكَانَ الْعَالَمُونَ مَجُوسًا

وما أظن هذه الأبيات تحتاج إلى شرح أو تعليق
لنستخرج منها إغراق المتنبي في المبالغة وإسرافه في تجاوز
الحدود الدينية الذي جاءه من قرمطيته . وأحسبه حين مدح
ابن زريق قد ظن أنه كان يمدح أبا الفضل الكوفي ، ذلك
الذي جعله في صباه إلهاً يجل عن أن يرى في يقظة أو منام .
ويظهر أن آخر شعر المتنبي في شمال الشام ، أو من
آخره على أقل تقدير ، قصيدته الميمية التي مدح بها سيف
الدولة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة حين أوقع بعمر
ابن حابس وبنى ضبة في رأس العين كما يقول الديوان .
وبعض الناس يفترض أن المتنبي قد ذهب إلى أوساط
الشام ثم عاد إلى شمالها قبل الكارثة ، وفي زيارته الثانية
للشمال قال هذه القصيدة ، وليس في الديوان ولا فيما بين أيدينا
من أقوال الرواة ما يدل على أن الفتى بعد أن فارق شمال
الشام عاد إليه قبل خروجه من السجن .
وأنا أعتقد أنه قال هذه القصيدة في زيارته الأولى للشمال

السورى ، ولعله لما لم يستطع أن ينشدها للأمير الفتى ولم يظفر عليها بجائزة استيأس من الشمال حقاً ، وكان هذا اليأس باعثاً له على الأيغال فى الشام والانتقال من ملك العباسيين إلى ملك الأخشيديين . وكان سيف الدولة فى مثل سن المتنبي وُلد فى نفس السنة التى ولد فيها الشاعر ، وكان قد أظهر نجابة ونباهة شأن ، وأبلى فى هذه الموقعة بلاء حسناً ، فلا يبعد أن يكون المتنبي قد طمع فى أن يجد من التقرب إليه والاتصال به ما يرفع شأنه ويقرّبه من أمله البعيد . فلما لم يظفر من ذلك بما كان يرجو استبدل أرضاً بأرض ، وقوماً بقوم .

وكان المتنبي فى التاسعة عشرة من عمره حين قال هذه القصيدة . وقد قدمت لك أنه ينبئنا بأنه مدح الحسين بن إسحاق التنوخى ولم تجاوز سنه العشرين . وإذن فقد كان فى اللاذقية فى أواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وأثناء سنة اثنتين وعشرين ، ثم غاب عنها ، ثم رجع إليها فى نفس هذه السنة أو فى أوائل سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وهى السنة التى نكب فيها واضطر إلى السجن فيما نرى .

وليس في قصيدته لسيف الدولة شيء يستحق العناية
إلا هذا البيت الذي يدل على أن القتي كان في هذه القصيدة
كما كان في غيرها شديد التهاون في دينه ؛ يتحدث عنه في
غير عناية ، ولا رعاية ، ولا حرج :

إِنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَأَنْ

فَبَرِئْتُ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِسْلَامِ

٨

ويجب أن نمر مرأً سريعاً بمقطوعات ثلاث قالها المتنبي
في طرابلس بعد أن فارق شمال الشام ، وليس من اليسير أن
نعلم أقالها قبل أن يزور اللاذقية و يقيم بها . أم قالها بعد ذلك ؟
وأ كاد أرجح أنه استقر في اللاذقية أول الأمر ، وأطال الإقامة
فيها لما وجد من بر التنوخيين به وإصفائهم له بالمعروف .
ولهذه المودة التي نشأت بينه وبينهم ، فحملته على أن يكثر فيهم
ما قال من الشعر ، ولعلها بعثت في نفسه آمالاً إن لم يصرح
بها ، فقد أشار إليها كما ستري . ثم من اللاذقية أخذ ينتقل
في مدن الشام وبيئاتها المختلفة يميناً وشمالاً . فزار حمص
وبعلبك وطرابلس ، ولعله زار دمشق . و انتهى بعد ذلك إلى
طبرية فأقام فيها حيناً ، ثم لم يرض عن أهلها فعاد إلى اللاذقية
و إلى أصدقائه التنوخيين .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن المتنبي حين ترك شمال الشام
طرق أرضاً جديدة ، فيها سلطان سياسي جديد لم يعرفه

ولم يخضع له من قبل . فقد خضع في العراق للسلطان العباسي ،
وخضع في شمال الشام لسلطان مضطرب بين العباسيين
والأخشيديين الذين كانوا يغيرون عليه من حين إلى حين ،
ومضطرب كذلك لهذه الغارات التي كانت متصلة بين
المسلمين والروم على الحدود . ثم مضطرب آخر الأمر لهذا
الطموح الذي كان يملأ نفوس الأمراء المتفرقين في بادية
سوريا الشمالية وحاضرتها ، والذين كانوا يحكم هذا الطموح
ينزعون إلى السيادة والملك ، ويترددون بين السلطان العراقي
والمصري ملائمين بين منافعهم العاجلة المؤقتة وظروف أقاليمهم
المختلطة المضطربة .

ولم يجد المتنبي لنفسه أملاً ولا مطمئناً في هذا الإقليم
المضطرب الذي اشتدت به عناية السلطانين اللذين كانا
يتنازعان القوة في ذلك الوقت ؛ سلطان بغداد ، وسلطان
القسطنطينية ، والذي كانت تشغله غارات الروم ، والذي استيقظت
فيه الأثرة الفردية والمنافسات بين القبائل البادية من العدنانية
والقمحطانية . فترك هذا الإقليم وأبعد في السفر حتى انتهى إلى
ملك الأخشيديين فأقام فيه ما أقام . ثم انتهى إلى الكارثة .

والحق أن هذا الشعر القليل الذى قاله فى طرابلس ليس خليقاً بشيء من العناية ، لولا أمران اثنان : أحدهما أنه يدلنا على أن المتنبي كان فى طرابلس هادئاً مطمئن النفس ، فارغاً لصغائر الأمور التى لا يفرغ لها الإنسان ، إلا حين ترفه الظروف عليه بعض الشيء . وكأن شهرة المتنبي كانت قد بدأت تظهر وتشيع . فهو لا يأتى طرابلس كاسباً ملتمساً للرزق فيما يظهر ، وإنما يأتىها زائراً ويلقى من بعض أهلها ضيافة لا تخلو من عناية وبر وترف .

والأمر الثانى : أنا لا نجد المتنبي فى هذا الشعر الذى قاله فى طرابلس فارغاً لصغائر الأمور فحسب ؛ بل لصغائر الفن وسخفه أيضاً ، ولهذه التكاليف التى يخاطر بها الشعراء من أصحاب البديع ، ليظهروا براعتهم اللفظية ومهارتهم فى النظم .

ويكفى أن تقرأ هذين البيتين اللذين يتكاف فيهما المتنبي ويكلف سامعه وقارنه شططاً ، لأنه لا يزيد فيهما على نظم الألفاظ ، كما سيغلو فى نظم الأفعال بين يدي سيف الدولة بعد ذلك بزمان طويل :

دَانِ بَعِيدٍ مُحِبِّ مُبْغِضٍ بِهَجٍ
أَغْرَ حُلُوٍ مُرٍّ لَيْنٍ شَرِسٍ
نَدِ أَبِي غَرٍ وَافٍ أَخِي ثَقَّةٍ
جَعَدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسٍ

والظاهر هو أن أبا الطيب لما بلغ طرابلس مدح صاحبه
عبيد الله بن خلكان هذا بهذه السينية التي لا تغني شيئاً .
وكان الرجل أعجب بها فأحسن ضيافة الشاعر وأهدى إليه
طرفتين من هذه الطرف التي يظهر أن السوريين يحسنون
اصطناعها وإهداءها من قديم .

الأولى : هدية ، كما يقول الديوان ، فيها سمك من سكر
ولوز في عسل ، والثانية : جامعة فيها حلوى .

فأما الهدية الأولى فقد سحرت المتنبي وبهرته ، وإذا
هو يتغنى بمدح صاحبه ويقدمه على حاتم الطائي ، ويجعله مثلاً
حيّاً للكرم والجود ، ويقول في وصف هذه الهدية هذا
البيت الذي ما أشك في أنه أَرْضَى المتنبي ، وفتن عبيد الله
ابن خلكان :

أَقْلُ مَا فِي أَقْلَهَا سَمَكٌ

يَسْبَحُ فِي بَرَكَةٍ مِنَ الْعَسَلِ

وأما الأخرى فلم تكن أقل إرضاء للمتنبي من الأولى ،
ويظهر أن الفتى الكوفي كان (حلويا يحب الحلوى) فقد رد
الجماعة إلى صاحبها بعد أن كتب عليها بالزعفران هذه
الآيات :

أَقْصِرْ فَلَسْتُ بِزَائِدِي وَدَا

بَلَغَ الْمَدَى وَتَجَاوَزَ الْحَدَا

أَرْسَلْتَهَا مَمْلُوءَةً كَرَمًا

فَرَدَدْتُهَا مَمْلُوءَةً حَمْدًا

جَاءَتْكَ تَطْفَحُ وَهِيَ فَارِغَةٌ

مَشْنَى بِهِ وَتَظُنُّهَا فَرْدًا

تَأْتِي خَلَاتُكَ الَّتِي شَرُفَتْ

أَلَّا تَحِنَّ وَتَذْكُرَ الْعَهْدَا

لَوْ كُنْتَ عَصْرًا مُنْبِتًا زَهْرًا

كُنْتَ الرَّبِيعَ وَكَانَتِ الْوَرْدَا

فالشاعر كما ترى مطابق مبالغ حتى في وصف السكر
واللوز والعسل ، وفي الشكر على علة حلوى . ومن حق
المتنبى أن يستريح وأن يلهو بالصغائر ، ويرفقه بها على نفسه
من هذه الهموم الثقال التي يطوف بها في الآفاق ، ويفكر فيها
آناء الليل وأطراف النهار ، ولكن راحة المتنبى وفراغه ، ودعابة
المتنبى ومجونه ، كل ذلك لا يخلو من السخف وثقل الروح ،
كما ستري في غير هذا الموضع من الحديث . فلم يكن المتنبى
حلو الروح ولا خفيف الظل ، ولا جذابا ، وإنما كان مرأ
غليظ الذوق في أوقات الدعة والفراغ .

فلندعه غارقا في بركته العسلية ، أو عاطفا عليها يصطاد
سمك السكر واللوز ، ولنذهب إلى اللاذقية ، لننظر في شيء
من هذا الشعر الكثير الذي قاله هناك للتتوخييين .

وشعر المتنبي في التنوخيين كثير يعظم حظه من الجودة ،
وينتهي أحياناً إلى الروعة ، وفيه البشائر بنضج الشاعر ،
والطلائع المنبئة بنبوغته ، وفيه على ذلك ما يدل على أن حياته
مع التنوخيين قد أثارت في نفسه آمالاً وأمانى ، وخيلت إليه
أنه قريب من غايته . وكانت حياة راضية على كل حال .

وقد ذكر في شعره ثلاثة من التنوخيين :

فأما أولهما وهو محمد بن اسحاق التنوخى فلم يذكره
إلا راثياً له باكياً أو متباكياً ومبكياً عليه ، كأنه لم يعرفه ،
ولم تتصل المودة بينه وبينه ، وإنما مات قبل أن تطول
إقامة المتنبي في اللاذقية ، وقد رثاه بالرائية التي مطلعها :

إِنِّي لِأَعْلَمُ وَاللَّيْبُ خَبِيرُ

أَنَّ الْحَيَاةَ وَإِنْ حَرَصْتُ غُرُورُ

وهي قصيدة عادية لا خطر لها ولا غناء فيها ، ولكنها
أرضت أهل الميت فاستزادوه ، فزادهم على الوزن والقافية

هذه الأبيات التي يقول في أولها :

غاضت أنا مـلـه وهنَّ بحورُ

وخبت مسكائده وهنَّ سـعـيرُ

وكان أسـرة أخرى كانت تنافس التـنـوخيـن في اللـاذقـية ،
فأشاعت أن أبناء عم الميت لم يحزنوا عليه ، وأنهم قد شمتوا
بموته فـلجئوا إلى أبي الطيب يسألونه أن ينفى عنهم هذه الشـماتة ،
فقال على الوزن والقافية الأبيات التي أولها :

ألا لـ إبراهيم بعد محمدٍ

إلا حـنـينٌ دأبمُ وزفيرُ

وقد استزادوه في هذا المعنى كما استزادوه في الرثاء ،
وكأنه قد استنفد جهده في هذا الوزن وهذه القافية ، فعدل إلى
وزن آخر وقافية أخرى ، وقال هذه الأبيات التي لا أقف
منها إلا عند هذا البيت :

أليس عـجـيباً أن بين بني أبٍ

لـنجـلٍ يهوديٍّ تدبُّ العقاربُ

وإنما أقف عند هذا البيت لأضع بازائه بيتاً آخر قاله

في قصيدته التي استعطف بها والى حمص بعد أن سجن
وهو قوله :

فلا تَسْمَعَنَّ مِنْ الكَاشِحِينَ
ولا تُعْبَأَنَّ بِمَحَكِ الْيَهُودِ

فهل أشار المتنبي إلى رجل واحد في هذين البيتين ؟ ومن
عسى أن يكون هذا اليهودي ؟ وهل لصلة المتنبي بالتنوخيين
الذين كان ينافسهم هذا اليهودي أثر في السعاية به حتى ألقى
في السجن ، أو أثر في النكاية به حتى طالت إقامته في السجن ،
وما بال المتنبي بعد أن خرج من سجنه لم يعد إلى أصدقائه
التنوخيين ، ولم يذكرهم في شعره ، وهل بين هذا اليهودي
الذي يذكره المتنبي في هذين البيتين ، واليهودي الذي كان
يحكم دمشق حين لجأ إليها المتنبي بعد أن فارق سيف الدولة
صلة . أم هل هو رجل واحد ؟

كل هذه مسائل خليقة بالتفكير والعناية ، لولا أن
النصوص التي بين أيدينا لا تعيننا على أن نجد لها جواباً مقنعاً .
فلنحتفظ بها فقد تنفعنا بعد حين .

وقد مدح المتنبي رجلين من التنوخيين أحدهما الحسين

ابن اسحاق التنوخي ومدحه بقصائد ثلاث مطلع أولها
قوله :

هوَ البَيْنُ حتى ما تَأْنَى الحَزَائِقُ
ويا قَلْبُ حتى أَنْتَ مِمَّنْ أُفَارِقُ
ومطلع الثانية :

أَتُنْكَرُ يا ابْنَ إِسْحَاقٍ إِخَائِي
وَتَحْسِبُ ماءً غَيْرِي مِنْ إِيَّائِي
وهي التي ذكر فيها سنَّه ، وكأنه أرسلها إلى مدوحه
من بعيد . وأقل ما تصور هذه القصيدة أن أمر الشاب قد
عظم فأصبح له حساد ومنافسون ، وأن الشاعر قد وثق بنفسه
واطمان إلى فحولته .

ومطلع الثالثة قوله :

مَلَامُ النَوَى فِي ظُلُمِهَا غَايَةُ الظُّلَمِ
لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الَّذِي بِي مِنَ السُّقَمِ

ومدح عليّ بن ابراهيم بن اسحاق التنوخي بثلاث
قصائد أيضاً يقول في أولها :

أَحَادُ أَمْ سُـدَّاسُ فِي أَحَادٍ
لِيَيْلَتُنَا الْمُنْـوِطَةُ بِالتَّنَادِي

ويقول في الثانية :

مِلْتُ الْقَطْرَ أَعْطَشَهَا رُبُوعَا
وَالَا فَاسُقِهَا الشَّمَّ النَّقِيعَا

ويتول في الثالثة :

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهِمَمُ
أَحَدْتُ شَيْءَ عَهْدٍ بِهَا الْقِدَمُ

وقد قال هذه القصيدة بعد عودته من طبرية ، وكان
مودعة خاصة كانت تجمع بينه وبين ممدوحه هذا . فقد كانت
بينهما منادمة يصورها الشاعر في مقطوعتين لم نحفل بهما
لقلة خطرهما .

ولا بد من الوقوف عند بعض هذا الشعر لتبيين مقدار
نضج الشاعر في فنه من جهة ومقدار دنوّه من الثورة
والانفجار من جهة أخرى .

ولندع شعره في الحسين بن اسحاق التنوخي لا لأنه

أهون من أن نقف عنده ، ولا لأنه يشبه ما قال المتنبي من
 «الشعر قبل وصوله إلى اللاذقية ؛ فإن مدحه للحسين بن اسحاق
 يمتاز بأشياء ، يخيل إلى أنها طريفة مستحدثة ، وإن كنا نلمح
 أصولها في الشعر السابق ، ولكنها في هذا الشعر كثيرة شائقة
 توشتك أن تكون القوام الغني له ، وهذه الخصال هي جزالة
 اللفظ ورصانته ، وصحة المعنى واستقامته ، واعتدال الأسلوب
 وحسن انسجامه . إلا أبياتاً يضطرب فيها الشاعر هنا وهناك
 في اللفظ وحده أو في المعنى وحده ، أو في اللفظ والمعنى جميعاً .
 وأنت واجد لذلك نماذج في ميميته التي يمدح بها الحسين ،
 ولا سيما القسم الأخير منها ، وأنت واجد في هذا الشعر كله
 إثارة ظاهرة للغة البادية ، واختياراً ظاهراً للألفاظ الضخمة
 التي تملأ الفم والأذن جميعاً ، ولا سيما في القافية التي يمدح بها
 الحسين .

وأنا مع ذلك أدع هذه القصائد الثلاث ، لأنني أكاد أعتقد
 أن المتنبي كان أشد ميلاً إلى علي بن ابراهيم وأصدق له حباً
 وأعظم به ثقة ، وهو من أجل ذلك صادق للهجة حين يتحدث
 إليه ، لا يكاد يخفي عليه ميوله وأهواءه ، وكأنه كان ينتظر

منه معونة وإمداداً ، ومهما يكن من شيء فلست أستبعد أن يكون هؤلاء التتوخيون ، وعلى منهم خاصة ، قد شجعوا المتنبي سرا على ما كان يحاول من الوثوب . وآية ذلك عندى أنه لم يعد إليهم بعد النكبة ، ولم يذكرهم في شعره ، إما إشفاقاً عليهم وإما لأنهم هم أنفسهم قد أشفقوا منه وخافوه .

واقراً معى داليتة التى يمدح بها على بن الحسين ولا تطل الوقوف عند مطلعها الغامض البغيض الذى أنكره القدماء ورأوا فيه إلغازاً وخطأً فى الحساب وبعداً عن الشعر^(١) .

أُحَادٌ أَمْ سُودَاسٌ فِي أُحَادٍ

لِيَيْلَتَنَا الْعُنْـوَطَةُ بِالتَّنَادِي^(٢)

لا تقف عند هذا البيت السخيف الذى تجد مثله كثيراً فى أجمل شعر المتنبي وأروعاه ، بل تجاوزه إلى ما قاله الشاعر

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٧٨ (طبع العرفان بصيدا) ،
ويثيمة الدهر للشعالى ج ١ ص ١٢٤ (طبع اسماعيل الصاوى)

(٢) انظر : Massignon. Mutanabbi devant le siècle :
Ismaëlien de l'Islam. في Mémoires de l'Institut Français de
Damas. Beyrouth 1936.

فانه يفسر هذا البيت بالبيت الذى يليه ويجعل العدد رمزاً لبنات نعش
وهو رأى أقل ما يوصف به أنه طريف .

بعده ، فسترى أنك لا تقرأ لفتى ناشئ يعالج الفن على غير
علم به ولا قدرة عليه ، وإنما أنت بازاء شاعر ناضج قد تمت
له أداة الشعر واستكمل حظه من القدرة على تصريف
المعاني والألفاظ . وأنت كذلك بازاء شاعر قد نفذ صبره
أو كاد . قد سئم السكون ورغب في الحركة ، وقد ضاق
بالهدوء وتحرق إلى الثورة ، وقد عجز حتى عن أن يخفى سره ،
فهو يبأدى الناس به في غير تحفظ ، ولا تحرج ، ولا حذر :

كَأَنَّ بَنَاتِ نَعَشٍ فِي دُجَاهَا
خَرَائِدُ سَافِرَاتٍ فِي حِدَادِ

فما رأيك في هذا التشبيه الرائع البديع الذي يخلبك
بلفظه ومعناه . ولكن الشاعر ليس فارغ البال ليصف رهبة
الليل ، وجمال النجوم ، وإنما هو مثقل بهيمومه ، معجل عن
التفكير في جمال الطبيعة ، وعن تصوير هذا الجمال ، إلى التفكير
في معاقرة المنايا .

أَفَكَّرُ فِي مُعَاقَرَةِ الْمَنَايَا
وَقَوَدِ الْخَيْلَ مُشْرِفَةً الْهَوَادِي

زَعِيمٌ لِّلْقَنَاسِ الْخَطِيئِ عَزَمِي
بِسَفْكَ دَمِ الْخَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي
إِلَى كَمْ ذَا التَّخَلُّفُ وَالتَّوَانِي
وَكَمْ هَذَا التَّمَادِي فِي التَّمَادِي
وَشَغْلُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ الْمَعَالِي
بِبَيْعِ الشَّعْرِ فِي سُوقِ الْكَسَادِ
وَمَا مَاضِي الشَّابَابِ بِمُسْتَرْدِّ
وَلَا يَوْمٌ يَمُرُّ بِمُسْتَعَادِ
مَتَى لَحِظْتُ بِيَاضَ الشَّيْبِ عَيْنِي
فَقَدْ وَجَدْتُهُ مِنْهَا فِي السَّوَادِ
مَتَى مَا ازْدَدْتُ مِنْ بَعْدِ التَّنَاهِي

فَقَدْ وَقَعَ انْتِقَاصِي فِي ازْدِيَادِي
فهذا الشعر يعرب عن نفسه ، ويعان إلى قارئه أو سامعه
ما فيه من جمال وروعة ، وما فيه من قوة وحزم ، وما فيه
من تحرق إلى الخروج من هذه الحال التي ضاق بها الشاعر
أشد الضيق ، كما أنه يعلن إلى قارئه أو سامعه أن عقل

صاحبه قد نضج وبلغ أشده ، وأصبح قادراً لا على التفكير
المستقيم فحسب ، بل على استخراج المعانى الدقيقة وتصويرها
فى أبرع اللفظ وأرقاه .

ولا أمضى فى تحليل ما يأتى بعد ذلك من المدح ،
وإن كان خليقاً بالعناية والتحليل ، وإنما أدع هذه القصيدة
لأنتقل إلى قصيدة أخرى هى عندى أروع ما قال الشاعر
فى المديح أثناء هذا الطور .

هى أروع هذا الشعر ، لأنها جمعت إلى الخصال التى
لاحظت أن الشاعر قد استكملها فى شعره الذى قاله فى
الملاذقية ، خصلتين خليقتين بالتفكير :

إحداها سياسية ؛ فقد صرح لنا الشاعر فى هذه القصيدة
بمذهبه السياسى . فإذا هو أعم وأشمل من القرمطية أو التشيع ،
وإذا القرمطية أو التشيع عند المتنبى وسيلة إلى تحقيق هذا
المذهب السياسى الخطير : وهو أن تجتمع كلمة العرب وأن يعود
إليهم ملكهم وسلطانهم ، وأن يرد غير العرب من الخدم
والرقيق إلى طورهم الذى كانوا فيه حين كان الملك عربياً صحيحاً .
والمتنبى فى هذه القصيدة يذكرنا بشاعر قرشى قديم

اشترك في الفتن الإسلامية ، وجاهد مع الزبيريين حتى انهزموا
ثم استخفى دهرأ ، ثم انتهى أمره إلى الاستئمان والاذعان
لبنى أمية ، وهو عبید الله بن قيس الرقيات الذي لم يكن يعنيه
من هذه الفتن التي اصطلت نارها إلا أن تجتمع كلمة قريش ،
وأن يعود إليها ملكها قويا متينا . ولذلك لم يأنف أن يثوب
إلى بني أمية ، وأن يمدحهم وينعم بجوار أمير من أمرائهم ،
هو عبد العزيز بن مروان . كذلك المتنبي جاهد بلسانه
وعرض نفسه للخطر . وعلله جاهد بسيفه ونفسه ، ثم انتهى
أمره إلى السجن . فلما خرج منه أنفق بعض الدهر مشرداً
بائساً ، ثم لم يلبث أن تعزى عن هذا كله حين خيل إليه أنه
وجد أميراً عربياً يحبي الأمل ، ويرد إلى النفوس شيئاً من
الرضى والثقة .

واقراً هذه الأبيات التي تصور هذا المذهب السياسي

المتنبي أجمل تصوير :

✱ أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهَمَمُ

أَحْدَثُ شَيْءٍ عَهْدًا بِهَا الْقَدَمُ

م. بحار
١٤٠٥

وإنما الناس بالملوك وما
تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ
لا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ ولا حَسَبٌ
ولا عُهودٌ لَهُمْ ولا ذِمَمٌ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطَنُهَا أُمَمٌ
تُرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمٌ
يَسْتَخْشِنُ الْخَزْءَ حِينَ يَلْمِسُهُ
وكان يُبْرِى بِظُفْرِهِ الْقَلَمَ

وقد قال المتنبي هذه القصيدة بعد أن ذهب إلى طبرية
فأقام فيها ، ثم سخط فعاد إلى اللاذقية ، وسخطه ظاهر في
هذه الأبيات .

ولكن إقامة أبي الطيب في طبرية قد كشفت
عن ناحية من نواحي ملكته الشعرية ، لم تظهر واضحة في
شعره السابق ، وهي قدرته على الوصف وبراعته في تصوير
الطبيعة .

وانظر إلى هذه الأبيات الرائعة التي يصف بها البحيرة :

لولاكَ لم أَتْرِكِ الْبَحِيرَةَ وَالْ
غَوْرُ دَفِيٍّ وَمَاوُهَا شَشِيمٌ
وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفُحُولِ مُزْبَدَةٌ
تَهْدِرُ فِيهَا وَمَا بِهَا قَطْمٌ
وَالطَّيْرُ فَوْقَ الْحَبَابِ تَحْسِبُهَا
فُرْسَانٌ بُلُقٌ تَخُونُهَا اللَّجْمُ
كَأَنَّهَا وَالرِّيحُ تَضْرِبُهَا
جَيْشًا وَغَى : هَا زِمٌ وَمُنْهَزِمٌ
كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرٌ
حَفَّ بِهِ مِنْ جِنَانِهَا ظَلَمٌ
نَاعِمَةٌ الْجِسْمُ لِأَعْظَامِهَا
لَهَا بَنَاتٌ وَمَا لَهَا رَحِمٌ
يُبْقَرُ عَنْهُنَّ بَطْنُهَا أَبَدًا
وَمَا تَشْكِي وَمَا يَسِيلُ دَمٌ
تَغْنَّتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا
وَجَادَتِ الْأَرْضَ حَوْلَهَا الدَّيْمُ

فَهْيَ كَاوِيَّةٌ مُطَوَّقَةٌ

جُرِّدَ عَنْهَا غِشَاؤُهَا الْأَدَمُ

يَشِينُهَا جَرِيئُهَا عَلَى بَلَدٍ

تَشِينُهُ الْأَدْعِيَاءُ وَالْقَزَمُ

كان المتنبي وهو يقول هذا الشعر الناضج قد أتم العشرين من عمره ، وأتم في الوقت نفسه نضجه الفنى ونضج عواطفه الثائرة التى ستدفعه إلى الكارثة بعد قليل . وأنت قد لاحظت اضطراب نفسه ، فى كل ما قال من الشعر للتنوخيين ولاحظت أن مقامه فى طهرية بعد عشرته لهؤلاء العرب فى اللاذقية قد انتهى بهذا الرجل ، الذى كان يغلى فى صدره إلى الانفجار .

فلنترك هذا الفتى الشاعر الذى كان يعدو فى التفوق والنبوغ عدواً ، ولنعد إلى الفتى الثائر فنستعرض ما قال من الشعر الحاد العنيف الذى انتهى به إلى السجن فى حمص .

ففتح حين نقرأ القسم الأول من ديوان المتنبي قراءة ممعن
مفكر ، مضطرون إلى أن نلاحظ أن المتنبي ، صبيا وشابا كان
يحيا لونين من الحياة مختلفين أشد الاختلاف في أول الأمر .
ثم غلب أحدهما على الآخر فامتزجا وانتهيا بالفنى إلى سجنه .
فأما اللون الأول من حياته ، فهو هذا الذى رأيت فى
أكثر ما قدمت إليك من هذا الحديث . هو حياة الشاعر
العادى الذى يسلك سبيل أبى تمام والبحترى ، وغيرها من
الشعراء المعروفين . وهى سبيل قوامها طلب الرق الفنى ، واتخاذ
الفن وسيلة إلى الغنى والثروة ، وإلى ارتفاع المكانة والاستمتاع
باللذات ، فقد سلك أبو الطيب هذه السبيل كما سلكها غيره .
فقال الشعر فى صباه ناسبا وهاجيا ومادحا . قاله للتمرين والتعلم
فى أول الأمر . ثم قاله للكسب والارتزاق والتماس الشهرة
بعد ذلك .

وقد رأيت كيف سلك طريقه هذه فى سرعة ما ، ولكننا

على كل حال ليست سرعة فذة ولا ممتازة ، فقد نبغ الشعراء
الفحول من القدماء والمحدثين في مثل السن التي نبغ فيها ،
بل في مثل هذه السن التي كان يحاول فيها التفوق والامتياز .

وأما اللون الثاني لحياة المتنبي فهو هذا اللون الأحمر القاني ،
لون الثورة الدامية أو الغارقة في الدم . وقد أحسست من
كل ما قدمت في هذا الحديث أن فتانا قد عرف السخط
منذ عرف نفسه ، واستطاع أن يفكر في أمره شيئاً .

فهو قد شك في أمر أسرته وسأل نفسه ، ولعله سأل جدته
عن أمه وأبيه . وهو قد أنكر من أمر هذه الأسرة أموراً
لم ينبئنا بها ، بل اجتهد في إخفائها علينا . وكان يظهر الضجر
والضيق والغیظ إذا أحس أن المعاصرين له كانوا يعرفون
منها قليلاً أو كثيراً . وهو في الوقت نفسه قد نشأ في بيئة
شيوعية ساخطة تنتظر الفرج . واتصل ببيئة قرمطية هادمة
للأصول المعنوية والمادية لنظام الاجتماع ، وهو قد تأثر بهاتين
البيئتين ، فكان في حياته الظاهرة شيعة علوياً ما أقام في
العراق . وكان قوله للشعر وتأثره بما يتأثر به الشعراء ، ربما
نمَّ على دخیلة نفسه ، فأظهر قرمطيته العقلية في مدحه

لأبي الفضل الكوفي [وأظهر قرمطيته العملية في هذه
الآبيات الثلاثة التي قدمتها لك :

إِلَى أَيْ حِينَ أَنْتَ فِي زِيٍّ مُحَرِّمٍ
وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ وَآلِي كَمْ
وَالْأَتَمَّتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّمًا
تَمَّتْ وَتُقَاسِ الذِّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمٍ
فَشِبَّ وَاثِقًا بِاللَّهِ وَثْبَةً مَاجِدٍ

يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النُّحْلِ فِي الْفَمِ

وقد رأيت أن جلاء القرامطة عن الكوفة وانهمزامهم عن
العراق ، وارتدادهم إلى البحرين قد حمل الغلام على أن يجلو
هو أيضاً عن الكوفة لا إلى البحرين ، بل إلى الشام بعد
أن مر ببغداد مروراً يسيراً . وأنا أعتقد أن الفتى أخفى
قرمطيته بعد انهزام القرامطة [واعتقد كما قدمت أنه ذهب
إلى الشام مغامراً ، وداعياً إلى المذهب القرمطي .

(*) ولكنّه تعلم الحذر والاحتياط . ومنذ وصوله إلى الشام

يظهر انقسام نفسه بين هذين النوعين من الحياة : حياة خارجية

يجارى فيها الناس ويداريهم ، وحياة داخلية يبغض فيها الناس
أشد البغض ، ويمقتهم أشنع المقت ، ويضمر لهم ضغينة
لا حد لها ، وعداء لا هوادة فيه .

وكان المتنبي إذا ألمَّ بقوم من أهل البادية أو الحاضرة
لم يظهرهم من دخيلة نفسه على شيء ، ولكنه مع ذلك ربما
أنس من بعضهم ما يبعث في نفسه شيئاً من الأمل فيأصح
لهم تلميحاً شديداً الغموض ببعض أمره ورأيه . ثم يرى من
فتورهم أو قصورهم ما يرده إلى التحفظ والكتمان ، كالذى
رأيت في تلميح له لبعض الكلابيين بهاتين المقطوعتين :

إِذَا مَا شَرِبْتَ الْخَمَّ صَرَفًا مُهْنًا

شَرِبْنَا الَّذِي مِنْ مِثْلِهِ شَرِبَ الْكَرْمُ

أَلَا حَبْدًا قَوْمٌ نَدَامَاهُمُ الْقَنَـ

يُسْقَوْنَهَا رِيًّا وَسَاقِيَهُمُ الْعَزْمُ

لَا حَبَّتِي أَنْ يَمْلَأُوا

بِالصَّافِيَاتِ الْكَوْبَا

وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا
وَعَلَى أَنْ لَا أَشْرَبَا

حَتَّى تَكُونَ الْبَاتِرَا
تُ الْمُسِمِعَاتِ فَأَطْرَبَا

[وكان المتنبي مبغضاً للخمر أشد البغض ، ممتنعاً عنها أشد
الامتناع ؛ يرى أن الإقبال عليها فضلاً عن معاقبتها لا يلائم
ما يملأ نفسه من الأمل والجد — ويظهر هذا في هاتين
المقطوعتين . ويظهر في مقطوعة أخرى قالها لصديق له يعرف
بأبي ضبيس وهي :

أَلَدُّ مِنْ الْمُدَامِ الْخَنْدَرِيسِ
وَأَحْلَى مِنْ مُعَاطَةِ الْكُوُوسِ]

مُعَاطَةُ الصَّفَاحِ وَالْعَوَالِي
وَإِقْحَامِي خَمِيْسًا فِي خَمِيْسِ

فَمَوْتِي فِي الْوَعْيِ عَيْشِي لِأَنِّي
رَأَيْتُ الْعَيْشَ فِي أَرْبِ النُّفُوسِ

ولو سَقَّيْتُهَا بِيَدَيَّ نَدِيمٍ
أُسْرُ بِهِ لَكَانَ أَبَا ضَبِيسٍ

ويظهر كذلك في مقطوعتين أخريين قالهما لعل بن
إبراهيم التنوخي يقول في أولاهما :

إِذَا مَا السَّكَّاسُ أَرْعَشَتِ الْيَدَيْنِ
صَحَوْتُ فَلَمْ تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنِي

ويقول في الثانية :

مَرَّتْكَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ صَافِيَةُ الْخَمْرِ
وَهَنَّتْهَا مِنْ شَارِبِ مُسْكِرِ السُّكْرِ

[وقد احتفظ المتنبي بإعراضه عن الخمر واقتصاده في اللذات
حياته كلها . لم يخرج عن هذا التحرج إلا كارهاً ، كالذي
كان بينه وبين صديق له حلف عليه بالطلاق ليشر بن ،
فشرب وقال :

وَأَخِرْ لَنَا بَعَثَ الطَّلَاقَ أَلِيَّةً
لَا عَلَلَنَّ بِهِ الْخُرُطُومَ

فَجَعَلْتُ رَدِّي عِرْسَهُ كَفَّارَةً

مِنْ شُرُوبِهَا وَشَرِبْتُ غَيْرَ أَثِيمٍ

(كان المتنبي إذن يلح برأيه ولا يصرح به ما أقام في شمال الشام ، وربما ظهرت آراؤه في مدحه من حين إلى حين ، ولكنه فيما بينه وبين نفسه كان يستثمر هذه الآراء ويقويها وينضجها ، وكانت الحياة نفسها تعينه على ذلك وتدفعه إليه دفعاً) فهذا الاضطراب الداخلي في هذا الاقليم ، وهذه الأثرة التي تملأ نفوس الناس ولا سيما السادة والأشراف ، وهذا التنافس بين العباسيين والإخشيديين ، وهذا البخل الأسود الذي كان يلقاه كلما مدح أميراً أو شريعاً أو رجلاً من أوساط الناس . كل ذلك كان يصور له الحياة سوءاً كلها ، ويصور له تفوقه وامتيازه ، وارتفاع نفسه عن نفوس هؤلاء الطغام .

فلما انتهى الأمر به إلى مدح علي الحمداني ، وكان لذة له ، ومكافئاً له في السن ، ولم يبلغ منه شيئاً . امتلأت نفسه ضغناً وحفيظة ، ولعله سأل نفسه في هذا الوقت ما بال هذا الفتى الحدث يعظم شأنه ، ويرتفع أمره ، ويقود الجند ،

ويغير على البادية والحاضرة . وأنا في هذه الحال من الخمول
والضعة . لا أكاد أبلغ ما أقيم به أودى ، مع أنى أبذل في
ذلك الجهد العنيف ، وما هو أقوم من الجهد العنيف ، فأمدح
من أزدري ، وأثنى على من أبغض ، وأدعو بطول البقاء
وتأييد الملك لمن لو استطعت لسحقته سحقاً .

ولعل أبا سعيد الجيمري لأمه في نحو هذا الوقت ، وحته
على أن يرحل بشعره إلى الملوك والأمراء وأشرف الناس .
فلم يستطع أن يكتم ما كان يملأ نفسه من الضغن والحفيظة .
فأجاب صاحبه بهذا الرجز المر الملتهب ، لأنه يصور نفساً
مرة ملتعبة :

أبا سَعِيدٍ جَنَّبِ الْعَتَابَا

فَرُبَّ رَأٍ خَطَأً صَوَابَا

فَانَّهُمْ قَدْ أَكْثَرُوا الْحُجَّابَا

وَاسْتَوْقَفُوا لِرَدَّنَا الْبَوَابَا

وَإِنَّ حَدَّ الصَّارِمِ الْقِرْضَابَا

وَالذَابِلَاتِ السُّمَرِ وَالْعِرَابَا

تَرْفَعُ فِيمَا بَيْنَنَا الْحِجَابَا

وعلى كل حال فقد ترك شمال الشام يائساً منه ومن أهله ، والتمس في ملك الأخشيديين ما أعياه في ملك العباسيين . وليس من شك في أن مقامه في اللاذقية قد قوى نفسه ، وبعث في أمله حياة منعه من أن يبلغ من الحذر والاحتياط ما كان يبلغه من قبل .

وأنا أرجح أن هؤلاء التنوخيين الذين اتصل بهم كانوا يشعرون بعريبتهم ، وكانوا يرضون إن آل إليهم شيء من الحكم أو الجاه ، ويسخطون إن زال عنهم ذلك وانتقل إلى منافسيهم الذين أشرنا إليهم في الفصل السابق . وكانوا من غير شك يتحدثون بما يشعرون به من رضى أو سخط ، وكان المتنبي يسمع منهم ويحفظ عنهم ، ولعله تحدث إليهم ملمحاً أول الأمر ، ثم كاشفاً بعض الحجب عن نيته ، ثم راجعاً إلى الاحتياط . ولكن رحلته إلى طبرية قضت على كل حذر ، وأزالت عن نيته كل ستار ، فعاد إلى اللاذقية هائجاً مأججاً ، وثائراً مضطرباً ؛ لأنه رأى من أمر الأخشيديين وعمالهم ما أحفظه ، وظهر ذلك في ميميته التي تحدثنا عنها في الفصل السابق ظهوراً لا يحتمل شكاً ولا جدالاً .

ومن يدري ؟ لعل هؤلاء التنوخيين ، ولعل أحدهم
على بن إبراهيم خاصة ، قد أظهروا رضى عن ثورة المتنبي
وتشجيعاً لها في أحاديثهم أو في صنيعهم مع المتنبي .
ولكن المحقق ما ينبئنا به الديوان من أن بعض الناس
أشفقوا على الشاب من هذه الصراحة التى ظهرت فى مدحه
للتنوخيين ، ومن هذه الأحاديث الملتبسة التى كان يلقيها
من هنا وهناك فى غير تحفظ . ومن هؤلاء أبو عبد الله
معاذ بن إسماعيل الذى نصح للمتنبي — فيما يظهر — بالحدز
والاحتياط ، فلم يسمع له وإنما أجابه بهذه الأبيات :

أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِلَهِ مُعَاذُ إِنِّي

خَفِيٌّ عَنْكَ فِي الْهَيْجَا مَقَامِي

ذَكَرْتَ جَسِيمَ مَا طَلَبِي وَإِنَّا

نُخَاطِرُ فِيهِ بِالْمُهْجِ الْجَسَامِ

أَمْثَلِي تَأْخُذُ النَّكَبَاتُ مِنْهُ

وَيَجْزَعُ مِنْ مُلَاقَاةِ الْحِمَامِ

وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَى شَخْصًا

لَخَضَبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي

وما بلغتْ مَشِيَّتَهَا اللَّيَالِي

ولا سارتْ وفي يَدِهَا زِمَامِي

إذا أُمْتَلَأَتْ عُيُونُ الْخَيْلِ مِنِّي

فَوَيْلٌ فِي التَّيَقُّظِ وَالْمَنَامِ

— في اللاذقية عرف المتنبي حسد الحساد وكيد الكائدين ،
فقد ارتفع شأنه الفنى ، واستبق الناس إلى تضييفه وإشاره
بالخير أو إيثار أنفسهم بمدحه ، ولقى من أمن الحياة ولينها
ما لم يلق في شمال الشام .

قد ظهر المنافسون له ورأيت أن قومًا نافسوه عند
التنوخيين ، وأن منهم من لم يتردد في أن يصنع هجاء للحسين
ابن إسحاق التنوخى ، ويضيفه إلى المتنبي في غيبته ، ويضطر
المتنبي إلى أن يدافع عن نفسه عند الحسين .

— وفي اللاذقية وجد المتنبي لذة المودة وصداقة الأصدقاء :

فهذا معاذ بن إسماعيل يشفق عليه وينصح له بالحر . وهذا
على بن إبراهيم التنوخى يمنحه وده ، ولا يتمنى إلا أن يختص
به نفسه ويتخذة نديمًا . ولكن آماله أبعد من هذا كله .

وقد أخذ الناس يلهجون به ويتهمونه في نسبه وفي
رأيه . فقال هذه الآيات التي أظنها قليلاً من كثير قد
حذف :

أنا عَيْنُ الْمُسَوِّدِ الْجَحْجَاحِ

هَيَّجْتَنِي كِلَابُكُمْ بِالنَّبَاحِ

أَيَكُونُ الْهَجَانُ غَيْرَ هِجَانٍ

أَمْ يَكُونُ الصُّرَاحُ غَيْرَ صُرَاحٍ

جَهْلُونِي وَإِنْ عَمَرْتُ قَلِيلاً

نَسَبْتَنِي لَهُمْ رُءُوسُ الرِّمَاحِ

وكان أعداء المتنبي وحساده قد مضوا في النعي عليه .
وألحوا في التشهير به ، وظلوا يستحرقونه ، فدفعوه بذلك إلى
الثورة دفعاً . تدل على هذا لاميته التي أولها :

قِفَا تَرَيَا وَدَقِي فَهَاتَا الْمَخَايِلُ

وَلَا تَخْشَيَا خُلَفَا لِمَا أَنَا قَائِلُ

والتي يقول فيها :

تُحَقَّرُ عِنْدِي هِمَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ
وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي الْمَدَى الْمُتَطَاوِلُ
وَمَا زِلْتُ طَوْدًا لَا تَزُولُ مَنَاكِبِي
إِلَى أَنْ بَدَتْ لِلضَّيْمِ فِي زَلَايِلُ
فَقَلَقْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَلَ الْحَشَا
قَلَا قَلَّ عَيْسٍ كُلُّهُنَّ قَلَا قَلَّ
إِذَا اللَّيْلُ وَارَانَا أَرْتَنَا خِفَافُهَا
بِقَدْحِ الْحَصَى مَا لَا تُرِينَا الْمَشَاعِلُ
فَهُوَ إِذْنٌ قَدْ ارْتَحَلَ عَنِ اللَّاذِقِيَّةِ ، مَغَاضِبًا فِيمَا أُظُنُّ ، مَنْذِرًا
بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ الْخَطَرَةَ :
أَلَا لَيْسَتْ الْحَاجَاتُ إِلَّا نُفُوسَكُمُ
وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا السُّيُوفُ وَسَائِلُ
فَمَا وَرَدَتْ رُوحَ امْرِئٍ رُوحُهُ لَهُ
وَلَا صَدَرَتْ عَنْ بَاخِلٍ وَهُوَ بَاخِلُ
غَثَاثَةُ عَيْشِي أَنْ تَغَثَّ كَرَامَتِي
وَلَيْسَ بَغَثٍ أَنْ تَغَثَّ الْمَا كُلُّ

وكان المتنبي كما رأيت شاباً قوياً الحس ، دقيق الشعور ،
عنيف الطبع ، حاد المزاج ، فجعل فيما أعتقد كلما ألح خصومه
في الغض منه والنعي عليه ، ازداد عنفاً وحدة ، وتصريحاً بما
كان يخفي من أمره ورأيه ، حتى قال من الشعر ما أخاف منه
السلطان ، ولا سيما إذا كان هذا الشعر قد روى وتناقله الناس ،
ووقع في نفوس هؤلاء العرب المتحضرين والأعراب البادين
موقع النار من الهشيم كما كان ذلك منتظراً . ويكفي أن تقرأ
داليتة التي يقول في أولها :

كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قُتِلْتُ شَهِيدٍ

لَبِيَّاضِ الطَّلَى وَوَزْدِ الْخُدُودِ

لترى أنها كافية لتعرض الشاعر لأشد الأخطار . فالشاعر
فيها ثمل قد أسكره الغضب وملكته عليه الحفيظة أمره ، فلم
يستمع إلا لشیطانه ولم ينطق إلا عنه . ولم يكن شیطانه أقل
منه سكران ولا انتشاء . فهو في القسم الأول من القصيدة نشوان
يتغنى صباه ووطنه ، ويستعيد أيامه الأولى ، ولا يتردد أن
يندفع إلى هذا البيت يقوله في وصف الحسان الكوفيات :

يَتَرَشَفْنَ مِنْ فِي رَشَفَاتٍ
هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنْ التَّوْحِيدِ

ثم يمضي حتى يقول :
ما مُقَامِي بِأَرْضِ نَحْلَةٍ ^(١) إِلَّا

كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ
ثم يصف نفسه الطامحة وأمله البعيد ، وجده في تحقيق هذا
الأمل ، ويعرض بخصومه في هذا البيت تعريضا شنيعا :
بِسَرِيٍّ لِبَاسُهُ خَشِنُ الْقُطْ

نِ وَمَرْوِيٌّ مَرَّوٍ لِبَسُ الْقُرُودِ
ثم يقول :

عِشْ عَزِيزًا أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ
بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ
فَرُّهُوسُ الرِّمَاحِ أَذْهَبُ لِلْغَيْهِ
ظِ وَأَشْفَى لِغِلِّ صَدْرِ الْحَقُودِ
لَا كَمَا قَدْ حَيَّيْتَ غَيْرَ حَمِيدِ
وَإِذَا مُتَّ مُتَّ غَيْرَ فَقِيدِ

(١) نَحْلَةٌ بِالْحَاءِ . راجع معجم البلدان لياقوت

فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظَى وَذَرِ الدُّ
لَّ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَّاتِ الْخُلُودِ
يُقْتَلُ الْعَاجِزُ الْجَبَّانُ وَقَدْ يَمُوتُ
جِزْءٌ عَنْ قَطْعِ بَخْنُقِ الْمَوْلُودِ
وَيُوقَى الْفَتَى الْمِخْشُ وَقَدْ خَوَّ
ضَ فِي مَاءِ لَبَّةِ الصَّنِيدِ
لَا بِقَوْمِي شَرُفَتْ بَلْ شَرُفُوا بِي
وَبِنَفْسِي فُخِرْتُ لَا بِجُدُودِي
وَبِهِمْ فَخِرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّأ
دَ وَعَوَّذُ الْجَانِي وَعَوْتُ الطَّرِيدِ
إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَعُجْبُ عَجِيبِ
لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ
أَنَا تَرَبُّبُ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي
وَسِمَامُ الْعِدَى وَعَيْظُ الْحَسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّهُ
هُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

فأنت ترى أن المتنبى قد أتم في هذه القصيدة من وجوه :
فهو يذكر حلاوة التوحيد في لهجة الساخر المستهزئ ، وهو
يشبه نفسه مرة بالمسيح ، ومرة بصالح ، ويشبه المسلمين الذين
كان يعيش فيهم مرة باليهود ، ومرة بنمود .

وهو بعد هذا وذلك يعلن الثورة والخروج على النظام ،
ويلقى ذلك في نفوس الناس بألفاظ ملتهبة ، توشك أن تثير
فيها اللهب .

ثم هو لا يقف عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى الجهر
بالقرمطية الصريحة التي تجحد الصلوات الخمس ، وتستحل دم
الحجاج في الحرم . وذلك في ميميته التي أولها :

ضَيْفُ أَلَمَ بَرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمٍ
السَّيْفُ أَحْسَنُ فَعَلًا مِنْهُ بِاللِّمَمِ

وانظر إليه كيف يقول :

لَمْ اللَّيَالَى الَّتِي أَخْنَتَ عَلَى جِدَّتِي
بِرَقَّةٍ الْحَالِ وَاعْذِرْنِي وَلَا تَلُمِ
أَرَى أَنَا وَمَحْصُولِي عَلَى غَنَمِ
وَذِكْرَ جُودِ وَمَحْصُولِي عَلَى كَلَمِ

وَرَبَّ مَالٍ فَقِيرًا مِنْ مُرُوءَةٍ
لَمْ يُثِرْ مِنْهَا كَمَا أَثَرَى مِنَ الْعَدَمِ
سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مِنِّي مِثْلَ مَضْرِبِهِ
وَيَنْجَلِي خَبْرِي عَنْ صِمَّةِ الصِّمَمِ
لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَاتَ مُصْطَبِرُ
فَالآنَ أَقْعَمُ حَتَّى لَاتَ مُقْتَعَمُ
لَأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً
وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقِي عَلَى قَدَمِ
وَالطَّغْنُ يُحْرِقُهَا وَالزَّجْرُ يُقْلِقُهَا
حَتَّى كَأَنَّ بِهَا ضَرْبًا مِنَ اللَّعْمِ
قَدْ كَلَّمَتْهَا الْعَوَالِي فَهِيَ كَالْحَةِ
كَأَنَّمَا الصَّابُ مَذْرُورٌ عَلَى الْأَجْمِ
بِكُلِّ مُنْصَلِتٍ مَا زَالَ مُنْتَظَرِي
حَتَّى أَدَلْتُ لَهُ مِنْ دَوْلَةِ الْخَدَمِ
شَيْخٌ يَرَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ نَافِلَةً
وَيَسْتَحِلُّ دَمَ الْحُجَّاجِ فِي الْحَرَمِ

وَكُلَّمَا نَطَحْتَ تَحْتَ الْعَجَاجِ بِهِ
أُسْدُ الْكِتَابِ رَامَتْهُ وَلَمْ يَرَمْ
تُنْسِي الْبِلَادَ بُرُوقَ الْجَوِّ بَارِقِي
وَتَكْتَفِي بِالدَّمِ الْجَارِي عَنْ الدِّيمِ
رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسِ وَاتْرِكِي
حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ
إِنْ لَمْ أَذْرِكِ عَلَى الْأَرْمَاحِ سَائِلَةً
فَلَا دُعِيْتُ ابْنَ أُمِّ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ
أَيُّمَلِكُ الْمَلِكِ وَالْأَسْيَافُ ظَامَّةٌ
وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ
مَنْ لَوْ رَأَى مَاءَ مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ
وَلَوْ مَثَلْتُ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنَمْ
مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ غَدًا
وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
فَإِنْ أَجَابُوا فَمَا قَصْدِي بِهِمْ
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا أَرْضَى لَهُمْ

ثم لا يقف أمر المتنبي عند هذا الحد ، وهو في نفسه
أبعد مما يطيق الدين والنظام ولكنه يتجاوز كل حد
ممكن فيقول :

أَيَّ مَعَلٍّ أَرْتَقِي
أَيَّ عَظِيمٍ أَتَقِي
وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ الـ
لَهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقِرٌ فِي هَمَتِي
كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

أترى أن المتنبي محتاج بعد ذلك إلى أن يخرج بالفعل
على السلطان ، فيؤلِّب الأعراب ويغير بهم على الحاضرة . أم
ترى المتنبي في حاجة إلى أن يزعم أنه نبى ليثور به السلطان ،
فيأخذه أخذاً شديداً ويلقيه في غيابة السجن .

لقد حبس الخلفاء والأمراء غير شاعر في القرون الأولى
لأمر أيسر جدا من هذا . ولقد قتل الأثينيون سقراط
لأمر ليست أشد مما تورط فيه المتنبي . فهو في لفظه مارق

من الدين ، خارج على السلطان ، منكر للنظام ، زار على
الأمة كلها . وبعض هذا لا يبيح للسلطان سجنه فحسب ،
بل يبيح للسلطان دمه أيضاً .

وإذا اتفق القدماء أو اختلفوا في ثورة المتنبي ، وفي
طبيعة هذه الثورة ، وفي مداها . وإذا ذهب المحدثون في
ذلك مذهب القدماء ، فإني أنا مطمئن إلى أن ما حفظ المتنبي
من شعره كاف لدفعه إلى السجن . فكيف لو رأينا ما لم
يحفظ المتنبي من هذا الشعر الملتهب . وما أشك في أنه ألغى
منه أكثر مما أبقى .

سجن المتنبي إذن في أواخر سنة ثلاث وعشرين
أو أوائل سنة أربع وعشرين في جريمة خطيرة من جرائم
الرأي ، قوامها الردة ، والخروج على السلطان ، والدعوة إلى
تسليط السيف على المسلمين .

فلنعرض عن كل هذه الأساطير التي نسجت حول سجنه ،
فهى إلى غلو خصومه ومبالغتهم ، وإلى تعظيم الهين وتضخيم
اليسير ، واختراع القصص ، أدنى منها إلى أى شئ آخر .
وكان أبو العلاء يملئ رسالة الغفران بعد مقتل المتنبي بنحو

ستين سنة ، فكان يشك في ذلك شكاً ظاهراً ، ويروى بعض هذه الأحاديث الشعبية التي أثيرت حول سجن أبي الطيب .

وأنا لا أتردد في رفض ما يروى من أنه ادعى النبوة وأحدث المعجزات أو زعم إحداثها ، وضلل فريقاً من خاصة الناس وعامتهم ، فبايعوه واتبعوه ، كما لا أتردد في رفض هذا السخف الذي ينبئنا بأن المتنبى زعم أن قرآناً أنزل عليه ، وبأن بعض الناس قد حفظ هذا القرآن .

فقد قيل مثل هذا عن أبي العلاء أيضاً . وروى بعض قرآنه الموهوم ، وما ينبغي أن نجعل أن الرأي العام في أوساط الشام وفي حمص خاصة كان خصماً لأبي الطيب حين سجن ، وأن أبا الطيب بعد خروجه من السجن كان لا يكاد يستقر في مكان ، حتى يثير حول نفسه الحسد والبغض والوان الخصومات ، وحتى يدع هذا المكان مغاضباً لأهله أو هارباً منهم : هرب من بدر بن عمار ، وخرج من حلب مغاضباً لسيف الدولة ، وهرب من كافور ، ولم يستطع أن يطيل الإقامة في بغداد حين عاد إلى العراق ، بل تعرض فيها لسخط رجال السياسة والأدب معاً . ثم لم تخل إقامته عند عضد الدولة من خوف

وإشفاق . ثم لم يكذب صدر عن عضد الدولة حتى قتل في طريقه . ومن قبل ذلك فر من الكوفة في صباه ، وخرج من بغداد خائفاً يترقب ، ولم يستطع أن يدخل الكوفة ليرى جدته قبل أن تموت . فهو قد غاضب الناس جميعاً وأب الدولة الإسلامية كلها على نفسه . فأى غرابة في أن يكبر من أمره ما صغر ويعظم من شأنه ما هان .

ونحن نرى في هذه الأيام التي سهل فيها البحث والتقصي ، وروقت فيها الاذاعة ونشر الدعوة ، ووضعت فيها القوانين الصارمة لعقاب الذين يسبون الناس ويقذفونهم ، ويقولون فيهم غير الحق ، ويحملونهم ما لم يحمّلوا ، ويضيفون إليهم ما لم يقولوا . نحن نرى في هذه الأيام كيف يتهم الناس بما لم يقترفوا من الذنوب ، وكيف يحمل عليهم ما لم يحمّلوا من الآثام . فكيف بعصر كعصر المتنبي ، لم يعرف فيه مثل ما نعرف من النظام . على أن في هذه الأساطير التي نسجت حول سجن أبي الطيب فكاهة ما أحسب أن لها أصلاً واقعاً ، ولكنها مع ذلك رمز صادق دقيق لهذا الطور من تفكير المتنبي وسيرته في الوقت الذي دفع فيه إلى السجن .

فقد يقال : إن أبا الطيب كان يزعم لبعض أتباعه أن الحديث
الذي كان يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ويقال في آخره :
غير أنه لا نبي بعدى ، إنما يجب أن يقرأ برفع النبي ، على أنه
خبر لمبتدأ هو لا وأن المتنبي كان يسمى نفسه لا . فهذا
تكلف رجل من النحويين أراد العبث والتندر . ولكن
هذا الاسم المشتق من النفي الخالص الشامل ، أشد الأسماء
ملاءمة لحياة المتنبي العقلية والعملية في ذلك الوقت . فهو كان
ينفى كل شيء : كان ينفى الدين والسلطان والنظام والناس .
ولم يكن يثبت إلا نفسه ، لم يكن قرمطيا فحسب ، بل كان
داعية من دعاة الفوضى وصورة من صورها .
وما أرى إلا أن الذين ألغوه في السجن قد أحسنوا إليه ،
لأنهم كفكفوا من غلوائه وردوه عن بعض هذا الجحوح .
واضطروه إلى أن يهدأ ويطمئن ، ويفكر ويتدبر ، ويستقبل
أمره في أناة واطمئنان .

١١

ولم يحفظ لنا من شعر المتنبي منذ أخذ إلى أن أخرج
من السجن إلا أقله ، وهو شيء يسير جداً . والمحقق أن
فتى كآبي الطيب غزير المادة ، شديد الانفعال ، قليل الصبر
على ما يكره ، أنشد شعراً كثيراً أثناء هذه المحنة ، ولكنه
لم يثبتته ولم يحرص على أن يرويه الناس ؛ فقد كان هذا
الشعر قسمين : قسم قاله المتنبي قبل أن تهدأ ثورته ،
ولم يكن من مصلحته أن يستبقيه أو يذيعه بعد أن تاب وجحد
ماضيه . وقسم قاله بعد أن أحس الألم والذلة ، وتاقت
نفسه إلى الحرية ، ولم يكن مما يلائم كبرياءه وكرامته
أن يثبت هذا الشعر أو يذيع منه إلا أسره وأهونه .
ومع ذلك فقد بقيت لنا نماذج من هذين النوعين ؛
فأما النوع الأول فقد بقي لنا منه نموذجان :
أحدهما هجاءه للهاشمي الذي قيده وأسلمه إلى جند
السلطان ، وهو قوله :

زعمَ المُقيمُ بِكَوتسكينَ بأنهُ

من آلِ هاشِمٍ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ

فأَجَبْتُهُ مُذْ صِرْتُ من أبنائِهِم

صارتُ قُيُودُهُم من الصَّنَافِ

فالشاعر في هذين البيتين ، كما ترى يسخر من هذا الذي

أسلمه وقيده سخرية لازعة تدل على أنه ما زال من حدة

الثورة بحيث لا يستطيع أن يقدر بشاعة ما هو مقبل عليه .

والنموذج الثاني هذه الأبيات التي قالها لرجل يعرف

بأبي دُلف ، برَّه في السجن وكان يغري به السلطان ،

وهي :

أَهْوَنُ بَطُولِ الثَّوَاءِ والتَلَفِ

والسجنِ والقَيْدِ يا أبا دُلفِ

غَيْرَ اخْتِيَارِ قَبِلْتُ بَرَّكَ بِي

والجوعُ يُرْضِي الأَسْوَدَ بِالْجَيْفِ

كُنْ أَيْهَا السَّجْنُ كَيْفَ شئتَ فَقَدْ

وَطَّنتُ للموتِ نَفْسَ مُعْتَرِفِ

لو كان سُكْنَايَ فِيكَ مَنَقَصَةً

لَمْ يَكُنِ الدُّرُّ سَاكِنَ الصَّدَفِ

ويجب أن يكون المتنبي قد قال هذه الأبيات قبل أن يطول عهده بالسجن ؛ فهو ما زال محتفظاً بكبريائه ، ولعله كان لا يزال محتفظاً بأرائه ، معترفاً بها ، موطناً نفسه على الموت في سبيلها . ولكن السجن طال عليه وثقل ، وأحاطت به الآلام والهموم وكاد ييأس . ثم أدركته العلة فتعرض للهلاك ، والله يجعل للناس من كل حرج فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا .

فهذا لؤلؤ الغورى والى الأخشيد على حمص يُستدعى من ولايته ، وهذا إسحاق بن كيغلف يرد إلى حمص والياً بعد أن كان قد عزل عنها ، وهذا فتانا اليأس يستشعر شيئاً من الرجاء ، ويأخذ في التوسل والاستعطاف والمدح . ولدينا من هذا الشعر نماذج ثلاثة : أولاها هذه المقطوعة البائية التى لا يزيد فيها المتنبي على الاستعطاف والتوبة ،

وهى :

بِيَدِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْأَرِيبُ
لَا لِسِيءٍ إِلَّا لِأَنِّي غَرِيبُ

أَوْ لِأَمٍّ لَهَا إِذَا ذَكَرْتَنِي

دَمُّ قَلْبٍ بِدَمْعٍ عَيْنٍ يَذُوبُ
إِنْ أَكُنْ قَبْلَ أَنْ رَأَيْتُكَ أَخْطَا

تُفَانِي عَلَى يَدَيْكَ أَتُوبُ
عَائِبٌ عَابَنِي لَدَيْكَ وَمِنْهُ

خُلِقْتُ فِي ذَوِي الْعُيُوبِ الْعُيُوبُ

فهو كما ترى ذليل مستكين ، يذكر غربته وجدته النائبة ،
ويتوب من خطأ إن كان قد تورط فيه ، وينكر هذا الخطأ .
وهذا البيت الأخير واضح في أنه لم يؤخذ متلبساً بالجريمة
كما يقول رجال القانون ، أو لم يؤخذ ناثراً ثورة مادية .
وإنما سعى به ساع فنقل إلى السلطان ما كان يقول من
الشعر .

وكأن الأمير أعرض عنه أو أبطأ في الاستجابة له
فاستعطفه بالدالية المشهورة :

أَيَا خَدَّدَ اللَّهُ وَرَدَ الْخُدُودِ
وَقَدَّ قُدُودَ الْحِسَانِ الْقُدُودِ

وهو في هذه القصيدة ناسب ، ماح ، شاك ، مستعطف .
ولكني لا أقف منها إلا عند الأبيات الأخيرة التي يدافع الشاعر
فيها عن نفسه ، وينكر ما اتهم به من الخروج على السلطان ،
ويعترف بأنه هم ولم يفعل . ويزعم للسلطان أن لا عقاب على
الإرادة ، وإنما العقاب على الفعل :

تُعَجِّلُ فِيَّ وَجُوبَ الْخُدُودِ
وَحَدَى قُبَيْلَ وَجُوبِ السُّجُودِ

والشاعر هنا مبالغ يزعم أنه لم يبلغ الحلم ، ولم يستوجب
الحد ، مع أن من الحق أنه كان في الحادية أو الثانية
والعشرين .

وَقِيلَ عَدَوْتَ عَلَى الْعَالَمِ
بَيْنَ بَيْنَ وَلَادِي وَبَيْنَ الْقُعُودِ
فَمَا لَكَ تَقَبَّلُ زُورَ الْكَلَامِ
وَقَدَّرُ الشَّهَادَةِ قَدَّرُ الشُّهُودِ

فلا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْكَاشِحِينَ
ولا تَعْبَأَنَّ بِمَحَكِ الْيَهُودِ

وماحك اليهود هذا عندي هو كما قدمت ذلك الذي كان
ينافس التنوخيين العرب ، ويسعى بينهم بالبغضاء . والذي
ذمه المتنبي حين مدح التنوخيين ونفى أن يكون بعضهم قد
شمت ببعض :

وَكُنْ فَارِقًا بَيْنَ دَعْوَى أَرَدْتُ
وَدَعْوَى فَعَلْتُ بِشَأْوٍ بَعِيدٍ

والشاعر في هذه القصيدة كما هو في الأبيات السابقة ذليل
ضارع مستعطف ، ولكنه منكر للذنب الذي يحمل عليه
أشد الإنكار .

وقد سمع الأمير له هذه المرة ، ولعله سمع لبعض الشافعين
فيه ، ولعله أراد أن ينقذ سجيناً حبسه سلفه فجمع له
فيما يقال جماعة من أصحاب الجاه والشرف والدين واستتابه ،
فتاب وأشهد على نفسه أنه جحد ما كان من أمره وعاد إلى
سبيل المسلمين .

ويظهر لي أن عفو هذا الأمير التركي عن المتنبي الشاب

الذى أنهكه السجن وأضناه قد ملأ قلب الفتى سروراً ورضى ،
وأثار في نفسه الأمل أيضاً فمدحه بالرأية التي يقول في أولها :

حاشى الرقيبَ فخانتهُ ضمائرُهُ

وغِيَّضَ الدمعَ فانهاَّتْ بواذرُهُ

ولعله كان يرجو أن ينال بهذه القصيدة وأمثالها حظوة
عند الأمير ، ما دام قد نال بالقصيدة الدالية عطف الأمير
وعفوه . ولكن الأمير أبى أن يستقبله أو يسمع منه ، وتقدم
إليه في أن يترك الإقليم قانعاً بسلامته وحياته . فخرج يستقبل
حياة جديدة ليست أقل من حياته الأولى بؤساً وفضلاً وشقاء
وبيعا للشعر في سوق الكساد .

حياته

١٢

ليست أقل من حياته الأولى بؤساً ، ولكنها تخالف حياته الأولى في جوهرها . فقد كان في حياته الأولى شقياً بالأمل . وهو في حياته الثانية شقى باليأس . وقد كان في حياته الأولى يتحرق شوقاً إلى عظام الأمور وجلائل الأعمال ، وهو في حياته الثانية يؤثر العافية وما يكاد يظفر بها ، ويتنقى الراحة وما يكاد ينتهى إليها . وقد كان في حياته الأولى شديد الثقة بنفسه ، عظيم الايمان بعزمه ؛ وهو في حياته الثانية شك في نفسه أشد الشك ، قانط من عزمه أشنع القنوط . وقد كان في حياته الأولى ساخطاً على ماضيه ، متبرماً بحاضره طامعاً في مستقبل باسم فيه الرضى وتحقيق الآمال . وهو في هذه الحياة الثانية نادم على ماضيه الذى جحدته ، ملتاع على مستقبله الذى يئس منه ، ضيق بحاضره مع ذلك أشد الضيق ولا ينبغى أن تظن بى الأطناب والأسهاب والالحاح فيما لا يحتاج إلى إلحاح ، والاطالة فيما لا ينبغى الاطالة فيه .

فإن هذه الحال النفسية أبلغ الأحوال تأثيراً في نفس الشاعر .
الحساس ، وأشدّها إنضاجاً لهذه النفس . وهي من غير شك .
أخصب الأحوال التي تمر بنفس الشاعر ؛ لأنها تنضجها وتشد
أزرها ، وتعلمها احتمال المكروه ، وتعلمها كذلك تذوق الألم
والتمييز بين أنواعها المختلفة ، واستعدادها مهما تسكن ممضة .
وتهيئة الشاعر الصحيح للنبوغ الصحيح .

ولسكنها تفعل هذا كله سرّاً ومن وراء حجاب . تعمل
في النفس الخفية أكثر مما تعمل في النفس الظاهرة ، وتؤثر
في الضمير أكثر مما تؤثر فيما يشهد الشاعر من أمر عقله
وقلبه وملكاتة المختلفة ، حتى إذا آن الأوان وسنحت الفرصة ،
وتهيات الظروف ، ظهرت الآثار القيمة الخصب لما يليق الشاعر
من الألم والسقم والضييق .

ومهما يكن من شيء فإن المتنبي كان في شغل من ضميره
وسريرة نفسه ، ودخيلة قلبه ، حين خرج من السجن ، واضطر
إلى مغادرة الاقليم بهذه المصاعب العاجلة السخيفة التي تعترض
فتى يائساً بئساً قد صرم العون وفقد الصديق .

ونظر فإذا هو وحيد في الحياة ليس له من يفكر فيه

أو يرثي له أو يعطف عليه ، إلا جدته تلك المقيمة في الكوفة .
والتي انقطعت بينها وبينه الأسباب .

وهذه المصاعب التي تعترض له ليست مصاعب معنوية
تأتيه من العزلة والوحدة ، ومن افتقاد الصديق خصب ، ولكنها
مصاعب مادية أيضاً وهي أشد ما يلقى الشاعر من المصاعب
سخفاً وأبلغها في نفسه أثراً .

فهو غريب مشرد ، لا يكاد يستقر في مكان حتى
يزعجه عنه الخوف والفرع ؛ وهو فقير معدم لا يجد ما يرضى
به حاجة جسمه إلى الطعام والشراب واللباس ، فضلاً عما
يستعين به على الفراغ الذي يمكنه من أن يرضى حاجة
عقله وقلبه وعواطفه . ويستقبل الفتى أمره مفكراً متدبراً ،
فإذا هو مضطر قبل كل شيء إلى أن يرحل عن هذه
الأرض التي لا مقام له فيها : أرض الأخشيدين . فهو
لا يستطيع أن يقيم في حمص وما يجاورها من البلاد ، وهو
لا يستطيع أن يعود إلى اللاذقية إشفافاً على أهلها وإشفافاً
منهم ، وهو لا يستطيع أن يعود إلى طبرية التي خرج منها
مغاضباً لأهلها ، ذاماً لهم في شعر قد سارت به الركبان ،



وهو لا يستطيع أن يدنو من مركز السلطان الأخشيدي
بعد أن نفته أطراف هذا السلطان . فليس له بد إذن من
أن يعود إلى شمال الشام ، هذا الذي كرهه وضاق به وفر منه
حريصا على ألا يعود إليه .

وهو يعود إلى شمال الشام ليصنع فيه ماذا ؟ ليستأنف
فيه تلك الحياة البغيضة التي سئمها ، وظن أنه قد خلاص
منها ، حياة التكسب بالشعر عند قوم لا يقدرון الشعر ،
ولا يذوقون له طعما ، وعند قوم لا يقدرهم هو ولا يذوق
لهم طعما ، وإنما يحتقرهم ويزدريهم أشد الاحتقار ، وأعظم
الازدراء .

لئنه يستطيع أن يجاوز شمال الشام هذا إلى العراق ،
ليستأنف الحياة في الكوفة حيث جدته وموطنه ، أو في بغداد
حيث الحياة العقلية الخصبية التي تبعث الخصب في العقول
والقلوب . ولكن من له بالعراق وقد تقطعت بينه وبين
العراق الأسباب . وفيهم يعود إلى الكوفة بأسا معدما ، وقد
خرج منها يبتغي الأمل والغنى ؟ وفيهم يعود إلى بغداد وقد
أعجله الأمل والتماس الغنى عن الإقامة في بغداد ؟ ليقصد

إذن إلى شمال الشام ، وليستأنف فيه حياته البائسة المضطربة ،
ولينتظر فيه ما قد تتكشف عنه الأيام ؛ فالحياة في هذا
العصر بعيدة كل البعد عن الاستقامة والاضطراب . ومن
يدري لعله يظفر في شمال الشام بما لم يظفر به من قبل ،
ومن يدري لعل الأمور أن تتغير ، وإذا هو يعود إلى
أرض الأخشيد وقد زال عنها ملك الأخشيد .

ولسنا نستطيع أن نوقت الشعر الذي قاله المتنبي في هذا
الطور المظلم من أطوار حياته . ولكننا نستطيع على كل
حال أن نسلك في توقيته طريقاً كالتى سلكناها في توقيت
ما قال من الشعر في الطور الذى سبق ما ألم به من الكارثة .
فطبيعة الأشياء تقضى بأن يكون الشاعر قد انتفع بالتجربة ،
وتعلم الحذر والاحتياط ، أو عاد إلى ما كان يألف من الحذر
والاحتياط .

وطبيعة الأشياء تقضى بأن يخفى الشاعر ما ألم به من
مكروه ، وما أدركه من خيبة ، وما تعرض له من خطر .
وإذن فلن يجهر بقرمطيته وقد رأى ما جرت به القرمطية عليه
من شر . وإذن فلن يسرف فى وصف بأسه وشجاعته ونجدته

بعد هذه الخيبة التي بلا مرارتها . وإذن فلن يلم بالبادية ولن يمدح أهلها ، بعد أن ذاق من البادية وأهلها ما ذاق . ولكنه على كل حال شاعر قد امتحن في نفسه وفنسه وأمله . وهو ، مهما يتكلف من الاحتياط ، عاجز عن أن يخفي ما تركه هذا كله في نفسه من المرارة .

وليس بشاعر إذا لم يستطع أن يشكو ما قاسى ويتغنى ما وجد دون أن يفضح سره ، أو يعان حقيقة أمره إلى الناس ؛ وإذن فيمتاز شعر الخيبة هذا بكثير جداً من الاعتدال في الأمل ، والرضى بالقليل ، والاقتصاد في وصف الحرب أو في وصف نفسه ، خائضاً غمار الحرب ، وتجنب القرمطية العملية والعقلية . ثم سيمتاز بهذا الحزن المظلم الذي لا نكاد نحققه ولا نشخصه ، ولكننا نحسه مع ذلك غامضاً ظاهراً مكتوماً مكظوماً . وهو مع هذا منبعث في شعره وفي مقدمات قصائده خاصة . والشاعر يستطيع أن يشكو الزمان ومصائب الدهر ، ونوائب الحداث ، ولؤم الناس ، وما أفسد أخلاقهم من المكر والغدر ، ومن الجبن والنفاق . ففي هذا كله منقذ لهذا الهم الذي يغلى في صدره ، ولهذا

الحزن الذى يمزق قلبه تمزيقاً .

واقراً معى هذه الأبيات التى قالها حين مر بقنسرين
فسمع زئير الأسد ، والتى لا تخلو من تأثر بما سبق إليه
الشعراء القدماء ، ولا سيما امرؤ القيس ^(١) والفرزدق ^(٢) من
مناجاة الذئب والأسود .

أَجَارُكَ يَا أَسَدَ الْفَرَادِيسِ مُكْرَمُ X
فَتَسْكُنَ نَفْسِي أَمْ مُهَانٌ فَمُسْلَمُ
وَرَأَى وَقْدَامِي عُدَاةً كَثِيرَةً
أَحَازِرُ مِنْ لِصٍّ وَمِنْكَ وَمِنْهُمْ
فَهَلْ لَكَ فِي حِلْفِي عَلَى مَا أُرِيدُهُ
فَإِنِّي بِأَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ أَعْلَمُ

(١) انظر قوله فى المعلقة :

وواد كجوف العير قفر قطعته

به الذئب يعوى كالخلع المعيل

وما يليه .

(٢) انظر نونيته المشهورة التى يقول فيها :

تعال فان عاهدتني لا تخونني

نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وانظر قصته حين هرب من زياد وقصد إلى الحجاز .

(تقائض جرير والفرزدق ص ٦٠٨ وما يليها — طبع ليدن)

إِذَا لَا تَأْكُ الرِّزْقُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ

وَأَثَرَيْتِ مِمَّا تَغْنَمِينَ وَأَغْنَمُ

فهل أحسست في البيت الثاني ما أحسه أنا من امتلاء
قلب الشاعر بالوحدة والعزلة والفراغ إن صح أن تمتلئ
القلوب بهذه الأشياء . وهل رأيت الفتى كما أراه في هذا
البيت وحيداً شريداً في فضاء الأرض الواسع ، وقد أطبقت
عليه ظلمة الليل العريض ، وقد انصرف الفتى عن عدو
وهو مقبل على عدو ، وهو يسمع زئير الأسد ، ويكاد
يسمع خطا قطاع الطريق ، ويكاد يرى أشخاص هؤلاء
اللصوص الذين يأخذون السبيل على المجتمعين ، فكيف
بهذا الشريد الطريد . وهل أحسست في هذين البيتين
الأخيرين ما أحسه أنا من هذا الندم اللاذع والحسرة الممضة
ومن حزن الفتى لأنه لم يجد بين الناس من يعينه على تحقيق
آماله . فإذا هو يود لو وجده بين هذه الأسود الزائرة
الكاسرة . أسمعت الأسود لغناء هذا الحزين ؟ لست أدري
ولكن الحق أنها لم تحفل به ، ولم تستجب له ، ولم تمض
بينها وبينه هذه الحلف التي كان يتمناها عليها ، وحسبه أنها

قد تركت له طريقه لم تعرض له ولم تعتد عليه .
والشاعر ينتهي إلى شمال الشام ، فيقيم في حلب إقامة
غير آمن ولا مطمئن ، لأن حلب في ذلك الوقت كانت موضع
النزاع بين الأخشيديين والعباسيين ، فيرحل عنها إلى أنطاكية
وهناك يلتمس حياته بمدح الأشراف وأوساط الناس ، ولعل
من خير ما قال في أنطاكية ، هاتين القصيدتين اللتين مدح
بهما المغيث بن علي العجلي ، واللتين أراهما من شعره بعد
الكارثة خلافا لما يرى الأستاذ بلاشير .

يقول المتنبي في مطلع القصيدة الأولى :

دَمْعٌ جَرَى فَقَضَى فِي الرَّبْعِ مَا وَجَبَا

لَأَهْلِهِ وَشَفَى أَنَّى وَلَا كَرَبَا

ويقول في آخرها وهو يصور ما بقي في نفس الشاعر

من حقد وحفيظة وغیظ لم يحمد بعد :

لَمَّا أَقَمْتَ بِإِنطَاكِیَّةَ اخْتَلَفْتَ

إِلَى بِالْخَبَرِ الرُّكْبَانُ فِي حَلْبَا

فَسِرْتُ نَحْوَكَ لِأَلْوَى عَلَى أَحَدٍ

أَحْتُ رَاحَتِي الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا

أَذَاقَنِي زَمَنِي بِلَوَى شَرِقتُ بِهَا
 لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى مَا عَاشَ وَانْتَحَبَا
 وَإِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الْحَرْبَ وَالِدَةً
 وَالسَّهْرَى أَخَا وَالْمَشْرِفَى أَبَا
 بِكَلِّ أَشَعْتَ يَلْقَى الْمَوْتَ مُبْتَسِمًا
 حَتَّى كَانَ لَهُ فِي قَتْلِهِ أَرْبَا
 قُحَّ يَكَادُ صَهِيلُ الْخَيْلِ يَقْذِفُهُ
 عَنْ سَرَجِهِ مَرَحًا بِالْعِزِّ أَوْ طَرَبًا
 فَلَمُوتُ أَعْذَرُ لِي وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ بِي

وَالْبِرُّ أَوْسَعُ وَالْدُنْيَا لِمَنْ غَلَبَا
 أما القصيدة الثانية ، فالقسم الأول منها أبلغ ما صور به
 المتنبي في هذا الطور من حياته رأيته في الزمان والناس ،
 وسخطه على الحياة والأحياء . ولا بد من رواية هذا القسم
 كله ؛ لأنه يغني عن كل شرح أو تفسير :

فَوَادَّ مَا تُسْلِيهِ الْمُدَامُ
 وَعُمُرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُّ اللَّثَامُ

وَدَهَرَتْ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ
وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَّةٌ ضِخَامٌ
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعِيشِ فِيهِمْ
وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
أَرَانِبُ غَيْرِ أَنَّهُمْ مُلُوكٌ
مُفْتَحَةٌ غُيُومُهُمْ نِيَامٌ
بِأَجْسَامٍ يَحَرُّ الْقَتْلُ فِيهَا
وَمَا أَقْرَانُهَا إِلَّا الطَّعَامُ
وَحَيْلٌ لَا يَحِرُّ لَهَا طَعِينٌ
كَأَنَّ قَنَا فَوَارِسَهَا ثُمَامُ

خَلِيلُكَ أَنْتَ لَا مَنْ قُلْتَ خَلِيٌّ
وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالْكَلَامُ

وَلَوْ حَيْرَ الْحِفَاطُ بِغَيْرِ عَقْلٍ
تَجَنَّبَ عُنُقَ صَيْقَلِهِ الْحُسَامُ
وَشِبُّهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ
وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّعَامُ

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إِلَّا ذُو مَحَلٍّ
تَعَالَى الْجَيْشُ وَانْحَطَّ الْقِتَامُ
وَلَوْ لَمْ يَرْعَ إِلَّا مُسْتَحِقُّهُ
لَرُبُّتَبَهُ أَسَامُهُمُ الْمُسَامُ
وَمَنْ خَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي
ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلَامُ
إِذَا كَانَ الشَّبَابُ السُّكْرَ وَالشَّيْءَ
بُ هَمًّا فَالْحَيَاةُ هِيَ الْحِمَامُ
وَمَا كُلُّ بَعْدُورٍ يُبْخَلُّ
وَلَا كُلُّ عَلَى بُخْلِ يُلَامُ
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ جِيرَانِي وَمِثْلِي
لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمْ مُقَامُ
بَارِضٍ مَا اشْتَهَيْتَ رَأَيْتَ فِيهَا
فَلَيْسَ يَفُوتُهَا إِلَّا الْكَرَامُ
فَهَلَا كَانَ نَقْصُ الْأَهْلِ فِيهَا
وَكَانَ لِأَهْلِهَا مِنْهَا التَّمَامُ

وتستطيع أن تلحق بهذه القصيدة قصيدة أخرى تشبهها
في الحزن والمرارة وشكوى الزمان . وهي عندي من شعر
هذا الطور ، وإن خيل الديوان ، وظن كثير من الناس
أنها متأخرة قيلت بعد انصراف الشاعر عن بدر بن عمار .
وهي القصيدة التي يمدح بها أبا عبد الله محمد بن عبيد الله
ابن محمد الخطيب الحصبى ، وهو يومئذ يتقصد القضاء
بأنطاكية وأولها :

أَفْضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضُ لَذَا الزَّمَنِ
يَخْلُو مِنْ أَلْهَمٍ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

وكذلك القصيدة المشهورة التي يمدح بها القاضي
أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي . والتي أولها :

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ
أَقْفَرْتَ أَنْتِ وَهْنٌ عَنْكَ أَوَاهِلُ

والأخرى التي يمدح بها أخاه أبا سهل سعيد بن عبد الله

ابن الحسن الأنطاكي ، وأولها :

قَدْ عَلَّمَ الْبَيْنُ مِنَّا الْبَيْنَ أَجْفَانَا

تَدَمَّى وَأَلْفَ فِي ذَا الْقَلْبِ أَحْزَانَا

والقصيدة التي يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران ،
وأولها :

سِرْبٌ مُحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا
دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا
ومن هذا الشعر أيضاً فائتته التي يمدح بها أبا الفرج
أحمد بن الحسين القاضي المالكي والتي مطلعها :

إِجْنِيَّةٌ أُمُّ غَادَةٍ رُفِعَ السَّجْفُ
لَوْحَشِيَّةٌ لَا مَا لَوْحَشِيَّةٌ شَنْفُ
والبائية التي يمدح بها علي بن منصور الحاجب ، ويقول
في أولها :

بَابِي الشَّمُوسُ الْجَانِحَاتُ غَوَارِبَا
الْإِبْسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِيبَا
والأخرى التي يمدح بها عمر بن سليمان الشرابي ،
ويقول فيها :

نَرَى عِظَمًا بِالْبَيْنِ وَالصَّدَّ أَعْظَمُ
وَتَتَّهِمُ الْوَائِينَ وَالْذَمْعُ مِنْهُمْ

والتي يمدح بها عبد الواحد بن العباس بن أبي الإصبع
الكاتب وأولها :

أَرْكَائِبَ الْأَحْبَابِ إِنَّ الْأَدْمُعَا
تَطْسُ الْخُدُودَ كَمَا تَطْسُنَ الْيَرَمَعَا

وأنت تستطيع أن تقرأ هذا الشعر كله فستجد في قراءته
من السأم والملل شيئاً كثيراً يلائم ما كان في نفس الشاعر
من السأم والملل حين كان ينشئه وينشده .

فهو مدح متصل متشابه معاد ، لا تجديد فيه ولا تغيير ،
ولا صدق فيه ولا إخلاص ، إنما هو شعر يباع . ويجهد
الشاعر في تزيين سألته وتحسينها ، فيبلغ من ذلك بعض
ما يريد حيناً ، ويعجز عنه في أكثر الأحيان .

وربما قسم الشاعر القصيدة بينه وبين ممدوحه قسمة
عدلاً أو قسمة فيها شيء من الجور ، فاتخذ لنفسه الشطر
الأول يشكو فيه ، ويذم الزمان والناس صراحة ، أو يرمز فيه
بالغزل والنسيب إلى هذه الشكوى المرة المتصلة .

والحق أن شعر أبي الطيب لم يكدر يرقى في هذه
الأعوام التي جاءت بعد خروجه من السجن إلا قليلاً ؛

فقد استوثق الشاعر من صناعته لكثرة المران ، واستطاع
أن يذل الألفاظ ، وإن عجز عن أن يستذل المعانى . وقد
أحسن التفكير فى الدهر وصروفه ، واستطاع أن يزن
الأمور وزناً حسناً ، وأن يسند تشاؤمه القديم إلى العقل
والتجربة والاختبار ، وأن يأتى فى ذلك بنغمات قوية مشجبة باقية
عامة ، تبلغ قلوب الناس جميعاً فتثير فيها الحزن ، وقد تنتهى
بها إلى القنوط ، ولكن الشاعر آخر الأمر لم يضيف إلى
فنه القديم شيئاً فضلاً عن أن يضيف إلى الشعر لونا
لم يسبقه إليه غيره من الشعراء الذين تقدموه ، لا من حيث
الألفاظ والمعانى والأساليب ، ولا من حيث الأوزان والقوافى
والموسيقى . إنما هو شاعر مقلد ينهج نهج المتقدمين ، ونهج
أبى تمام منهم خاصة . فاذا ظهرت شخصيته من حين إلى
حين ، فإنما تظهر فى أوقات العنف الذى ليس بعده عنف ،
أو فى أوقات الحزن الذى ليس وراءه حزن . فما الذى كان
ينقص هذا الفتى ليبلغ ما هو أهل له من التفوق الذى
لا يحتمل شكاً ، والنبوغ الذى لا يتعرض لخلاف .
كان ينقصه فيما أرى شيئان :

أحدهما حياة راضية تشحذ العزم وتحيي الأمل . وقد رأينا أن شعره وثب وثبة بعيدة حين انتهى إلى اللاذقية واتصل بالتنوخيين ، فضمن لين العيش ، ورجا تحقيق الأمل . فقال في هذا الوقت : أجل ما قال من الشعر بين صباه وبين الخامسة والعشرين .

والثاني بيئة مثقفة ، قوية الثقافة ، رشيدة بصيرة بالأدب ، قادرة على النقد ، عالمة بألوان الكلام . وهذه البيئة لم تتح للمتنبي أثناء إقامته الأولى والثانية في شمال الشام ، ولعلها لم تتح له أيضاً أثناء إقامته في أواسط الشام ، ولعله استغنى عنها وقتاً ما بكثرة ما كان يقرأ من الكتب ويستظهر من علم القدماء وأدبهم ، ولكنه كان على كل حال ناقد نفسه ، وناصرها ومرشدها ، وكان في حاجة إلى أن يأتيه النقد والنصح والإرشاد من قوم غيره يقدرهم ويحسب لهم في الأدب حساباً .

ولم يكن للبيئة العربية في الشام ذلك الوقت ممتاز من الثقافة الأدبية والعلمية . وأكبر الظن أن هذه البيئة كانت تنقسم قسمين :

أحدهما بدوى وهو إلى الجهل والغلظة أقرب منه إلى
الثقافة واللين ، والآخر حضرى ؛ وهو لين العيش ، ولكنه
غليظ العقل ، قليل الحظ جداً من العلم .

وإنما كان المتنبي محتاجاً إلى البيئة المصرية التى نشأ فيها
فن أبى تمام ، وإلى البيئة العراقية التى نضج فيها فن أبى تمام .
أيضاً ، والتى نشأت وأنضجت فن أعلام الشعر الإسلامى .
منذ العصر الأموى إلى أواخر القرن الثالث .

وقد ظهر فى الشام شاعر كأبى تمام ، ولكنك علمت أن
شعره نشأ فى مصر ونضج فى العراق . وظهر فى الشام شاعر
كالبحترى ، ولكنك تعلم أن الذى أنضج شعر البحترى ،
إنما هو اتصاله بأبى تمام ، ثم ارتحاله إلى العراق .

فأما المتنبي فقد نشأ شعره فى العراق ، وحاول أن ينضج
فى الشام فأدركه البطء ، ودبّ إليه كثير من الفساد ، وظهر
فيه تكلف يمتقه الذوق العربى الصريح ، ولا نجدده حتى عند
أشد الشعراء تكلفاً ، وهو أبو تمام .

ذلك لأن المتنبي قد نشأ فى غير مدرسة ، وتعلم على غير
معلم ، ولم يأخذ ثقافته وأدبه عن الأساتذة والنقاد ، وإنما

أأخذها عن الكتب والصحف وكان ينشد الجهال وأشباه
الجهال ، فيسمع منهم إعجاباً كثيراً مصدره الجهل ، ويأخذ
منهم مالا قليلاً مصدره البخل . فيشتد إعجابه بنفسه لما يسمع
من الثناء وما يرى من الإعجاب ، ويشتد حنقه على الناس
لما يرى من البخل وما يقاسى من الحرمان .

وأنا أعلم أن اضطراب الخلافة في بغداد ، وتسلب الترك
على الدولة قد غض من أمر الشعر وقصر من هم الشعراء .
وأن بغداد لم تكن في القرن الرابع غنية بالشعراء المجيدين ،
كما كانت في القرن الثالث والثاني ، ولكني أعلم مع ذلك
أن بغداد خاصة ، وأمصار العراق عامة كانت لا تزال قلب
الدولة من الناحية الأدبية ، إن كان ذلك قد أخطأها من
الناحية السياسية .

ولست أشك في أن المتنبي لو أقام في العراق وجه حياته
الأسرع إلى النبوغ ، ولاتخذ شعره لوناً آخر ، ولبرى من
كثير من العيوب التي أنكرت عليه ، ولاجنب كثيراً من
فساد اللفظ ، ولارتفع عن هذه المبالغات السخيفة التي سيعاب
شعره بها آخر الدهر .

والأمر لا يقف عند المتنبي وحده ، فقد أصبح المتنبي
كما تعلم إماماً للشعراء ، فأخذ الناس عنه فنه بما فيه
من خير وشر ، وكذلك كان استقبال المتنبي شبابه في الشام
مصدراً لكثير من الضعف الذي ألم بشعره هو ، ثم بشعر
الذين قلده .

ومهما يكن من شيء فقد استقبل المتنبي الخامسة
والعشرين من عمره ، وهو مضطرب في شمال الشام ، يبيع شعره
بيع الكساد كما يقول ، ولكنه على كل حال قد عرف
كيف يصبر ويحتمل ، وكأن الزمان الذي كان المتنبي يذمه
ويشكو منه قد رحمه ورق له ، وأراد أن يرفّه عليه شيئاً ،
وأن يتيح لفنه فرصة يثب فيها إلى الأمام .

في هذا الوقت اضطرب الأمر بين العباسيين
والأخشيديين ، وأقبل ابن رائق على قسم عظيم من سوريا
الجنوبية . وجعل ابن رائق على حربه في طبرية بدر بن عمار
الأسدي ، وهناك عاد إلى المتنبي شيء من الأمل ورغب
في أن يعود إلى تلك الأرض التي لم يكن له فيها مقام بعد
زلاته تلك . فترك شمال الشام وانتهى إلى طبرية واتصل ببدر

ابن عمار . وعند بدر بن عمار وجد الأمرين اللذين كان
يحتاج إليهما : وجد الحياة اللينة الهادئة ، ووجد البيئة المثقفة
الناقدة ، فلم يلبث أن أحس أثر الأمرين جميعاً ، وأن وثب
فيه في أشهر قليلة فبلغ من الرقي ما لم يبلغ بعضه في الأعوام
الثلاثة أو الأربعة التي أقامها في شمال الشام .

الكتاب الثاني

في هذا الكتاب وصف من في هذا الكتاب وصف من في هذا الكتاب
وصف من في هذا الكتاب وصف من في هذا الكتاب وصف من في هذا الكتاب
وصف من في هذا الكتاب وصف من في هذا الكتاب وصف من في هذا الكتاب
وصف من في هذا الكتاب وصف من في هذا الكتاب وصف من في هذا الكتاب
وصف من في هذا الكتاب وصف من في هذا الكتاب وصف من في هذا الكتاب

كتاب الفرائض

سفر

١

ولم يتصل المتنبي ببدر مباشرة ولا فجأة أول الأمر .
وإنما سعى في ذلك وجد وابتغى إليه الوسيلة فيما يظهر لى .
والديوان لا ينبئنا في صراحة . والرواة لا ينبئونها كذلك .
كيف سعى إلى بدر ، وكيف انتهى إليه . ولكن قصيدة
في الديوان لا يعرف تاريخها توشك أن تدلنا على ما نحتاج إليه
من ذلك . وهى هذه الهمزية التى مدح بها أبا على هارون
ابن عبد العزيز الأوراجي الكاتب الذى كان يذهب فيما
يقول الديوان ، وكما سنرى من القصيدة ، مذهب التصوف .
والذى كان له شأن قبل ذلك فى قصة الخلاج^(١) .

(فقد يخيل إلى ، بل أكاد أرجح أن المتنبي اتخذ هذا
الرجل وسيلة إلى بدر بن عمار . ومن يدرى لعله كان يريد
أن يتخذ بدر بن عمار وسيلة إلى مولاه ابن رائق وأن يتخذ

R. Blachère. — Abou t-Tayyib al-Motanabbi p. 90. (١)
L. Massignon. — Al Hallaj martyr mystique de l'Islam p. 240,

ابن رائق نفسه وسيلة إلى قصر الخلافة في بغداد .
ولكن الأسباب تقطعت به ولما يبلغ من ذلك إلا بعض
ما كان يريد .

هذه القصيدة تنبئنا بأن الشاعر قد أقبل يمدح أبا علي
الأوراجي من بعيد ، وقد جاز إليه جبال لبنان في شيء غير
قليل من المشقة والجهد . فأكبر الظن أن الأوراجي هذا كان
في ذلك الوقت متصلاً بعمل من أعمال ابن رائق قريباً من
بدر في طبرية أو بعيداً عنه بعض الشيء في دمشق .

فأقبل المتنبي من شمال الشام إلى جنوبها بعد أن جلت عنه
جنود الأخشيذ حتى انتهى إلى صاحبه هذا فمدحه بقصيدتين .
إحداها هذه الهمزية التي يجب أن نقف عندها وقفة
قصيرة ، والأخرى أرجوزة طردية على نحو أراجيز أبي نواس
قالها مستجيباً لمدوحه حين طلب إليه ذلك ، وأثبتها في الديوان
مفاخرها ، ومفاخرها بأنه قد قالها في سرعة توشك أن تكون
ارتجالاً . وقد نتحدث عنها في غير هذا الموضع من هذه
الفصول .

واللهمية التي نحن بإزائها فيما أرى مكانة خاصة من شعر

المتنبى . . فهى القصيدة الوحيدة التى يعمد فيها الشاعر إلى المذهب الرمزي ليرضى بمدوحه الذى كان يذهب مذهب التصوف . وهى من هذه الجهة قيمة لأنها تبين عن علم المتنبى ، فى الخامسة والعشرين من عمره ، بمذاهب المتصوفة فى الكلام ومنهجهم فى الرمز والايماء . ولأنها تظهر لنا الشاعر الفتى وقد ملك ناصية الفن حقاً ، واستطاع أن يصرفه كما يشاء ويهوى دون أن يجد منه مقاومة وامتناعاً ، ولأنها بعد هذا وذاك تكشف لنا عن براعة المتنبى ، لا فى هذا النحو من التكلف الفنى الذى كان مألوفاً فى ذلك العصر ، والذى كان يعتمد قبل كل شئ على أوجه البديع ، بل فى تكلف آخر لم يكن مألوفاً إلا عند المتصوفة والباطنية الذين يقصدون بالألفاظ والمعانى غير ما يفهم منها أصحاب الظاهر من عامة الناس وخاصتهم .

والظريف أن هذا التكلف لم يفسد على المتنبى شعره فى هذه القصيدة وإنما أسمع عليه جمالا غريبا لا نجده فى شعره العادى .

ومصدر هذا الجمال الغريب ما حاوله المتنبى من الملاءمة بين جهدين : جهد العقل وجهد الفن .

وأنت تستطيع أن تقرأ غزل هذه القصيدة فتستحسن
فيه هذين الجهدين معا :

أَمِنْ اَزْدِيَارِكَ فِي الدُّجَى الرُّقْبَاءُ

إِذْ حَيْثُ أَنْتِ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ

وينبغي أن تغفر للمتنبي هذا الجمع بين ظرفي الزمان
والمكان في أول الشطر الثاني . فهو قد أتعب النحويين
تحليلاً وتعليلاً ، ولكنه مع ذلك ظاهر المعنى . فالمتنبي لا يزيد
على أن يقول لصاحبه : إن الرقباء مطمئنون إلى أنك لن
تزوريني إذا أظلم الليل لأن وجهك يضيء الظلمة فينم عنك
لأنك ضياء حيث كنت .

فالمعنى ظاهر ولكن صيغته تعمييه بعض الشيء . المعنى
ظاهر ، ولكن جهد الشاعر في استنباطه والتعبير عنه ظاهر
أيضاً . وأنت لا تلوم المتنبي ولا تعتب عليه إذا تكلف شيئاً
من الجهد في فهم هذا البيت لأنك تحمد عاقبة الجهد ، وترى أن
من حق الشاعر الذي تعب في استنباط المعنى وأدائه أن
يكلفك شيئاً من التعب في فهمه والوصول إليه ، ما دام المعنى
آخر الأمر قيماً خليقاً بما بذلت من الجهد . فنحن هنا في بيئة

أخرى . في هذه البيئة التي يحسن أبو تمام والمتنبي خلقها ، والتي
توجد تعاوناً واشتراكاً بين الشاعر والقارئ أو المستمع إليه .
وإنما تخلق هذه البيئة حين يُعنى الشاعر بمعانيه ، ويصدر
فيما ينشئ عن عقله وفنه من جهة ، وعن احترامه لقارئه وسامعه
من جهة أخرى .

وانتقل إلى ما بعد هذا البيت :

قَلَقُ المَلِيحَةِ وَهِيَ مِسْكٌ هَتَكُهَا
وَمَسِيرُهَا فِي اللَّيْلِ وَهِيَ ذُكَاةٌ
أَسْفَى عَلَى أَسْفَى الذِّى دَلَّهْتَنِى
عَنْ عِلْمِهِ فِيهِ عَلَى خَفَاءِ
وَشَكَيْتِ فَقَدْ السَّقَامَ لِأَنَّهُ
قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لى أَعْضَاءِ

فالبيت الثانى توضيح وتفصيل وإطناب للبيت الأول ،
ولكن فيه تعميماً ليس فى ذلك البيت . فالمليحة قلقة فيما تدبر
من أمرها لأنها مسك ينم عليها نشرها ، وشمس يفضحها
ضوءها وإن سرت بليل . وتصور أنت هذا الطباق الذى

يأتيه من سرى الشمس في الليل . فإذا تجاوزت هذا المعنى فانظر إلى هذا البيت الثالث الذي ذهب الشاعر فيه مذهب المتصوفة الصريح ، حين يلوون الألفاظ عن أساليبها الطبيعية الظاهرة . فالشاعر يأسف على أسفه الذي هو محقق ، ولكنه لا يعلم به لأن صاحبه قد دلهته عنه وأذهلته بما يحدث في نفسه من أثر . والشاعر يؤكد لنا هذا المعنى تأكيداً في البيت الرابع الذي ينبئنا فيه بأنه لا يشكو السقام ، وإنما يشكو فقد السقام . ذلك أنه كان يحس السقم حين كان له جسم يمسسه السقم وتلم به الآلام . فأما وقد أفنى الحب جسمه وأعضاءه فهو لا يشكو سقماً ولا ألماً ، وإنما يشكو شيئاً أبلغ من السقم والألم وهو العدم الذي يمنعه أن يحس سقماً وألماً . وتصور أنت شاعراً يجد نفسه ، ويشعر بها ويعلم أنه معدوم ويشكو من هذا العدم . ولكن لا تنس أن شاعرنا يقدم هذا الكلام بين يدي مدحه لرجل من المتصوفة فهو يصطنع له مذهب المتصوفة في الكلام والتفكير أيضاً .

مَثَلَتْ عَيْنَكَ فِي حَشَايَ جِرَاحَةً

فَتَشَابَهَا كَلْتَاهُمَا نَجْلاً

نَفَذْتُ عَلَى السَّابِرِيِّ وَرُبَّمَا
تَنْدَقُ فِيهِ الصَّعْدَةُ السَّمَرَاءُ

وانظر إلى براعة الشاعر وقدرته على العبث بالألفاظ
واتخاذ هذا العبث وسيلة إلى شعر لا يخلو من جمال . فالناس
يقولون : عين نجلاء ، وهم يقولون طعنة نجلاء . فإذا يمنع المتنبي
أن يشتق من هذا الاشتراك بين العين والطعنة في النجل الذي
هو السعة شهماً بينهما ، فيجعل عين حبيبته في حشاه لأن الطعنة
التي مسته بها واسعة نجلاء كالعين التي حملت إليه هذه الطعنة .
ثم هو يحقق هذا التشبيه تحقيقاً بالبيت الأخير فيزعم أن عين
حبيبته قد شقت عنه درعه ونفذت إلى قلبه . ودرعه مع
ذلك صلبة محكمة تندق فيه الصعدة السمراء . فأصل المعنى
كما ترى مألوف ، ولكن التعبير عنه جديد . وتصوره على
هذا النحو طريف يخيل إليك أن الشاعر قد ابتكره ابتكاراً :

أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِي إِذَا مَا زُوِّجِمْتُ
وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنِّي الْجَوْزَاءُ
وَإِذَا خَفِيتُ عَلَى الْغَبِيِّ فَعَاذِرُ
أَلَا تَرَانِي مُقْلَةً عُمِيَاءُ

شِيمُ اللَّيَالِي أَنْ تُشَكَّكَ نَاقِي
صَدْرِي بِهَا أَفْضَى أَمِ الْبَيْدَاءِ
فَتَبَيَّتْ تُسَيِّدُ مُسَيِّدًا فِي نِيَّهَا
إِسَادَهَا فِي الْمَهْمَةِ الْأَنْضَاءِ
أَنْسَاءُهَا مَمْغُوطَةٌ وَخِفَافُهَا
مَنْكُوحَةٌ وَطَرِيقُهَا عَذْرَاءُ
يَتَلَوْنَ الْخَرِيبَتُ مِنْ خَوْفِ التَّوَي
فِيهَا كَمَا يَتَلَوْنَ الْحَرْبَاءُ

والشاعر كما ترى في هذه الأبيات يفخر بنفسه مقتصدًا
في الفخر ، ولكنه اقتصاد لا ينبغي أن يخذعنا عن امتلاء
الفتى بنفسه . فهو اقتصاد في الألفاظ لا في المعاني . فالشاعر
صخرة تزحم من يزاحمها ، والشاعر نجم ، بل هو الجوزاء
بين الشعراء . فإذا لم يفتن الأغبياء والجهال لمكانه فهو عاذر
لهم . وهل على الأعمى حرج ألا يراه .

ولكن انظر إلى تصوير الشاعر لهمة البعيد وأمله
العريض وصدوره الواسع كيف ذهب فيه هذا المذهب اللطيف

فأشرك ناقتَه في التفكير، وأشرك الليل في العمل، وجعلنا بإزاء
حركة معقدة ونشاط متصل. فهو بعيد الهم، واسع الصدر،
عريض الأمل، جاد فيما يبتغى، والليالي مخلقة لظنونه، مخيبة
لآماله، ولكنها لا تبلغ من جهده وصدره ولا تحد من نشاطه
وجده، فهو يكلف ناقتَه من الجهد والعناء ما يلائم هذه
الخصومة المتصلة بينه وبين الزمان ويشق الأمر على ناقتَه
ويعظم الخطب وتشتد الحنة. فهي تريد أن تفهم ما يلم بها
ولن تخرج من حيرتها وهي تتساءل في كثير من الشك، أيهما
أفضى بها: هذه البیداء التي لا تنتهي، أم صدر صاحبها
هذا الذي لا يعرف لهما حداً ينتهي إليه.

والناقة مع ذلك ماضية في قطع البید واجتياها مضي
الهزال في أثناء شحمها، وقف عند هذا الاسآء الذي تعمد
الشاعر تكراره، فجاء به مضارعاً ومصدرأً واسم فاعل قصداً
إلى الإغراب والالتواء بالمعنى؛ ليلائم بين لفظه ومعناه وبين
مقامه من هذا الرجل المتصوف الذي يمدحه:

بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي عَلِيٍّ مِثْلُهُ

شَمُّ الْجِبَالِ وَمِثْلُهُنَّ رَجَاءُ

وعِقَابُ لُبْنَانٍ وَكَيْفَ بَقَطُهَا
وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِيتَاءُ
لَبْسِ الثَّلُوجِ بِهَا عَلَى مَسَالِكِي
فَكَانَهَا بَيَاضِهَا سَوْدَاءُ
وَكَذَا الْكَرِيمُ إِذَا أَقَامَ بِبَلَدَةٍ
سَالَ النَّضَارُ بِهَا وَقَامَ الْمَاءُ
جَمَدَ الْقَطَارُ وَلَوْ رَأَتْهُ كَمَا تَرَى
بُهْتَتٌ فَلَمْ تَتَبَجَّسِ الْأَنْوَاءُ

وَأَنْتَ تَرَى مِنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَنَّ الشَّاعِرَ حَرِيصٌ عَلَى
أَلَّا يَدْعَ الْمَذْهَبَ الْقَدِيمَ الَّذِي أَلْفَهُ الشُّعْرَاءُ ، فَيَذْكُرَ طَرِيقَهُ
إِلَى مَمْدُوحِهِ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى احْتِفَازِهِ بِهَذَا الشَّكْلِ التَّقْلِيدِيِّ
يَغْيِرُ الْأَسْلُوبَ وَالْمَوْضُوعَ تَغْيِيرًا . فَاَنْظُرْ إِلَيْهِ كَيْفَ يَخَاصُصُ
إِلَى مَمْدُوحِهِ هَذَا الْخُلُوصَ الْعَجِيبَ ، بَأَنَّهُ يَجْعَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
أَبِي عَلَى جِبَالًا تَشْبِهُهُ فِي الضَّخَامَةِ وَالْإِرْتِفَاعِ ، وَفِي الثَّبَاتِ
وَالِاسْتِقْرَارِ ، وَفِي الصَّعُوبَةِ وَالِامْتِنَاعِ . فَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَبْعِدَهُ
عَنْهُ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ يَجْعَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي عَلَى رَجَاءَ يَشْبِهُهُ

هذه الجبال في الضخامة والعظم والسعة والقوة . فمن شأنه
أن يقرب منه ، وأى جبال مهما تعظم تستطيع أن تستعصى
على هذا الرجاء العريض العنيف الذى لا حدَّ لسعته
ولا لقوته .

ثم انظر إلى وصفه الموجز لصعوبة لبنان وما ينبث فيها
من العقاب ، وما يجمد على هذه العقاب من الثلج الذى ينتشر
بياضه حتى يضل الشاعر عن مسالكه تضليلاً فكأنه
سواد الليل .

وما أريد أن أمضى على هذا النحو في تحليل القصيدة
كلها ، وإن كانت القصيدة كلها تعجبني ، ولكنى أدع لك
قراءة الشطر الأول من مدحه لأبى على ومشاركتي في الرضى
والإعجاب به ، والاعتراف بأنه إن كان كغيره من مدح
المتنبى في جوهره وأصله ؛ فإنه ممتاز في أسلوبه ، ومذهب
الشاعر في العناية به ، والتأنق في ذاته ، ولكنى مضطر أن
أقرأ معك هذه الأبيات التى يختم الشاعر بها قصيدته :

لَعَمَّتْ حَتَّى الْمُدُنُ مِنْكَ مِلاءَ

وَلَقَّتْ حَتَّى ذَا الشَّاهِ لَفَاءَ

وَلَجَدْتَ حَتَّى كِدْتَ تَبْخُلُ حَائِلًا
لِلْمُنْتَهَى وَمِنَ السُّرُورِ بُكَاءُ
أَبْدَأْتَ شَيْئًا لَيْسَ يُعْرَفُ بَدْوُهُ
وَأَعَدْتَ حَتَّى أَنْكَرَ الْإِبْدَاءُ
فَالْفَخْرُ عَنْ تَقْصِيرِهِ بِكَ نَاكِبٌ
وَالْمَجْدُ مِنْ أَنْ يُسْتَزَادَ بَرَاءُ
فَإِذَا سُمِّلْتَ فَلَا لِأَنَّكَ مُحْوَجٌ
وَإِذَا كُتِمْتَ وَشَتَّ بِكَ الْآلَاءُ
وَإِذَا مُدِحْتَ فَلَا لَتَكْسِبَ رِفْعَةً
لِلشَّاكِرِينَ عَلَى الْإِلَهِ ثَنَاءُ
وَإِذَا مُطِرْتَ فَلَا لِأَنَّكَ مُجْدِبٌ
يُسْقَى الْخَصِيبُ وَتُمْطَرُ الدَّامَاءُ
لَمْ تَحْكُ نَائِلَكَ السَّحَابُ وَإِنَّمَا
حُمِتَ بِهِ فَصَبَّيْهَا الرُّحَصَاءُ
لَمْ تَلَقَ هَذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا
إِلَّا بِوَجْهِ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءُ

فَبِأَيِّمَا قَدَمٍ سَعَيْتَ إِلَى الْعَلَا
أَدُمُ الْهَلَالِ لِأُخْمَصَيْكَ حِذَاءِ
وَلَكَ الزَّمَانُ مِنَ الزَّمَانِ وَقَايَةُ
وَلَكَ الْحِمَامُ مِنَ الْحِمَامِ فِدَاءِ
لَوْلَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى الَّذِي مِنْكَ هُوَ
عَقِمْتَ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاءِ

وما أراك في حاجة إلى أن أدلك على هذه المبالغات التي
أسرف الشاعر فيها إسرافاً شديداً كعهده حين يبالغ ، ولا إلى
أن أدلك على تعمده اصطناع مذاهب الصوفية واستعارته
ألفاظهم ومعانيهم ، واضطراره من أجل هذا كله إلى أن يحمل
ألفاظه أعباء ثقالاً كما في هذا البيت :

لَوْلَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى الَّذِي مِنْكَ هُوَ
عَقِمْتَ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاءِ

ولكنك توافقني فيما أظن أن المتنبي قد جاوز في هذه
القصيدة طوره الذي رأيناه فيه قبل إنشائها حين كان مضطرباً
في شمال الشام يبيع شعره في سوق الكساد ، يتجاوز هذا الطور

إلى طور جديد وثب إليه وثوباً . ووثب إليه فجأة وعلى غير انتظار أو قل دفع إليه دفعاً . دفعه إليه انهزام الأخشيدين الذين لقي في ظلهم ما لقي من الحزن ، وذاق في ظلهم مرارة الأسر والسجن والزمان ، ورجوع الأمر في الشام إلى عربي مهما يكن أمره ومذهبه ، فليس تركيا ولا زنجيا كالأخشيدي ، وابن كيغلع وكافور . ولا شك في أن هذا الأمل القوى الذي ملأ نفس المتنبى وقلبه قد رد إليه الثقة بفنه إن لم يكن رد إليه الثقة بنفسه . فهو مطمئن منذ الآن إلى أنه لن يبيع شعره في سوق الكساد . وإذا لم تعد إليه الثقة بنفسه قائداً أو زعيماً أو سيداً عظيماً ، فلا أقل من أن الثقة قد عادت إليه بنفسه شاعراً بارعاً نابغة مقرباً إلى الأمراء ، ثم إلى الملوك ثم من الخليفة . من يدري ؟

وقد رأيت كيف أثر اتصاله بالتنوخيين في فنه فوثب به من طور إلى طور ، فكيف به الآن وهو يرجو أن يتصل بمن لا يقاس إليه التنوخيون قوة وبأساً ، وثروة وجاهاً ، وقرباً من الملوك والخلفاء . ومهما يكن من شيء فقد غلب المتنبى على أمره . غلبه فنه وغلبته سنة هذا الفن ؛ كان يظن

ويرجو أن يكون رجلاً مستقلاً له رياسة وزعامة وسلطان .
وكان يظن في أول أمره أن يصلح بثورته كثيراً من شؤون
الحياة ونظم الاجتماع . ثم كان يظن بعد ذلك أن يتخذ الثورة
وسيلة إلى الحكم والسلطان إذا لم يستطع أن يتخذها وسيلة
إلى الإصلاح .

ولكن التجربة علمته أنه لم يخلق لهذا ، وإنما خلق
ليسلك طريق الشعراء من قبله فيمدح الطغام ، ثم أواسط
الناس ، ثم أشرافهم ، ثم من يدري لعله يصل إلى القصر .

غلبه فنه وغلبته طبيعة الشاعر ، وانهزم المتنبي المصلح ،
وانهزم المتنبي الطموح إلى الاستقلال ، ولم يبق من كل تلك
الآمال والمطامع إلا شاعر يلتمس الثروة والغنى ، ويجد في سبيل
اللذة المعتدلة والهدوء . وقد يقوى طمعه ، وقد تحدثه نفسه
بالطموح إلى شيء من السلطان يوماً ، ولكنه على كل حال
لن يفكر في الاستقلال ، ولن يتصور الحياة إلا في ظل رجل
عظيم من هؤلاء الذين كان يذمهم ويشهر بهم ، والذين سيذمهم
ويشهر بهم أيضاً فيما سيستقبل من أيامه .

كان كبر نفس المتنبي في شبابه خداعاً وضلالاً ، لم يلبث

أن زال عنه حين تعرض للخطر الصحيح ، وسيبقى من كبر
المتنبى هذا ، وسيبقى من رغبة المتنبى فى الإصلاح وسخطه
على الناس ، وانتقاضه على المؤلف من نظم الحياة ، كلام كثير
لا يخلو من قوة وروعة وجمال ، ولكنه كلام لا أكثر
ولا أقل .

ولست أدري أكان الأوراجى هذا قريباً أم بعيداً من
بدر بن عمار ، ولكن المتنبى أقام معه حيناً على كل حال كما تدل
على ذلك طرديته التى أشرنا إليها آنفاً ، ثم اتصل من طريق
الأوراجى هذا فيما أرى ببدر ، فلا تسلى عن فرحه ومرحه ،
ولا عن ابتهاجه وامتلاء نفسه بالغبطة والرضى ، ولا تسلى عن
ارتفاع فنه وانحطاط نفسه إذا لم يكن بد من أن تقلده مرة
فتصطنع الطباق .

٢

ومع ذلك فبدر هذا الذي يقبل عليه المتنبي وقد امتلأ
قلبه بالإقبال عليه بهجة وسروراً ، يعجز عن إخفائهما فيما
سترى من شعره ، هو الذي هجاه المتنبي نفسه قبل ذلك
بثلاثة أعوام أو أربعة ، حين ولى على حلب ، فأقبل إسحاق
ابن كيغلف من قبل الإخشيد ، فأزعجه عنها ورد إليها
واليها السابق .

وذلك حين يقول المتنبي في الدالية التي استعطف بها
ابن كيغلف وسأله فيها أن يعفو عنه :
رَمَى حَلْبًا بِنَوَاصِي الْخِيُولِ

وَسُمِّرَ يُرْقَنَ دَمًا فِي الصَّعِيدِ

وَبِيضٍ مُسَافِرَةٍ مَا يُقَمُّ

نَ لَا فِي الرَّقَابِ وَلَا فِي الْغُمُودِ

يَقْدُنُ الْفَنَاءَ غَدَاةَ اللَّقَاءِ

إِلَى كُلِّ جَيْشٍ كَثِيرٍ الْعَدِيدِ

فَوَلَّى بِأَشْيَاعِهِ الْخَرَشَنِيَّ
كَشَاءَ أَحَسَّ بَزَارِ الْأُسُودِ

يَرَوْنَ مِنَ الدُّعْرِ صَوْتَ الرِّيحِ
صَهِيلَ الْجِيَادِ وَخَفَقَ الْبُنُودِ

فقد كان بدر وأصحابه إذن غما تشفق من زئير الأسود
وكانوا هرابا تروعههم أصوات الرياح ، فيسمعون فيها صهيل
الجياد وخفق البنود .

فأما سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة حين دارت الدائرة
على الإخشيديين في هذا القسم من بلاد الشام وحين أتيحت
لبدر ولاية طبرية ، وأتيح للمتنبى أن يتصل به ، فانظر كيف
يستقبله المتنبى وكيف يتحدث عنه :

أَحْلَمًا نَرَى أَمْ زَمَانًا جَدِيدًا
أَمْ الْخَلْقُ فِي شَخْصٍ حَيٍّ أُعِيدَا
تَجَلَّى لَنَا فَأَضْ—أَنَا بِهِ

كَأَنَّا نَجُومٌ لَقَيْنَ سُـعُودَا
رَأَيْنَا بَيْـدَرٍ وَأَبَائِهِ
لِبَدْرِ وَلُودًا وَبَدْرًا وَلِيدَا

فالحياة كما ترى في ظل بدر من الروعة والجلال ومن البهجة والجمال ، بحيث تخط الأمر على الشاعر ، فيخيل إليه مرة أنها حلم ، ويخيل إليه مرة أخرى أن الزمان قد تجدد ، ويخيل إليه مرة ثالثة أن الله قد سمع لابي نواس ، فجمع الخلق كله في شخص واحد . وهو يوضح هذا كله ويجمله بهذا البيت الثاني الذي يزعم فيه أن بدرًا تجلى له وللناس ، فاكسبوا منه ضوءهم وبهاءهم كأنهم النجوم قد لاقت سعودا .

وتستطيع أن تقول : إن هذا تلون الشعراء وتقلبهم ، كما تتلون الحياة ، وكما تتقلب صروف الأيام ، وما أخالفك في ذلك ، وما أنكر عليه منه شيئاً ، وإنما ألاحظ أن صاحبنا شاعر قبل كل شيء ، يغلبه فنه وطبيعته الشاعرة المشبهة لطبيعة الشعراء المعاصرين له على ما ظهر في صباه وشبابه من القوة والأيد ، ومن شدة البأس وصعوبة المراس والطموح إلى جلائل الأعمال .

فالذين يرون هذا الاضطراب في حياة الشاعر الفتي ويحسون انهزام المصالح والفيلسوف ، وصاحب الحزم والعزم أمام الشاعر الذي يكسب حياته بالمدح الكاذب والثناء الباطل

وينكر نفسه كلما اقتضت منه المنفعة العاجلة إنكارها ،
ثم ينظرون إليه على رغم ذلك كما ينظرون إلى المصلح الفيلسوف ،
وينتظرون منه على رغم ذلك ما ينتظرون من المصلح
الفيلسوف ، يكفون أنفسهم عناء لا يغنى ، ويكفون العلم
شططا لا يستطيع العلم له احتمالا . لقد ملك الفرح بقاء بدر
على المتنبي أمره ، كأنه المسافر قد أحرقه الظمأ ، حتى كاد يشرف
على الهلاك ، ثم رأى الماء ، فأقبل عليه مندفعاً ، لا ينظر
وراءه ولا يفكر فيما قد يتعرض له بعد أن يروى غلته ، ويشفي
صداه . وكذلك اندفع المتنبي في مدح بدر بهذه القصيدة الدالية
التي أراها أولى مدائحه لهذا الأمير ، والتي أعجل فيها الشاعر
عن المقدمة والتهديد ، فلم ينسب ولم يتغن وإنما هجم على المدح
هجوماً في غير تحفظ ولا احتياط . وما أرى أنه قد جدد في
فن المدح شيئاً ، أو أحدث فيه ما لم يسبقه إليه الشعراء
المادحون . ولكنني أحس في هذه القصيدة قوة قوية مشتقة
من أمل الشاعر ونشاطه ، ومن حدة نفسه وتهالكه على الراحة
بعد التعب ، وعلى الرضا بعد السخط ، وعلى الغنى بعد الفقر ،
وعلى الأمن والهدوء ، بعد الخوف والإشفاق .

وهذه القوة تفيض على القصيدة رونقاً يجرى في أبياتها
شيئاً من الإشراق المبهج الذي يحببها إليك ، ويجذبك إليها
وإن لم تجد فيها غناء . وهي تفيض على ألفاظ القصيدة جزالة
لا تجحد ، ورصانة ليس فيها شك ، وما أرى إلا أن
ما كان يملأ نفس الشاعر من فرح وأمل ونشاط ، هو الذي
دفعه إلى هذا البحر المتقارب الذي يلائم اضطراب النفس
بالأمل القوي حين تضطرب بالأمل القوي ، وغليان النفس
بالحزن المضطرب حين تغلي بالحزن المضطرب .

واقراً معي هذه الأبيات فسترى هذا كله واضحاً فيها
أشد الوضوح :

طَلَبْنَا رِضَاهُ بِتَرْكِ الذِي
رَضِينَا لَهُ فَمَرَكْنَا السُّجُودَا
أَمِيرُ أَمِيرٍ عَلَيْهِ النَّدَى
جَوَادٌ بِخَيْلٍ بَأْنٌ لَا يَجُودَا
يُحَدِّثُ عَنْ فَضْلِهِ مُكْرَهَا
كَأَنَّ لَهُ مِنْهُ قَلْبًا حَسُودَا

وَيُقَدِّمُ إِلَّا عَلَى أَنْ يَفِرَّ
وَيَقْدِرُ إِلَّا عَلَى أَنْ يَزِيدَا

فانظر إلى الشاعر كيف يؤثر الإيجاز في أبياته ويفر من التفصيل فراراً. يضمن كل بيت معنى مستقلاً ، وقد يضمن البيت معنيين مستقلين بكل واحد منهما شطر من الشطرين . كأنما الشاعر عجل يريد أن يغلب الأمير على التفكير والروية ، فهو يرميه رمياً سريعاً جداً بهذه الأزهار المتلاحقة التي ليس بينها أناة ولا مهل ، حتى يبهز الأمير ويعجله عن أن ينظر في هذه الأزهار نظر الممتحن المتخير ، أو كأنه يريد أن يدفنه في هذه الأزهار ، فهو يلح عليه بها إلحاحاً حتى يضطره إلى أن يقفه ، وأن يقول له حسبك فقد أرضيت وأريت .

ولسنا نحن معجلين عن التفكير والروية ، ولسنا نخاف من الشاعر أن يدفننا في أزهاره هذه ، فقد ذبلت هذه الأزهار بعد أن مضى عليها أكثر من عشرة قرون . ونحن إذن ننظر فيها على نحو من الأناة والمهل ، يكشف لنا عن نفس الشاعر الذي صاغها ووهبها هذا الأمير .

ونحن إذا نظرنا في هذه الأزهار ، دلتنا على أن الشاعر

كان يريد أن يبهز ممدوحه من جهة ، وكان صادقاً في تصوير ما يملأ نفسه ويملكها من الفرح والمرح والسرور ، فهو يصطنع المبالغة ، ولكنه لا يتكلفها ليخدع بها الممدوح عن نفسه وماله ، وإنما تصدر عنه في غير تكلف ؛ لأنها تصور نفسه الراضية المبتهجة الآملة . كان يريد أن يسجد للأمير ، ولكن الأمير كره أن يُعبد من دون الله ، فأرضاه الشاعر بترك السجود له . ولو أن بدرًا طغى على نفسه وعلى الناس ، وخرج عن طوره ، ورضى من المتنبي وأشباهه أن يسجدوا له لما تردد المتنبي ، فيما أرى ، ولما كره أن يتقرب إليه بالسجود وأن يخرج له عن هذه الكبرياء ، التي صورته لنا في شبابه عزيزاً ألباً لا يقبل الضيم . وسنرى أن حياة المتنبي منذ ذلك الوقت ليست إلا سلسلة متصلة من بذل هذه الكبرياء ، للسادة والقادة والأمراء ، ثم البكاء عليها بعد أن يبذلها ويفرط فيها . وسنرى أن المتنبي لم يخرج لبدر وأشباهه عن كبريائه وحدها ، بل خرج لهم عن أشياء كثيرة أخرى ليست أقل من الكبرياء خطراً عند الرجل الكريم .

والمتنبي يرى أن بدرًا هو الأمير كل الأمير لا يؤمر عليه

إلا الندى ، ويرى أنه الجواد ، كل الجواد لا يبخل على الناس
إلا بالبخل . ويرى أنه إذا مدح كره المدح وضاق به ، كأنه
يحسد نفسه ، ويرى أنه يقدم على كل شيء إلا الفرار ، ويقدر
على كل شيء إلا على أن يزيد حظه من الفضيلة لأنه قد بلغ
أقصاها الذي لا مزيد عليه .

والشاعر يمضي على هذا النحو إلى آخر القصيدة : معان
قوية تستمد قوتها من المبالغة والطباق ، ومتلاحقة يدفع
بعضها بعضاً ، وتحملها إلى أذن الممدوح ألفاظ خفيفة سريعة
كأن لها أجنحة تشق بها الهواء . وهي مع ذلك متينة رصينة
لا تؤذى السمع ولا تنبو عن الطبع . فإذا بلغ المتنبي رضا
ممدوحه ، وأخذ من ماله حتى اكتفى ، وأمن بعد خوف ،
واستراح بعد جهد ، وتغطى كما يقول أبو نواس من دهره
بظل جناحه ، ثابت إليه نفسه ، وعاد إليه رشده ، وتقدم
في مدحه هادئاً مطمئناً ومفكراً مروياً .

ويجب أن نعتدل ونقتصد حين نذكر تفكير المتنبي
وترويته ، فهو لا يفكر ولا يروى إلا في فنه ، فأما في طبيعة
الأشياء ، وأما فيما يحسن وما لا يحسن ، وأما فيما يقال وما لا يقال .

فالمتنبى لا يعرف تروية ولا تفكيراً . وإنما هو إذا أقبل على بدر
بالمدح بعد هذه القصيدة سلك طريقه المألوف ، واصطنع الأناة
والمهل . فقدم النسيب والغناء بين يدي المدح والثناء ، ولم يندفع
بمعانيه وألفاظه اندفاع السيل المنحدر من القمة العالية إلى
القاع السحيق ، وإنما سار بها سيراً يختلف سرعة وبطئاً ،
ولكنه معتدل على كل حال . وهو غير معجل عن نسيبه
حين ينسب ، ولا عن تشبيهه حين يشبه ، ولا عن وصفه
حين يصف ، وهذا لا يمنعه من المبالغة والإسراف ، بل قد
يدفعه إليهما دفعاً .

فانظر إلى هذه القصيدة التي مدح بها بدرًا ، وقد أراد
الطبيب أن يفصده فغلاظ عليه وأذاه ذلك بعض الشيء ،
فسترى أنه قد عاد فيها إلى مذهبه ومذهب غيره من الشعراء ،
فقدم بين يدي المدح بهذا الغزل المصنوع الذي يظهر فيه
جهد العقل والفن أكثر مما تظهر فيه حرارة العاطفة وقوة
الشعور . ثم تغنى بعد ذلك بشيء يسير من أمره ومن خلقه ،
وكأن صوابه قد ثاب إليه ، وكأنه يسترد من نفسه بعض
ما أعطى ، فهو يتحدث بكثرة تنقله ، وبأنه إذا أنكر قوما

زال عنهم ، وبأن أرض الله واسعة وفيها للكريم مضطرب
كما قال القدماء .

ثم هو بعد ذلك يمضي في مدح بدر ، حتى يصل إلى خطأ
الطبيب . فانظر إليه كيف يصور هذا الخطأ في هذا التكلف
الذي قد لا يخلو من سماجة تخفيها جزالة الألفاظ ورصاتها :

لَمْ تَبْقِ إِلَّا قَلِيلَ عَافِيَةٍ

قَدْ وَفَدَتْ تَجْتَدِيكُمَا الْعِلْلُ

عُذْرُ الْمَلُومِينَ فِيكَ أَنَّهُمَا

أَسِ جَبَانٌ وَمُبْضَعٌ بَطْلُ

مَدَدَتْ فِي رَاحَةِ الطَّيِّبِ يَدًا

فَمَا دَرَى كَيْفَ يُقَطِّعُ الْأَمْلُ

إِنْ يَكُنِ الْبَضْعُ ضَرًّا بَاطِنَهَا

فَرُبَّمَا ضَرَّ ظَهْرَهَا الْقَبْلُ

يَشُقُّ فِي عِرْقِهَا الْفِصَادُ وَلَا

يَشُقُّ فِي عِرْقِ جُودِهَا الْعَذْلُ

خَامِرُهُ إِذْ مَدَدَتْهَا جَزَعٌ

كَأَنَّهُ مِنْ حَذَاقَةِ عَجَلُ

جَازَ حُدُودَ اجْتِهَادِهِ فَأَتَى
غَيْرَ اجْتِهَادٍ لِأَمِّهِ الْهَبْلُ
أَبْلَغُ مَا يُطْلَبُ النَّجَاحُ بِهِ ۥ
طَبَعُ وَعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلَلُ
ارْثِ لَهَا إِنِّهَا بِمَا مَلَكَتْ
وَبِالَّذِي قَدْ أَسَلَتْ تَنْهَمِلُ
مِثْلَكَ يَا بَدْرُ لَا يَكُونُ وَلَا
تَصْلُحُ إِلَّا لِمِثْلِكَ الدُّوَلُ

أما أنا فلا أرى في هذا الكلام جمالاً ولا حسناً ، وإنما
أرى فيه صنعة ثقيلة ، وتكلفاً بغيضاً ، وسماجة يخفيها الفن
ويسبغ عليها زينة كاذبة ، وحيلة باطلة . وليس يعدل ما في
هذا الكلام من السماجة الخفية إلا هذه السماجة الظاهرة في
بيت آخر من هذه القصيدة يسبق هذه الأبيات وهو قوله :
يا بَدْرُ يا بَحْرُ يا غَمَامَةُ يا

لَيْثَ الشَّرَى يا حِمَامُ يا رَجُلُ
وما أشك في أن المتنبي كان معجباً بهذا البيت ، وما أشك

في أنه أنشده مقطوعاً له ، واقفاً عند كل جزء من أجزائه .
وقد ملأه التيه والغرور ، وما أشك في أن إعجاب بدر بهذا
البيت لم يكن أقل من إعجاب المتنبي . وما أرتاب في أن
كثيراً من الناس يعجبون به ويغنون فيه ، كما فعل المادح
والممدوح . ولكني لا أدري لماذا يخيل إلى أن هذا البيت يصور
أسمج ما كان في المتنبي حين كان ينشد بين يدي ممدوحيه
من هذه الخيلاء التي لا تمثل إلا ذلة وضعة وضعفاً وسخفاً .

على أن أجود ما قال المتنبي في بدر عندي هي لاميته ،
التي يصف فيها ما كان بين بدر وبين الأسد من صراع
ينتصر فيه بدر . فالمتنبي قد صور الأسد المصارع المدافع في
هذه القصيدة ، وصور هذا الصراع والدفاع تصويراً رائعاً بارعاً ،
برز فيه نفسه ، وفاق فيه طاقته ، وخرج فيه عن طوره المألوف .
وأكاد أعد هذه القصيدة من آيات المتنبي ، بل أنا أعدها
من هذه الآيات ، ولا سيما هذا القسم الوصفى منها ، لولا أن
فيها سخفاً سخيفاً ورطته فيه المبالغة ، وردته إلى بعض
ما كان يهذى به في شبابه مما ينحرف عن الدين في غير
روية ولا تفكير ولا غناء فلسفي . فقد يحتمل من الشاعر

أو المفكر أن ينحرف عما يألف الناس وعما يحبون ويؤثرون
حين يدعوه إلى ذلك لون من ألوان الجمال ، أو يغريه بذلك
فن من فنون التفكير ، أو رأى من الآراء الفلسفية . فأما أن
يتجاوز القصد وينحرف عن المؤلف لا لشيء إلا ليزيد في
تملق ممدوحه ، ويزيد بذلك حظه من الجائزة ، فهذا هو
الصغار الذي لا ترضاه إلا النفس الصغيرة . وهذا السخف
الذي دفع إليه المتنبي في هذه القصيدة هو قوله :

لو كَانَ عِلْمُكَ بِالْإِلَهِ مُقَسَّمًا

فِي النَّاسِ مَا بَعَثَ إِلَهُ رُسُلًا

لو كَانَ لَفْظُكَ فِيهِمْ مَا أُنْزِلَ أَلْ

فِرْقَانِ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

أفتراه طمع في أن يستهوى بداراً إلى قرمطيته القديمة ؟
من يدرى ؟ ولكننا نتجاوز له عن هذا السخف في سبيل
هذا الوصف الرائع الذي لا بد من روايته لأنه أجمل من
أن يهمل :

أَمُعِفَّرَ اللَّيْثِ الْهَزْبِ بِسَوْطِهِ

لَمَنْ ادَّخَرَتْ الصَّارِمَ الْمُصْقُولَا

وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُ بَلِيَّةٌ
نُضِدَتْ بِهَا هَامُ الرَّفَاقِ تُلُولًا
وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْبُحَيْرَةَ شَارِبًا
وَرَدَ الْفُرَاتِ زَيْبُهُ وَالنِيْلَا
مُتَخَضَّبٌ بِدَمِ الْفَوَارِسِ لَا بَسُ
فِي غِيْلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيْلَا
مَا قُوبَلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظَنَّتَا
تَحْتَ الدُّجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولَا
فِي وَحْدَةِ الرُّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ
لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا
يَطَّأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقًا مِنْ تَيْبِهِ
فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجْسُ عَلَيْهِ
وَيَرُدُّ عُفْرَتَهُ إِلَى يَافُوخِهِ
حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إَكْلِيلَا
وَتَظُنُّهُ مِمَّا يُزْمَجَرُ نَفْسُهُ
عَنْهَا لِشِدَّةِ غَيْظِهِ مَشْغُولَا

وَيَدُقُّ بِالصَّدْرِ الْحِجَارَ كَأَنَّهُ
يَبْغِي إِلَى مَا فِي الْحَضِيضِ سَبِيلًا
وَكَأَنَّهُ غَرَّتْهُ عَيْنٌ فَادَّنى
لَا يُبْصِرُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلًا
أَنْفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدَّيْئَةِ تَارِكٌ
فِي عَيْنِهِ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ قَلِيلًا
وَالْعَارُ مَضَاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ
مِنْ حَتْفِهِ مَنْ خَافَ مِمَّا قِيلَا
سَبَقَ التَّقَاءَ كَهُ بُوْثْبَةً هَاجِمٍ
لَوْ لَمْ تُصَادِمُهُ لَجَاؤُكَ مِيلَا
خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحَتْهُ
فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيلَا
قَبِضَتْ مَنِيتُهُ يَدَيْهِ وَعُنَقُهُ
فَكَأَنَّمَا صَادَفَتْهُ مَغْلُولَا
سَمِعَ ابْنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ
فَنَجَا يَهْرُؤُلُ أَمْسَ مِنْكَ مَهْلُولَا

وَأَمْرٌ مِّمَّا فَرَّ مِنْهُ فِرَارُهُ

وَكَقَتْلِهِ أَنْ لَا يَمُوتَ قَتِيلًا

فهذا كلام يكفي أن تنظر فيه نظراً سريعاً لتحس ما فيه من جمال وروعة ، وترى فيه فتوة وقوة ، ما أرى إلا أن الشاعر قد استعارها من نفسه ، وخلعهما على مدوحه ، لا لأنى أجحد بلاء ابن عمار حين رد الأسد عن نفسه بالسوط ، بل لأنى أحس روح الشاعر يجرى فى هذا الكلام قويا فتيا مستجمعا قوته وفتوته ، كأحسن ما استجمعهما فى شعره كله . وأنت تستطيع أن تقدر ما فى هذا الكلام من جزالة تلائم ما فيه من سهولة ويسر ، وأن تقدر ما وفق إليه الشاعر أحسن توفيق من وصف الناس ، والفرس ، والليث ، وما كان بين الخصمين من صراع ، ثم من الجمع بين وصفه المادى ، ووصفه المعنوى النفسى لليث إن صح هذا التعبير . ثم من حديث هذا الأسد الآخر الذى جعله ابن عمة الأسد القليل ، فقد سمع بما ألم بابن خاله ، ففر وآثر العافية لنفسه .

وأنت معجب كذلك بهذه الأبيات التى ينثر الشاعر فيها حكما وأمثالا أثناء هذا الوصف الرائع ، لا لأن هذه

الحكم والأمثال طريفة في نفسها ، فهي مما ألف الناس ،
بل لأن موقعها أثناء هذا الوصف لا يخلو من الطرافة .
فالناس إنما يفلسفون ويضربون الأمثال حين يتحدثون
عن بلاء الانسان وما يحدث له من الخطوب . فإذا تحدثوا
عن بلاء الحيوان وما يعرض له من الأمر ، فقلما يفلسفون لأن
الحيوان نفسه لا يفلسف ولا يروى . ذلك إلى أن مكان هذه
الحكم والأمثال يشيع في هذا الوصف غناء يخرجها عن أن
يكون وصفاً عادياً ، كما يخرجها عن أن يكون مدحاً عادياً .
ولسنا نعرف دقائق حياة المتنبي عند بدر ، ولكننا
نقدر أن هذا الشعر الرائع قد أرضى بدرا كل الرضى ، وأثار
في نفوس حاشيته شيئاً من الحسد ، لم تلبث آثاره أن ظهرت
واضحة كل الوضوح . وقد أشار إليها المتنبي نفسه في هذه
اللامية الأخرى التي مدح بها بدرًا ، والتي يقول فيها :

بَقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمْ اِرْتِحَالًا

وَحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا لَا الْجَمَالَ

فهو ينسب في أول هذه القصيدة نسيباً مصنوعاً كعهده
منذ أقام عند بدر ، ثم ينتقل من هذا النسيب إلى غناء يذكر

فيه نفسه ، ولا شك في أنه يعرض فيه بحاله الخاصة ، ويكاد
ينبئنا بأنه سيضطر إلى الرحيل عن بدر . وذلك حيث يقول :

كَأَنَّ الْحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقَلْبِي

فساعة هَجَرَهَا يَجِدُ الْوَصَالَا

كذا الدنيا على مَنْ كَانَ قَبْلِي

صُرُوفٌ لَمْ يَدْمَنَّ عَلَيْهِ حَالَا

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ

تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالَا

أَلِفْتُ تَرَحُّلِي وَجَعَلْتُ أَرْضِي

قُتُودِي وَالْغُرَيْرِي الْجُلَالَا

فَمَا حَاوَلْتُ فِي أَرْضٍ مُقَامَا

وَلَا أَزْمَعْتُ عَنْ أَرْضٍ زَوَالَا

عَلَى قَلْقٍ كَأَنَّ الرِّيحَ تَحْتِي

أُوجِّهُهَا جَنُوبًا أَوْ شَمَالَا

وكأنه أشفق أن يفهم عنه هذا التعريض على وجهه ، وأن

يشعر بما يدبر في نفسه ، فجعل هذا البيت الأخير تلخيصا إلى صاحبه ، وزعم أنه يوجه هذه الرياح إلى بدر ، ثم يمضي في مدح بدر حتى يصل إلى هذين البيتين اللذين سيتمثلهما في بغداد بعد أكثر من خمس وعشرين سنة ، حين يلح عليه شعراء العراق بالهجاء ، فيسأله أصحابه أن يرد عليهم ، فيزعم أنه سبق إلى الرد عليهم في شبابه حين قال :

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غُرُوا بِذِمِّي

وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالَا

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ

يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءُ الزُّلَالَا

وقد أضاف ابن رائق السواحل إلى عمل بدر ، فهنأه المتنبي بمقطوعة تجدها في الديوان ، ولكن بدرا حين سافر إلى السواحل ليتسلم ما أضيف إليه من الأقاليم ، لم يصحبه المتنبي في سفره هذا . وانتهز خصومه هذه الفرصة ، فأغروا به الأمير وحرضوه عليه ، وكان إغراءهم وتحريضهم قد وقع من نفس بدر موقعا ، فنحن نرى المتنبي يمدحه بعد عودته ويعتذر إليه من هذا القعود ، بل

يستغفره هذا الذنب في قصيدة نونية ليست في نفسها شيئاً .
ولعل روحاً من السماجة يجرى فيها خفياً حيناً وظاهراً حيناً
آخر . ولكننا نروى منها هذه الأبيات التي يصرح فيها بذكر
حساده وخصومه : ❧

فَطَنَ الْفَوَادُ لَمَّا أُتِيتُ إِلَى النَوَى
وَلَمَّا تَرَكْتُ مَخَافَةً أَنْ تَفْطُنَا
أُضْحَى فِرَاقُكَ لِي عَلَيْهِ عُقُوبَةٌ
لَيْسَ الَّذِي قَاسَيْتُ مِنْهُ هَيِّنًا
فَاغْفِرْ فِدَى لَكَ وَاحْبُنِي مِنْ بَعْدِهَا
لَتَخَصَّنِي بِعَطِيَّةٍ مِنْهَا أَنَا
وَأَنَّهُ الْمُسِيرَ عَلَيْكَ فِي بَضَلَةٍ
فَالْحُرُّ مُمْتَحَنٌ بِأَوْلَادِ الزِّنَى
وَإِذَا الْفَتَى طَرَحَ الْكَلَامَ مُعَرَّضًا

فِي مَجْلِسٍ أَخَذَ الْكَلَامَ الَّذِي عَنَى
وَمَكَائِدُ السُّفَهَاءِ وَاقِعَةٌ بِهِمْ
وَعَدَاوَةُ الشُّعْرَاءِ بِئْسَ الْمُقْتَنَى

لَعِنْتُ مُقَارَنَةَ اللَّثَامِ فَإِنَّهَا
ضَيْفٌ يَجْرُ مِنْ النَّدَامَةِ ضَيْفَنَا
غَضَبُ الْحَسُودِ إِذَا لَقِيَتْكَ رَاضِيًا
رُزْءٌ أَخَفُّ عَلَى مَنْ أَنْ يُوزَنَا

(٣)

فما الذى هاج الحساد على المتنبي حتى وشوا به عند
بدر ، وأخذوا يفسدون ما بينهما ؟ أهو ما قدمناه من أن
المتنبي قد برع فى مدح بدر حتى أراضاه ، ومن أن بدرًا قد
جد فى إعطاء المتنبي حتى أراضاه أيضا ، فنشأ عن هذا ما ينشأ
عادة فى نفوس المقر بين من الأمراء وأصحاب السلطان ، حتى
انتهى بهم الأمر إلى الكيد لهذا الشاعر الطارئ ، الذى
صرف عنهم الأمير شيئا ، وهم حراس على أن يخلو لهم وجهه ؟
ليس من شك فى أن شيئا من هذا قد هاج حسد
الحساد على المتنبي ، وقد نستطيع أن نضيف إلى هذا ما يلائم
طبيعة البيئة العراقية التى انتقلت مع بدر إلى طبرية . فقد
كانت هذه البيئة ماهرة فى الكيد حقًا ، تعيش فيه كما
يعيش السمك فى الماء ، وتفسد حياتها إن خرجت من
الكيد أو اضطرت إلى شئ من الصراحة والنقاء . وأيسر
نظرة وأعجلها فى حياة القصر البغدادى ، تقنعنا بأن الكيد

كان قوام الحياة حول الأمراء ، وأصحاب المناصب في ذلك العصر . فليس غريبا إذن أن يشقى المتنبي بهؤلاء الكائدين ، وألا يطول ابتهاجه بالإقامة عند هذا الأمير الذي كان يقدر أنه سيملي عنده الأمن والهدوء وتحقيق الآمال . ولكن يجب أن نلاحظ شيئين ، بل أشياء :

الأول : أن المتنبي كان مفتونا بنفسه ، يظهر ذلك في شعره وحديثه وسيرته ، ويستعلي على أصحابه عند الأمير .

الثاني : أن المتنبي لم يألَف قبل ذلك الوقت معاشرة السلطان ولا حياة القصور ، وإنما ألم بشيء يسير جداً من ذلك مع التنوخيين في اللاذقية ، ثم صرفته عنه المحنة ، ثم عاش مشردا يكسب حياته بمدح أوساط الناس وبالتنقل في البادية . فلما اتصل ببدر استقبل حياة لم يكن قد هيَّء لها ، فلم يحسن تعرف ما يحتاج إليه الأمير من شاعره . وليس أدل على ذلك من قعوده عن مصاحبة الأمير في سفره إلى الإقليم الذي أضيف إليه ، والذي هنأه به المتنبي نفسه .

والثالث : أن الأمير قد أخلص في حب المتنبي وإثاره بالخير ، واصطفاه لنفسه ، حتى ألغى الحجاب بينه وبينه ،

واستطاع المتنبي أن يدخل عليه ، وقد حجب نفسه عن الناس^(١) . ثم اشترك المتنبي معه في لهوه وعبثه ومجونه ، ونحن نرى من الديوان أن صاحبنا لم يكن نديماً يحسن المنادمة ، فهو كان يمتنع على الأمير إذا طلب إليه الشرب ، ولا يستجيب له إلا كارهاً . وهو كان يظهر من ذم الخمر والانصراف عنها مالا يرضى فتى ماجنا لاهيا من فتيان العراق . وكان المتنبي يأتي ذلك في صراحة لا تعرف التحرش . ثم إذا أُلح الأمير عليه في الشرب شرب حتى سكر ، وحتى ذهل عما يأتي وعما يقول .

فليس غريباً أن يشغل هذا منه على الأمير ، وأن تنتهز حاشية الأمير الفرصة فتضيف كيداً إلى كيد . وكان المتنبي إذا خلا إلى الأمير في ساعات لهوه أكثر من ارتجال الشعر لحاجة ولغير حاجة ، يريد أن يبهر الأمير ويسحره ، ويستعلي على حاشيته وندمائه حتى ظننت به الظنون ، وحتى زعم ابن كروس للأمير أنه يصنع هذا الشعر ويهيئه قبل أن يحضر المجلس . فامتحنه بدر في القصة المعروفة^(٢) التي تحدثنا بأنه

(١) انظر الواحدى ص ٢٣٨ .

(٢) » » ص ٢٤٣ .

أحضر لعبة تمثل فتاة قد وقفت على رجل ورفعت رجلها
الأخرى وهي تدار على لولب . فإذا وقفت بجذاء أحد من
المجلس نقرها فدارت عنه إلى غيره . فقال فيها المتنبي شعرا
كثيرا لا يملك قارئه إلا أن يفكر في أحاديث هوفسان .

وثبت لبدر ولابن كروس أن المتنبي يرتجل حقاً . وكان
المتنبي خليقا أن يكتفى بهذا ، ولكنه سجل انتصاره تسجيلا .
وكذلك لم يكن المتنبي يحسن احتمال ما يلقي من الدعابة فضلا
عن الكيد ، فكان ذلك يحفظ خصومه ، ويزيدهم مكرا به
وحنقا عليه .

وقد أكره المتنبي على الشرب ليلة ، فشرب حتى سكر
وذهل عن نفسه ، فلما أصبح غدا على الأمير ، فعرض عليه
الشراب ، فقال هذه الأبيات التي تصور غلظته وخشونة
طبعه ، وأنه إن صلح المدح والمدح الرائع ، فهو أغاظ روحا
وأجفى طبعا من أن يصلح لمنادمة الأمراء من أهل العراق :

وَجَدْتُ المُدَامَةَ غَلَابَةً

تُهَيِّجُ لِلْقَلْبِ أَشْوَاقَهُ

تَسِيُّ مِنَ الْمَرْءِ تَأْدِيبُهُ
 وَلَكِنْ تُحَسِّنُ أَخْلَاقَهُ
 وَأَنْفَسُ مَا لَفَتِي لُبُّهُ
 وَذُو اللَّبِّ يَكْرَهُ إِفْثَاقَهُ
 وَقَدْ مَتَّ أَمْسٍ بِهَا مَوْتَهُ
 وَلَا يَشْتَهِي الْمَوْتَ مَنْ ذَاقَهُ

تقصير في خدمة الأمير حين يجد الجد ، وقصور عن خدمة
 الأمير في أوقات اللهو ، وجهل بحياة القصور ، وامتلاء
 بالنفس ، وازدراء للأشباه والنظراء ، ومن يدري ؟ لعل لسان
 المتنبى لم يكن يستقر في فمه إذا خلا إلى من كان يظنهم أصدقاءه
 وأصفياه . فإذا أضفت إلى هذا كله كيد رجال القصور ، لم
 تجد غرابة في أن يفسد الأمير على المتنبى كل الفساد ، وفي أن
 يتغير عليه قلب بدر ، ويعجز هو عن إصلاح أمره ، وينظر
 فإذا هو معرض للغضب ثم للخطر . وإذا هو مخير بين هذا
 الشر ، وبين شر آخر كان يظن أنه قد استراح منه إلى آخر
 الدهر وهو الفرار .

٤

وقد فر من جوار بدر فلم يبعد أول الأمر ، وإنما نزل
في جبل جرش ^(١) على صديق له يعرف بأبي الحسن علي بن
أحمد الخراساني ، ومدحه بقصيدة أقل ما تدل عليه شيئان :
أحدهما أن هذه المحنة الجديدة إن نالت من نفسه فإنها لم
تنل من فنه بحال من الأحوال . فالشاعر مالك لأمره كله
كعهده في أحسن أوقات الرضى والأمن عند بدر ، لم يضعف
فنه ولم يمسسه شيء من هذا الفتور ، بل من هذا الانحلال
الذى أدركه بعد أن انجلت عنه محنة السجن . ومعنى هذا
أن فن الشاعر كان قد نضج واستحصد ، وانتهى إلى حيث
لا تفسده المحن ، ولا تزيده المصائب إلا قوة ونضجاً
واستحصاداً

وهذا هو الذى يحملنى على أن أخالف بعض الذين
أرّخوا المتنبي من المحدثين ولا سيما الأستاذ بلاشير ، فأرد

(١) انظر معجم البلدان لياقوت

بعض القصائد التي قالها في مدح جماعة من الأنطاكين إلى عهد ضعفه وفتوره ذاك قبل أن يلحق ببدر . وسنرى حين نتبع المتنبي في طريقه كلها ، أن الحن قد تضعف عزمه وتؤثر في نفسه ، ولكنها لن تبلغ من فنه إلا مرة أو مرتين ، وسنجد لذلك علله الصحيحة التي ليس بينها وبين الحن صلة ، وإنما هي متصلة بنفس الشاعر أو بالموضوع الذي سيعالجه على غير استعداد للقول فيه . فهذه القصيدة التي نحن بإزائها متقنة كل الاتقان ، تصور الشاعر محتفظا بسلطانه الفني ، وقدرته على تصريف الألفاظ والمعاني كما يريد .

والشيء الثاني الذي تدل عليه هذه القصيدة أن نفس الشاعر قد أوديت حقاً بهذه الحنة الجديدة ، وأوديت في أعماقها . فالشاعر محزون ، وربما كانت هذه الكلمة أضعف من أن تؤدي ما كان يجد الشاعر من الألم بعد خيبة أمله في بدر ، وإن شئت فقل : إن الشاعر في هذا الوقت كان يجمع في نفسه بين خصلتين متناقضتين ، أو بين خصال متناقضة : فهو قد أحس الذل وانكسرت له نفسه ، واحتمل ما لم يتعود أن يحتمل من الضيم ، وهو يجد لذلك لذعا أليماً لا يكاد يطيقه .

ثم هو يحس كأن نفسه الأولى قد ثابت إليه ، وكأن عزمه القديم قد راجعه ، وكان شيئاً يناجيه من أعماق شبابه الماضي ، يدفعه إلى أن يثور آيباً للضم نايباً على الذين أرادوا أن يضيّموه وهو من أجل ذلك يحس كبر نفسه وعزتها وارتفاعها عن صغائر الأمور . وأنها أكرم عليه وأشرف عند الناس من أن تطمئن إلى ما أريد بها من الذلة والهوان .

ثم هو بعد هذا كله لم ينس التجربة القديمة ، ولم يغيب عنه أثرها فيه وانتهزامه لها ، فهو في حاجة إلى كثير من الحذر والاحتياط ، والمهل والأناة ، لا يكاد يهتم بالوعيد والنذير حتى يشوب إلى رشدته ، ولذا هو يحول هذا الوعيد والنذير عن وجهه ، ويجعله أداة شعرية يتخلص بها إلى ممدوحه ليس غير . والشاعر في هذه القصيدة مشغول النفس بهذا الحزن الذي يملأ قلبه عن النسيب والغزل ، وتكلف الصنعة الفنية . فهو إذا أراد أن يمدح لم يقدم بين يدي المدح إلا بهذا الغناء الذي يصور هذه الخصال التي حدثتك عنها آنفاً .

واقراً معي هذه الأبيات التي يتغنى الشاعر فيها بآلامه وخيبة آماله ، فسترى أن أول ما يتغنى به من ذلك ، إنما هو

الذل الذى أحسه ، والندم الذى يحرق قلبه ، لأنه رضى هذا
الذل وأقام عليه :

لا افتخارٌ إلا لمن لا يضامُ
مُدركٌ أو محاربٌ لا ينامُ
ليس عنماً ما مَرَضَ المرءُ فيه
ليس همّاً ما عاقَ عنه الظلامُ
واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيه
به غذاءٌ تَضَوَّى به الأجسامُ

كانه حين أراد أن ينشئ هذه القصيدة استوحى
شيطانه الشعر ، فأحس أن هذا الشيطان يريد أن يدفعه
إلى الفخر وأن يوحى إليه منه ألواناً كما تعود أن يفعل .
ولكن الشاعر لا يرى نفسه أهلاً للفخر ولا خليقاً به بعد
أن ذاق من الذل ما ذاق ، واحتمل من الضيم ما احتمل ،
فهو يمتنع على شيطانه ويأبى أن يتلقى عنه هذا الوحي الذى
لا يلائم حاله ، ولا يصور ما يجد فى نفسه . إنما الفخر لمن
يأبى الضيم ويمتنع على الذل منتصراً على الحن والخطوب ،

قد ضحى في هذه المقاومة بالراحة والنوم ، وآثر الجهاد
والسهاد . وما فعلت من ذلك شيئاً وإنما انهزمت للمحنة
حين ألت بى ، وآثرت الراحة حين أتيت لى ، وأنا
أحس من نفسى عزماً ماضياً وهمّاً بعيداً ، ولكن ما هذا
العزم الذى يقصر صاحبه عن إنفاذه . وما هذا الهم الذى
يرتد عنه صاحبه لأول ما يعرض له من العقبات .

كلا ! إني أحس في نفسى حاجة إلى شىء غير الفخر .
أحس في نفسى ألماً ، وفي جسمى سقماً ، وأكاد أندفع إلى
أن أشكو وأبكى ، لا إلى أن أفاخر وأكأثر . لقد احتملت
الأذى ، ورأيت من كان يجنيه على ويلحقه بى ، فلم أدفع
الأذى عن نفسى ، ولم آخذ من جانيه بحق ، وإنما أذعنت
واستسكنت ، وآثرت الخضوع والاستسلام .

والشاعر في هذا الكلام صادق اللهجة حقاً ، تحس
في شعره أن فؤاده يتفطر ألماً ، وأن صدره يغلى غيظاً
وحنقاً :

ذَلَّ من يَغْبِطُ الدَّلِيلَ بَعِثْ
رُبَّ عَيْشٍ أَخَفَّ مِنْهُ الْحِمَامُ

كلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ
حُجَّةٌ لَأَجَى إِلَيْهَا اللَّثَامُ
مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ
مَا لَجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ

وكان شيطانه قد جعل يعزیه ويسليه ، ويهوّن عليه
احتمال الخطب ، فزعم له أنه لم يحتمل ما احتمل ، ولم يرض
مارضى إلا ليلبغ ما كان يتوق إلى بلوغه من الثروة والأمن
وخفض العيش . وكان شيطانه جعل يذكره بأنه كثيرا
ما أنكر أن ينعم الجاهلون ويشقى العاقلون . ثم يتحدث
إليه بأن النعمة قد أتت له ، فسعى إليها واشتراها بثمنها ،
فهو يحببه بهذا البيت :

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بَعِيشٍ
رُبَّ عَيْشٍ أَخَفَّ مِنْهُ الْحِمَامُ

فإذا عجز شيطانه عن إقناعه من هذه الطريق ، سلك
إلى إقناعه طريقا أخرى ، فزين له أنه لم يرض ذلّا ولم
يقبل ضيّا ، وإنما صبر وغفر وآثر العفو والحلم ، ولكن

هذا الباطل لا يخدع الشاعر عن نفسه ، ولا يشغله عما
يملا قلبه من ندم ولوعة ؛ فهو يعلم حق العلم أنه لم يؤثر
عفوا ولا حلما ، وإنما كان عاجزاً عن أن ينتقم لنفسه .
ولن يكون الرضا حلما ، حتى تصحبه القدرة على الجهل ،
ولن يكون الإغضاء عفواً حتى تصحبه القوة على البطش :

كُلِّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ
حُجَّةٌ لَاجِيَةٌ إِلَيْهَا اللَّئَامُ

كلا ! إن النفس لم تصغر علىَّ إلى هذا الحد ، وإني
لم أياس منها بعد ، وإنما أنا أجد بقية من الأمل وفضلا
من الرجاء ! لست أحس الألم لما أدركني من مساءة . لو
كانت نفسي هينة لسهل عليها احتمال الهون ، كما أن الميت
لا يؤذيه ما يلحق جسمه من جراح .

ثم يثب الشاعر من هذا الضعف والانحلال ، ومن هذا
اللوم الذي كان يغمر نفسه به إلى شيء جديد من الأمل
والنشاط ، بل إلى أكثر من الأمل والنشاط . فقد فتح له
باب الرجاء ، واستيقن أنه ما دام لم يرض الذل ولم يحتمله

راضياً به غير متألم له ، فهو خَلِيقٌ أن يعرف نفسه وأن يسلك
طريقه إلى المجد . فقد يكبو الجواد ، ولكنه ينهض من كبوته .
وصاحبنا لا ينهض ، وإنما يثب وثوباً ، وإذا هو يسترد
كبرياءه كلها ، وإذا هو يطاول الزمان ويغالب الدهر ، وإذا
هو ينتهي من ذلك إلى سخره الماضي وضلاله القديم :

ضاقَ ذَرْعًا بأنْ أَضِيقَ به ذَرْ

عَا زَمَانِي وَاسْتَكْرَمْتَنِي الْكِرَامُ

وَاقِفًا تَحْتَ أَخْمَصِي قَدَرِ نَفْسِي

وَاقِفًا تَحْتَ أَخْمَصِي الْأَنَامُ

وما دام قد استرد كبرياءه كله وبدت له نفسه كما يراها ،
فهو أعظم وأكرم وأشد بأساً ، وأمضى عزماً من أن يقر على
ما أريد عليه من الهوان . وإذا هو يندفع إلى الوعيد كهده
قبل أن يجاوز العشرين :

أَقْرَارًا أَلَدُ فَوْقَ شَرَارِ

وَمَرَامًا أَبْغَى وَظُلْمِي يُرَامُ

دُونَ أَنْ يَشْرِقَ الْحِجَازُ وَنَجْدُ

وَالْعِرَاقَانِ بِالْقَنَا وَالشَّامُ

ولكن بقية من عقل له أو لشیطانه ترده إلى الصواب ،
وتحملة على الخذر والاحتياط . وإذا هو يعدل بهذا الوعيد
الخفيف إلى المدح فيقول :

شَرَقَ الْجَوُّ بِالْغُبَارِ إِذَا سَا

رَ عَلِيٌّ بْنُ أَحْمَدَ الْقَمَقَامُ

وكانه قد أحس أن بدرًا يجثُّ في طلبه مغیظًا من هذا
الهرب ، أو مغیظًا من هذه القصيدة التي انتهت إليه .

ومن يدرى ؟ لعل بدرًا لم يطلبه ولم يحفل به ، وإنما لعب
الخوف بنفسه فظن أنه مطارد مطلوب . فلم يطل المقام عند
صاحبه ، ولم ينعم عنده بأمن ولا راحة ، وإنما أعجل حتى عن
وداعه واستئذانه في الرحيل عنه ، فقر ، وقال معذراً : X

لَا تُنْكِرَنَّ رَحِيلِي عَنْكَ فِي عَجَلٍ X

فَإِنِّي لِرَحِيلِي غَيْرُ مُخْتَارٍ

وَرُبَّمَا فَارَقَ الْإِنْسَانُ مُهْجَتَهُ

يَوْمَ الْوَعَى غَيْرَ قَالَ خَشْيَةَ الْعَارِ

وَقَدْ مُنِيتُ بِحُسَادٍ أُحَارِبُهُمْ

فَجَعَلَ نَدَاكَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ أَنْصَارِي

ومهما يكن من شيء فقد دفع أبو الطيب إلى تلك
الحياة البغيضة التي اصطلح آلامها ثلاثة أعوام أو أربعة قبل
أن يتصل ببدر . فهو الآن مشرد ، يتنقل في البادية خائفاً
من السلطان ، لا يستطيع أن يدنو من أرض الاخشيديين .
وقد كان بينه وبينهم ما انتهى به إلى سجن حمص . وقد كان
منذ أسابيع يمدح عدوهم بدر بن عمار ، ولا يستطيع أن يدنو
من أرض ابن رائق في الشام وأعلى الفرات ، وهو طريد
بدر . وبدر كما رأيت أثير عند ابن رائق مقرب إليه . فليس
له إذن أن يهيم في البادية مخفياً نفسه على البدو ، ويستتر في
الحاضرة إن ألم بها منكراً نفسه على الحضر ، قد لفظته الأرض ،
وضاقت به الدنيا ، وهو يصور لنا هذا أجمل تصوير وأروع ،
كما يصور لنا سخطه على الذي جنوا عليه هذه الحنة الثانية
وذلك في رائيته التي يقول فيها :

عَذِيرِي مِنْ عَذَارَى مِنْ أُمُور
سَكَنَ جَوَانِحِي بَدَلَ الْخُدُورِ

وَمُبْتَسِمَاتِ هَيْجَاوَاتِ عَصْرِ
عَنِ الْأَسْيَافِ لَيْسَ عَنِ الشُّغُورِ

رَكِبْتُ مُشَمَّرًا قَدَمِي إِلَيْهَا
وَكُلَّ عُدَافِرٍ قَلَقِ الضُّفُورِ
أَوَانًا فِي بُيُوتِ الْبَدْوِ رَحْلِي
وَأَوْنَةً عَلَى قَدَدِ الْبَعِيرِ
أَعْرَضُ لِلرَّمَاكِ السَّمِّ نَحْرِي
وَأَنْصِبُ حُرًّا وَجْهِي لِلْهَجِيرِ
وَأَسْرِي فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ وَحْدِي
كَأَنِّي مِنْهُ فِي قَمَرٍ مُنِيرِ
فَقُلْ فِي حَاجَةٍ لَمْ أَقْضِ مِنْهَا
عَلَى تَعْبِي بِهَا شَرَّوِي نَقِيرِ
وَنَفْسٍ لَا تُجِيبُ إِلَى خَسِيسٍ
وَعَيْنٍ لَا تُدَارُ عَلَى نَظِيرِ
وَكَفٍّ لَا تُنَازِعُ مَنْ أَتَانِي
يُنَازِعُنِي سِوَى شَرَفِي وَخَيْرِي
وَقِلَّةٍ نَاصِرٍ جُوزِيَتْ عَنِّي
بِشَرِّ مَنْكَ يَا شَرَّ الدُّهُورِ

عَدُوِّي كُلُّ شَيْءٍ فِيكَ حَتَّى
نَخِلْتُ الْأَكْمَ مُوْغَرَةَ الصُّدُورِ
فَلَوْ أَنِّي حُسِدْتُ عَلَى نَفْسٍ
لَجِدْتُ بِهِ لَذِي الْجَدِّ الْعَثُورِ
وَلَكِنِّي حُسِدْتُ عَلَى حَيَاتِي
وَمَا خَيْرُ الْحَيَاةِ بِلَا سُرُورِ

فَأَنْتَ تَرَى فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ اعْتِرَافَهُ بِالْخِيَمَةِ وَاسْتِسْلَامَهُ
لِلْمَحَنَةِ ، وَضِيقَ نَفْسِهِ بِمَا يَلْقَى مِنَ الشَّرِّ ، وَيَأْسَهُ مِنْ تَحْقِيقِ
الْأَمَلِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ حَفِيزٌ عَلَى كِرَامَتِهِ ، حَرِيصٌ عَلَى
عِزَّتِهِ ، لَا يَرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ شَرَفِهِ مَهْمَا تَكُنِ الْأَحْدَاثُ . ثُمَّ
هُوَ يَعْدِلُ إِلَى خَصْمِهِ ابْنِ كَرُوسٍ فِيَهْجُوهُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ اللَّادِعَةِ :

فَيَا ابْنَ كَرُوسٍ يَا نِصْفَ أَعْمَى
وَإِنْ تَقَفَّرَ فَيَا نِصْفَ الْبَصِيرِ

تُعَادِينَا لِأَنَّا غَيْرُ لَكُنٍ
وَتُبْغِضُنَا لِأَنَّا غَيْرُ عُورٍ
فَلَوْ كُنْتَ امْرَأً يُهْجَى هَجَوْنَا

وَلَكِنْ ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرِ

فإذا صنع المتنبي أثناء هذا الهرب ولم لبث مستخفيا ؟
لم يصنع شيئا ذا خطر فيما يظهر ، وإنما كان يلتمس
النجاة ، فإذا ظفر بها التمس الأمن . وكان في أثناء ذلك
كثير الرجوع إلى نفسه ، ممعن التفكير فيما امتلأت حياته
به من البؤس والشدة والشقاء .

وما أكاد أشك في أن هذه المحنة الثانية قد أثارت
في نفسه ندما شديدا على ما أظهر من ضعف وخور ،
ولعلها أحييت في نفسه حنيننا إلى الشباب ، وإلى ما كان في
الشباب من هذه النزعات القرمطية التي إن جرّت عليه
محننا وجشمته أهوالاً ، فقد كانت تشعره العزة والأنفة ،
وتجعل حياته وآلامه غاية سامية وغرضا شريفا .

ومن يدرى ؟ لعل هذا كله قد رده أو كاد يرده إلى
قرمطيته الأولى ، ومهما يكن من شيء فأنا أرجح أنه في
أثناء هذا الاضطراب فكّر في وطنه الأول غير مرة ،

وعرض له خيال جدته تلك التي طال بعده عنها وفراقه لها .
وما أرى إلا أن هيامه في الأرض واضطرابه في البوادي
قد دفعاه إلى العراق ، وأنه همّ أن يدخل الكوفة للقاء
جدته فلم يستطع ، لتلك الأسباب الغامضة التي تساءلنا عنها
في بدء هذا الحديث .

فانحدر إلى بغداد فيما تقول القصة ، أو لم ينحدر إليها
في أغلب الظن ، ولكنه كتب إلى جدته على كل حال
لأنه هو ينبئنا بذلك في قصيدته .

كتب إليها ينبئها بمقدمه أو بعجزه عن دخول الكوفة
ويستقدمها للقاءه . فلما انتهى كتابه إلى هذه الشبيخة البائسة
فرحت به ، فقتلها الفرّح ، أو فرحت به فأخذت تقبله
وتلح في تقبيله باكية ، ودموعها تنهمل على الكتاب فتذيب
المداد ، ولعل المداد هو الذي قتلها .

ومهما يكن من شيء فقد انتهى إلى المتنبى موت جدته ،
فرثاها بهذه القصيدة التي رويها لك طرفاً منها فيما مضى ،
والتي تصوره كما رأيت وكما تستطيع أن ترى من إعادة
النظر فيها قرمطياً غالباً في قرمطيته كأنه قد عاد إليها ،

وكاد يتورط فيها لولا أن هتفت به تجربته الأولى ، فأعادت
إليه الحذر والاحتياط . وأنا أستغفر عشاق المتنبي والمؤمنين
بشجاعته وإقدامه إن قلت إن المتنبي لم يصور أحداً كما صور
نفسه في هذا البيت المشهور :

وإذا ما خلا الجبان بأرض

طلب الطعن وحده والنزلا

على أن الزمان الذي أسرف المتنبي في ذمه قد أسفق على
أبي الطيب من محنته هذه الثانية ، وكره له أن يتورط في اليأس
فيندفع إلى مثل ما اندفع له في محنته الأولى . فلم يكدمضى
في هربه عاماً أو بعض عام ، حتى تغير وجه السياسة في بلاد
الشام ، وفتح للهارب المستخفي باب من أبواب الفرج . فهذا
ابن رائق في أواسط سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، قد
ترك الشام وعاد إلى بغداد ، وتركها معه بدر بن عمار ،
ورفع الخرج الثقيل عن المتنبي ، وأصبح يستطيع أن
يتنفس في شيء من الحرية والأمن . فإلى أين ذهب ؟
وماذا صنع ؟

سؤال لا نظفر له بجواب واضح فيما بين أيدينا من

شعر المتنبي ، ولا فيما تحدث به الرواة .

على أن سنة ثلاثين وثلاثمائة لا تكاد تتقدم حتى يقتل ابن رائق ، يقتله ناصر الدولة أخو صديقه ومولاه بعد حين ، سيف الدولة الحمداني . هناك ينهض الاخشيد لاسترجاع الشام ، وهناك يظهر المتنبي في غير إسراف في التحفظ ، وأكبر الظن أنه لم يظهر ولم يدخل مدن الشام جهرة ، ولم ينشر فيها شعره مستظلاً بظل الاخشيديين إلا بعد أن سعى في ذلك فأطال السعى ، وجد في ذلك فأمعن في الجد . ونحن نراه يتقرب بشعره إلى عمال الدولة الاخشيدية وأصحاب المناصب المدنية والعسكرية فيها . وما أظن إلا أنه قد قال في هذه المدة شعراً كثيراً مختلفاً ، تقرب به إلى أشخاص كثيرين مختلفين أيضاً ، ولكنه ألغاه فيما بعد إلغاءً ، مبتغياً مرضاة سيف الدولة ، كما يظن بلاشير أو مستخدنيا من كثرة ما فيه من الاستعطاف الذي لم يكن يلائم مجده حين كان يملئ شعره في حلب ، أو في القسطنطينية ، أو في بغداد . على أن ديوانه يحفظ لنا شيئاً من هذا الشعر الذي تقرب به إلى عمال الاخشيديين . ونحن نذكر من هذا

الشعر قصائد خمساً ، هي على كل حال من جيد شعره وأرقاه .
الأولى : رائيته المشهورة التي يمدح بها علي بن أحمد بن
عامر الأنطاكي ، ولعله كان عاملاً للاخشيديين على أنطاكية
والتي مطلعها :

أَطَاعِنُ خَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ

وَحِيدًا وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ

وهي كما ترى بريئة من النسيب ، فإذا مضيت في
قراءتها رأيت الفخر الجزل الذي يصور غروراً وفتونا أكثر
مما يصور شجاعة وحزماً . ولكنني أقف من هذه القصيدة
عند هذين البيتين اللذين يصل فيهما المتنبي إلى موسيقى ✕
تعجبني ولعلها تعجبك ، وهما قوله :

وَيَوْمَ وَصَلْنَاهُ بِلَيْلٍ كَأَنَّمَا

عَلَى أَفْقِهِ مِنْ بَرْقِهِ حُلَلٌ حُمْرُ

وَلَيْلٍ وَصَلْنَاهُ بِيَوْمٍ كَأَنَّمَا

عَلَى مَتْنِهِ مِنْ دَجْنِهِ حُلَلٌ خَضَرُ

وأقف كذلك عند هذا البيت الذي أرى فيه تعريضاً
بالمستأثرين بالأمر في العراق :

وَجَنَّبَنِي قَرَبَ السَّلَاطِينِ مَقْتَهَا

وما يقتَضِينِي من حَاجِمِهَا النَّسْرُ

وهؤلاء السلاطين هم أهل الجور الذين أُنذِرهم في بيت
مضى من هذه القصيدة ، وهو قوله :

عَلَى لِأَهْلِ الْجَوْرِ كُلِّ طِمْرَةٍ

عليها غُلامٌ مِلءٌ حَيْرُومِهِ غَمْرُ

أما القصيدة الثانية فبائيتها التي يمدح بها علي بن محمد
ابن سيار بن مكرم التيمي والتي أولها :

ضُرُوبُ النَّاسِ عُشَاقٌ ضُرُوبًا

فَاعْذَرُهُمْ أَشْفَهُهُمْ حَبِيبًا

وكان هذا الرجل — فيما أرجح — من رجال الحرب .
والديوان ينبئنا بأنه كان يحسن رمي النشاب . وأحب أن
تقف من هذه القصيدة عند مقدمتها ؛ فهي تنقسم إلى
قسمين :

أحدهما وهو القسم الأول يصف الحرب وقتل الأعداء
وصفا رائعا ، وما أرى إلا أنه يشير إلى انتصار الاخشيديين

على أصحاب ابن رائق وطردهم عن بلاد الشام .
والقسم الثاني من المقدمة غناء حزين يذكر فيه المتنبي
سوء حاله النفسية وضيقه بالحساد وبغضه للحياة ، لأنهم
يشاركونه فيها . وهو في هذا الغناء يصف الليل ونجومه
أجمل وصف وأروع وأرقاه .

والقصيدة الثالثة داليتة التي مدح بها هذا الرجل نفسه ،
والتي مطلعها :

أَقْلُ فَعَالَى بَلَهْ أَكْثَرُهُ مَجْدُ

وذا الجَدُّ فِيهِ نَلْتُ أَوْ لَمْ أَنْلُ جَدُّ
وما أرى إلا أنه قد احتذى بهذه القصيدة دالية الخطيئة :
الْأَطْرَقَتْنَا بَعْدَمَا هَجَعُوا هِنْدُ
وقد سرنَ خمسًا وَاثَلَابَ بَنَّا نَجْدُ

فأحسن الاقتداء والتقليد . والشاعر في هذه القصيدة
كعهده في أيام الراحة والأمن ، معجب بنفسه كل الإعجاب
ساخط على الناس كل السخط . وقرأ هذه الأبيات التي
تصور سخطه على الناس ، بل غلوه في هذا السخط ، والتي
هي من أجمل شعر المتنبي لألوان التشاؤم التي ستنبئ

فيا سيقول من الشعر إلى أن يموت :
أَذُمُّ إلى هذا الزمان أهيله

فأعلمهم فدمهم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلبهم وأبصرهم عمهم
وأشهدهم فهذه وأشجعهم قرد

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له ما من صداقته بد

أما القصيدة الرابعة ، فالزائفة التي مدح بها أبا بكر
على بن صالح الروذباري ، ولعله كان عامل الاخشيدي على
دمشق ومطالعها :

كفر ندي فرند سيفي الجراز

لذة العين عدة للبراز

ويقال — ويقبل بلاشير هذا القول ^(١) — إن
المتنبى قد ظفر بما كان يريد ، فلقى محمداً الاخشيدي في
دمشق وأنشده ، وأخذ جوائزه وظن أنه قد انتهى إلى

تحقيق أمله ، ولكن الأيام كذبت ظنه ، فمات الاخشيد
في دمشق سنة أربع وثلاثمائة ، قبل أن يتم اتصال شاعرنا
به . والذي أثار هذا القول فيما يظهر أبيات رويت في الصباح
المنبي من قصيدة زعموا أن المتنبي رثى بها الاخشيد وهي :

هُوَ الزَّمانُ مُشِتٌّ بالذي جَمَعَا

في كُلِّ يَوْمٍ تَرى مِنْ صَرْفِهِ بَدَعَا

إِنْ شِئتَ مِتْ أَسْفًا أَوْ فابُقْ مُضْطَرَبًا

قد حَلَّ ما كُنْتَ تَخْشاهُ وقد وَقَعَا

لو كانَ مُمْتَنِعٌ تُغْنِيهِ مَنَعُتُهُ

لم يَصْنَعِ الدَّهْرُ بِالْأَخْشِيدِ ما صَنَعَا

ولم يرو صاحب الصباح من القصيدة إلا هذه الأبيات .
أما أنا فأرجح أن المتنبي لم يلق الاخشيد ، ولم يطمع في
لقائه ، فقد كان همه في ذلك العصر أيسر من هذا وأهون ،
ولو قد لقي الاخشيد لما قصر في ذكر ذلك والافتخار به ،
والموازنة بين الاخشيد وبين مولاه كافور ، ولا سيما حين
غضب على كافور . وأنا أرى أن هذه القصيدة الزائفة

د قيلت في وقت متأخر شيئاً كما ستري .

أما القصيدة الخامسة ، فالدالية التي يمدح بها الحسين
ابن علي الهمداني فيما يقول الديوان^(١) ، أو المرى الخراساني
فيما يستظهر بلاشير^(٢) ، وفيما يفهم من القصيدة نفسها وأولها :
لقد حازني وجدٌ بمن حازهُ بُعدُ

فيما ليّتنى بُعدُ ويا ليّتهُ وجدُ

وإذن فقد جعل المتنبي يتقرب شيئاً فشيئاً إلى عمال
الاششيديين في شمال الشام ، وهؤلاء يقبلون مدحه ويجيزونه
ويقربونه إلى أمثالهم في الجنوب ، حتى انتهى إلى عامل دمشق
ثم إلى الحسين بن علي هذا . ولعله كان في طبرية أو قريباً منها
حيث كان أبوه ، وانتهى آخر الأمر إلى أمير من أمراء
الاششيديين كان يقيم في الرملة عاملاً عليها ومتولياً في أكبر
الظن لفلسطين . فألقى عصاه واستقرت به النوى عند هذا
الشاب ، وهو قريب من مصر ، ولكنه بعيد عنها . قريب

(١) انظر الواحدى ص ٣١٠

(٢) انظر بلاشير R. Blachère صفحة ١٠٠ — ١٠١ — ١١٠

وانظر كذلك معجم البلدان لياقوت مادة جرش .

من مصر يمدح عمالها وبعض أمرائها ، ولكنه بعيد عنها
لم يمدح صاحبها أنوجور ولا وصيها كافور . وقد انتهى المتن
إلى الرملة وظفر بحماية هذا الأمير الشاب وهو في الثانية والثلاثين
من عمره .

وقد لقي أهوالا وهموما ثقالا وآن له أن يستريح .

٦

على أنه لم يسترح وقتا طويلا فقد انتهى إلى أبي محمد
الحسن بن عبيد الله بن طغج في الرملة في أوائل سنة
خمس وثلاثين وثلاثمائة في أكبر الظن . ورحل عنه في هذه
السنة نفسها بعد أن أقام عنده أشهراً . وما أرتاب في أن نفسه
منته أن يتجاوز الرملة إلى مصر ، ثم إلى القسطنطينية ، وأن
يتصل هنالك بالملك أو بالوصى . وما أرتاب في أنه كان خليقا
أن يحاول ذلك وينفذه ، لولا أن الأمور السياسية قد جرت على
ما حجب إليه الانصراف عن مصر والرجوع إلى شمال الشام .
فلننظر قبل كل شيء هذه الميعة التي مدح بها الأمير
الآخشيدي الشاب . فهي من جياذ قصائده ، وهي في الوقت
نفسه تصور لنا تردده بين مصر والشام تصويرا إن يكن بعيدا
فإنه مع ذلك واضح جلي .

والقصيدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :
القسم الأول نسيب مصنوع متكاف كأكثر ما رأينا

وما سنرى من نسيب المتنبي ، والتكلف ظاهر لا فى معناه
وحده ، بل فى معناه ولفظه أيضا . ويكفى أن تقرأ المطلع
لتحس التكلف اللفظى والمعنوى :

أَنَا لَأُمِّى إِنْ كُنْتُ وَقْتُ اللَّوَائِمِ

عَلِمْتُ بِمَا بِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فانظر إلى هذه الألف التى أثبتتها فى الضمير أول البيت
ليقيم الوزن . وانظر إلى هذا الحذف الذى اصطنعه بين المضاف
والمضاف إليه فى آخر الشطر الأول ليقيم الوزن أيضا . فقد
كان حقه أن يقول :

إِنْ كُنْتُ وَقْتُ لَوْمِ اللَّوَائِمِ

والشاعر يذهب مذهب أبى تمام فى هذه الملاءمة اللفظية
بين لَأُمِّى واللوائِم ، وبين علمت والمعالم ، ولكنه يعجز عن أن
يبلغ ما كان يبلغه أبو تمام من العذوبة اللفظية التى تحبب إلى
السامع والقارئ هذا الفن من البديع . وأنت واجد هذا
التكلف الظاهر فيما يلى المطلع من الأبيات . بل أنت واجد
فيها ذوقا غليظا يصنع الحب والغرام صنعا ، ويريد أن يكره
أذواق الناس على قبول ما يصنع . ولكن قف عند هذين

البقيين اللذين وجدا من يعجب بهما إعجابا شديداً :

حِسانُ التَّثَنَّى يَنْقُشُ الوَشْيُ مِثْلَهُ

إذا مِسْنٌ في أجسامِهِنَّ النِّوَاعِمِ

وَيَبْسِمَنَّ عَنْ دُرٍّ تَقْلَدَنَّ مِثْلَهُ

كَأَنَّ التَّرَاقِي وَشَّحَتْ بِالْمَبَايِمِ

فما رأيك في هذه الأجسام التي رقت أبشارها ، وأسرفت في الرقة حتى أف الوشي لينقش فيها حين تتثنى أو تبتسم . وما رأيك في هذه التراقي التي كأنها حليت بالثغور ، لا لشيء إلا لأن بين الأسنان التي تبسم عنها الثغور وبين الحلي الذي تحمله الصدور شبها في الرونق والصفاء . أما أنا فلا أرى في هذا التشبيه إلا إغرابا ينتهي إلى السماجة .

أما القسم الثاني من القصيدة فهو غناء أدنى إلى الفخر ، وقد ألف المتنبي هذا النوع من الغناء والفخر ، حتى أصبح من الحق عليك أن تألفه وألا ترى في ذكر المتنبي للحرب والبأس إلا وسيلة شعرية رأى المتنبي أنها تعجب الناس وتلائم حياة أهل الشام ، كما تلائم ميله وطبيعته . فأسرف فيها إسرافا شديدا . ولكن قف عند هذه الأبيات :

فمالي وللدنيا طلابي نُجومها
ومسعاى منها في شُدوق الأراقم
مِنَ الحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الجَهْلَ دُونَهُ
إِذَا اتَّسَعَتْ فِي الحِلْمِ طُرُقُ المَظَالِمِ
وَأَنْ تَرِدَ المَاءَ الذِي شَطْرُهُ دَمٌ
فَتَسْقَى إِذَا لَمْ يُسْقَ مَنْ لَمْ يُزَاحِمِ
فَأَنْتَ وَاجِدٌ فِيهَا طَبِيعَةَ المُنْتَبِي كُلِّهَا الَّتِي سَيَصُورُهَا
شَعْرُهُ إِلَى آخِرِ دِيْوَانِهِ : جُوعٌ وَأَحَادِيثٌ ، كَمَا يَقُولُ المَثَلُ .
وَفَلَسَفَةٌ فِي الهَوَاءِ لَيْسَ وَرَاءَهَا طَائِلٌ وَلَا غَنَاءٌ .
وَيَمِضِي الشَّاعِرُ حَتَّى يَبْلُغَ صَاحِبَهُ ، فَيَمْدَحُهُ مَدْحًا
لَا بَأْسَ بِهِ ، لَيْسَ خَيْرًا وَلَا شَرًّا مِمَّا أَلْفَنَاهُ مِنْ مَدْحِهِ لِلَّذِينَ
مَدَحَهُمْ ، غَيْرِ بَدْرِ بْنِ عَمَّارٍ ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى وَصْفِ الجَيْشِ
فَيَحْسِنُ إِحْسَانًا ظَاهِرًا فَتَنَ المَتَقَدِّمِينَ . وَمَا أَرَى إِلَّا أَنْ
تَأْثِيرُ بَشَارِ فِيهِ ظَاهِرٌ جَدًّا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ :
وَذِي لَجَبٍ لَازِدُ الجَنَاحِ أَمَامَهُ
بِنَاجٍ وَلَا الوَحْشُ المُنَارُ بِسَالِمٍ

تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ
 تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ
 إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً
 تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ
 وَيَخْفَى عَلَيْكَ الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ فَوْقَهُ
 مِنْ اللَّحْمِ فِي حَافَاتِهِ وَالْهَامِ
 ثُمَّ اقْرَأْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الثَّلَاثَةَ :
 أَرَى دُونَ مَا بَيْنَ الْفُرَاتِ وَبَرْقَةٍ
 ضِرَابًا يُمَشِّي الْخَيْلَ فَوْقَ الْجَمَاجِمِ
 وَطَعَنَ غَطَارِيفٍ كَأَنَّ أَكْفَهُمْ
 عَرَفَنَ الرُّدَيْنِيَّاتِ قَبْلَ الْمَعَاصِمِ
 حَمَّتْهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
 سَيْوَفُ بَنِي طَفْجِ بْنِ جُفَّ الْقَاقِمِ

فَإِنْ لَهَا خَطَرُهَا . فَاَلْتَنَبَّى يَشِيرُ فِيهَا إِلَى مَا كَانَ مِنْ
 مُحَاوَلَةِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ أَنْ يَغِيرَ عَلَى جَنُوبِ الشَّامِ مُنْتَهِزًا مَوْتَ
 الْأَخْشِيدِ ، لِيَنْقُضَ مَا كَانَ قَدْ تَمَّ بَيْنَهُمَا مِنَ الصَّلْحِ ، وَمَا كَانَ

من نهوض كافور لرده عن ملك الاخشيديين ، وإلزامه الحدود التي تم عليها الصلح مع الاخشيد . وما أتردد في أن المتنبى كان ينتظر عاقبة هذه الحرب بين كافور وسيف الدولة ، ليمضي إلى مصر ، أو يرجع إلى شمال الشام . ولعله كان يقدر أن كافوراً لن يكتفى بإكراه سيف الدولة على رعاية الصلح ، بل سينتهز الفرصة ليسترد شمال الشام ، ويمحق الحمداني محققاً . ولو قد فعل لما أبطأ المتنبى عن اللحاق به ومحاولة الانقطاع إليه ، ولكن كافوراً لم يزد على أن حمى المعاهدة واضطر سيف الدولة إلى رعايتها ، واحتفظ بالحدود التي أقرها الاخشيد .

وإذن فقد استقرت في شمال الشام دولة عربية يظهر أنها قوية شديدة البأس ، مستقرها حلب لن يستطيع أولو الأمر في بغداد أن يصلوا إليها لمكان ناصر الدولة في الموصل . فالمتنبى متردد الآن بين الفسطاط ، حيث كافور الأسود وأنوجور التركي ، وبين حلب حيث الملك العربي الفتي ، وحيث البيئة العربية الخالصة . وقد أنفق المتنبى وقته عند هذا الأمير الاخشيدى الشاب في الرملة ، منتظراً ومتفكراً

وكأنه قد انتفع بما لقي عند بدر بن عمار من المحنة ، وتعلم
شيئا من حياة القصور ، ومعاشرة الأمراء . فهو ينادم
الأمير الشاب منادمة الشاعر الفطن اللبق ، الذي يعرف
هوى سيده فيسبق إليه ، والذي يحسن التملق ويسرف في
المدح ، وينزل عند رغبة مولاه يقول الشعر حين تدعو
الحاجة إلى قوله ، وحين لا تدعو إليه حاجة . يكره الخمر
ولكنه يشربها إذا قال له سيده بحق لتشرين هذه الكأس .
ثم لا يتحرج أن يقول هذا الشعر الذي قد يرضى الأمير
الشاب ، ولكنه يغضب الله ويغض من المروءة :

سَقَانِي الْخَمَرَ قَوْلُكَ لِي بِحَقِّي

وَوُدُّ لَمْ تَشُبْهُ لِي بِمَذَقِ

يَمِينًا لَوْ حَلَقْتَ وَأَنْتَ تَأْتِي

عَلَى قَتْلِي بِهَا لَضَرَبْتُ عَنْقِي

ثم يأخذ الكأس ويقول :

حَيِّتَ مِنْ قَسَمٍ وَأَفْدَى مُقْسِمًا

أَمْسَى الْأَنَامُ لَهُ مُجِبًّا مُعْظِمًا

وإذا طلبتُ رضى الأميرِ بِشْرِبها
وأخذتها فلقد تَرَكتُ الأحرما

ولم يقصر المتنبي في خدمة سيده الجديد ، فهو يغدو عليه مع الصبح ، ويروح إليه مع المساء يناديه إذا استقر ويصحبه إذا انتقل إلى مكان قريب أو بعيد . ويحدث أصحابه بما يسليهم ويرضيهم ، وبما يفزعهم ويرنجيهم أحيانا كالذى كان حين حدثهم عما رأى من إغارة القرامطة على الكوفة في صباه ، فجزع الناس لهول ما سمعوا . فقال المتنبي هذه الأبيات التى تدل على أنه لم يصدف عن القرمطية إلا كارهاً :

أَبَاعَتْ كُلَّ مَكْرُمَةٍ طَمُوحِ
وَفَارَسَ كُلَّ سَلْمِيَّةٍ سَبُوحِ
وَطَاعِنَ كُلَّ نَجْلَاءٍ غَمُوسِ
وَعَاصَى كُلَّ عَذَّالٍ نَصِيحِ
سَقَانِي اللَّهُ قَبْلَ الْمَوْتِ يَوْمًا
دَمَ الْأَعْدَاءِ مِنْ جَوْفِ الْجُرُوحِ

وكان المتنبي قد اكتفى بهذه المنادمة ، وما كان يرتجل
فيها من هذا المدح القصير ، ولكن الأمير كان يريد قصائد
طوالا كالميمية . فعاتب المتنبي في إعراضه عن مدحه ولم
ينشط المتنبي لهذا المدح ، فاعتذر إليه بهذه الأبيات :

تَرَكُ مَدْحِيكَ كَالْهَجَاءِ لِنَفْسِي
وَقَلِيلٌ لَكَ الْمَدِيحُ الْكَثِيرُ
غَيْرَ أَنِّي تَرَكْتُ مُقْتَضِبَ الشَّعْ
رٍ لِأَمْرِ مِثْلِي بِهِ مَعْدُورُ
وَسَجَايَاكَ مَادِحَاتُكَ لَا لَفُ
ظِي وَجُودٌ عَلَى كَلَامِي يُغَيِّرُ
فَسَقَى اللَّهُ مَنْ أَحَبُّ بِكَفَيَّ
لَكَ وَأَسْقَاكَ أَهْذَا الْأَمِيرُ

وكان قريبا من هذا الأمير الشاب رجل من أشرف
العلويين يعرف بأبي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي .
وكان أثيرا عند الأمير ، وكان يرغب في أن يمدحه المتنبي .
ولا يبلغ من ذلك ما يريد فتوسط له الأمير عند الشاعر .

وقبل الشاعر بعد امتناع . وهي فيما نرى أول مرة يحس المتنبي
فيها أنه قد عظم في أعين الناس وفي أنفسهم . وقد مدح هذا
العلوى بالبائية التي مطلعها :

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهَوَّ عِنْدَ السَّكَوَاعِبِ
وَرُدُّوا رُقَادِي فَهَوَّ لِحْظُ الْعَجَائِبِ

والتي لا أقف منها إلا عند قوله :

أَتَانِي وَعَيْدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنَّهُمْ
أَعَدُّوا لِي السُّودَانَ فِي كَفْرِ عَاقِبِ
وَلَوْ صَدَقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَذَرْتُهُمْ
فَهَلْ فِيَّ وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ
إِلَى لَعَمْرِي قَصْدُ كُلِّ عَجِيبَةٍ
كَأَنِّي عَجِيبٌ فِي عُيُونِ الْعَجَائِبِ

وهؤلاء الأدعياء هم الذين عرض بهم في ميميته التي
حللناها آنفا حيث يقول :

وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلًا وَتُرْبَةً
بِهَا عَلَوِيٌّ جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمِ

بِلاَ اللّٰهُ حُسَّادَ الْأُمَيْرِ بِحِلْمِهِ

وَأَجْلَسَهُ مِنْهُمْ مَكَانَ الْعِمَامِ

وَكَانَ هَذَا الْعُلُوّ وَأَصْحَابُهُ كَانُوا فِي طَبَرِيَّةٍ وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا
شِيعَةً لِلْفَاطَمِيِّينَ يَخْفَوْنَ بَعْضُهُمْ لِلْأَخْشِيدِ ، وَكَأَنَّهُمْ كَرِهُوا مِنَ
الْمُتَنَبِّئِ قَرْمُطِيَّتِهِ الْقَدِيمَةَ وَقَصَدَهُ إِلَى الْأَخْشِيدِ فِي ذَلِكَ
الْوَقْتِ ، فَأَرَادُوا أَنْ يَصُدُّوهُ عَنِ الرَّمْلَةِ وَأَرْصَدُوا لَهُ السُّودَانَ
لِيَرُدُّوهُ أَوْ لِيَقْتُلُوهُ .

وَأَقِفْ كَذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْبَائِيَّةِ عِنْدَ هَذَا الشَّعْرِ الَّذِي
يَصُورُ اسْتِهَانَةَ الْمُتَنَبِّئِ بِالْدِّينِ ، وَتَلُونَهُ فِي الرَّأْيِ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ :

وَأَبْهَرُ آيَاتِ التَّهَامِيِّ أَنَّهُ

أَبُوكَ وَأَجْدَى مَا لَكُمْ مِنْ مَنَاقِبِ

وَوَاضِحٌ أَنَّ أَبْهَرَ آيَاتِ النَّبِيِّ إِنَّمَا هُوَ الْقُرْآنُ لَا أَبُوتُهُ
لِلْعُلُوِّينَ . وَلَا تَقِفْ عِنْدَ تَمَحُّلِ الشَّرَاحِ لِهَذَا الْبَيْتِ فَإِنَّهُ اعْتِدَارُ
لَا غِنَاءَ فِيهِ ثُمَّ يَقُولُ :

إِذَا لَمْ تَكُنْ نَفْسُ النَّسِيبِ كَأَصْلِهِ

فَمَاذَا الَّذِي يُغْنِي كِرَامُ الْمَنَاصِبِ

وما قَرُبْتُ أَشْبَاهُ قَوْمٍ أَبَاعِدُ

ولا بَعُدْتُ أَشْبَاهُ قَوْمٍ أَقَارِبُ

إذا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ

فَمَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

وفي هذا الكلام تعريض ظاهر بالفاطميين ثم يقول :

هُوَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ وَابْنُ وَصِيِّهِ

وَشِبْهُهُمَا شَبَّهْتُ بَعْدَ التَّجَارِبِ

وقد عاد المتنبي هنا شيعة علويًا كما كان في بغداد حين

مدح في صباه محمد بن عبيد الله العلوي بداليتيه التي وصفناها

في أول هذا الحديث .

فالمذاهب السياسية والدينية عند المتنبي وسيلة لا غاية

كما ترى ، وفي أثناء هذا الوقت كله استقر الأمر بين

كافور وسيف الدولة على الصلح الذي أمضاه الاخشيدي قبل

أن يموت ، واستقر رأى المتنبي على أن يعود إلى البيئية

العربية في شمال الشام ، بعد أن كان يبغض هذه البيئية

أشد البغض ، ولا يعود إليها ولا يقيم فيها إلا كارها . وقد

استأذن أميره الشاب في الرحيل فأذن له . وانصرف المتنبي
مودعا إياه بقصيدة لم يحفظ الديوان منها إلا هذه الأبيات :

ماذا الوداعُ وداعُ الوامِقِ الكَمِدِ

هذا الوداعُ وداعُ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ

إذا السَّحابُ زَفَتَهُ الرِّيحُ مُرْتَفِعًا

فلا عداَ الرَّمْلَةَ البَيْضَاءَ من بَلَدِ

ويا فِرَاقَ الأميرِ الرَّحْبِ مَنزِلُهُ

إنْ أَنْتَ فَارَقْتَنَا يَوْمًا فلا تَعُدْ

٧

مضى المتنبي من الرملة حتى انتهى إلى طرابلس في طريقه
إلى شمال الشام ، وما كان يقدر أنه سيلقى في هذه المدينة
ما يؤخر سفره إلى حيث يريد . وما كان يقدر بنوع خاص
طبيعة هذا العائق الذي سيمسكه في طرابلس حيناً . هو الآن
في الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمره ، واختلفت عليه أحداث
وخطوب منذ خرج من السجن لم ينتصر عليها وإنما انتصرت
عليه . ولسكني حدثك ، وما أنت في حاجة إلى هذا الحديث ،
بأن الذي انهزم في المتنبي ليست طبيعته الخالصة ، وإنما هي
طبيعة تكلفها الشاعر وخدعه عنها لفظه وغروره . فأما طبيعته
الخالصة وهي طبيعة الشاعر المتبهي للنبوغ ، فقد انتصرت من
غير شك ، وكان ما حدث له في طرابلس دليلاً واضحاً على أن
انتصارها كان عظيماً وفوزها كان مبيناً حقاً . وأنت تذكر أنه
حين خرج من السجن مدح إسحق بن كيغلع وإلى حمص
للاخشيد ومخرجه من السجن بقصيدته الرائية التي يقول فيها :

حاشى الرقيب فحانته ضمائرهُ

وغَيَضَ الدمعَ فانهَلَّت بواذرُهُ

ولم يستطع أن ينشده إياها فيما يقول الديوان لأن الأمير
كره ذلك ، وتقدم إليه في أن يبرح الأرض كما رجحنا . فقد
كان إسحق بن كيغلغ هذا ما يزال على ولايته حين مر المتنبي
بطرابلس ، وكان قد انتقل إليها من حمص ليمعد مستقره بعض
البعد عن الحدود بين الاخشيديين والحمدانيين . فلما انتهى
المتنبي إلى طرابلس وعرف الأمير مكانه رغب في أن يمدحه
كما مدح غيره من عمال الاخشيديين وقوادهم وأمرائهم . ونظر
المتنبي فإذا هذا الأمير الذى كان يرغب عن شعره منذ
اثنتى عشرة سنة يرغب في شعره الآن . فلا تسل عن كبرياء
الشاعر ، وما امتلأت نفسه به من الزهو والغرور ، وإذا
هو يمتنع على الأمير ويأبى أن يمجّبه إلى المدح الذى رغب
فيه ، ويحتال الأمير فى ذلك فلا يوفق ، وتشق عليه هذه
الإهانة ، فيمسك الشاعر فى طرابلس لا يلقى فيه فى السجن
ولا يخلى بينه وبين السفر ، وإنما يمسكه سجيناً كالطليق ،
وطليقاً كالسجين . ولسنا ندرى كم أقام المتنبي على هذه

الحال في طرابلس ، ولكن الظاهر أنه تغفل العيون التي
أرصدت له ، فنفر من المدينة لا يقصد إلى الشمال مخافة أن
يطلب فيؤخذ ، بل يقصد إلى الجنوب مشرقا ، وهو آمن
أن يطلب من هذه الناحية .

وإذا هو في دمشق بعد حين . ويخيل إلى أنه كان
يريد الأمن والعافية أثناء إقامته في دمشق ، حتى تناح له
الفرصة فيستأنف رحلته إلى الشمال ، وأنه من أجل هذا
استجار بعلي بن صالح الروذباري والي دمشق ، ومدحه
بالزانية التي ذكرناها آنفاً . وهذه الزانية خليفة أن تقف
عندها حيناً ، لأنها تستحق شيئاً ولو قليلاً من التأمل
والتفكير . وحسبي أن أفتك من أمرها إلى ثلاثة أشياء :
الأول والثاني منهما مشترك بينهما وبين أمثالها من
هذه القصائد التي اختار لها المتنبي هذه القوافي الصعبة النادرة
كذاليتها في مدح مساور بن محمد الرومي ، وقد مرت بك
وكشينيته في مدح أبي العشائر ، وستراها بعد حين .
والثالث مقصور عليها ، ولكن له خطره في تصوير
التزام المتنبي لرأيه حين يأمن ويستغنى ، وتضحيته بهذا

الرأى حين يخاف أو يطمع أو يحتاج . فأما الأمر الأول
من هذه الأمور الثلاثة ، فهو أن صعوبة القافية وامتناعها
يكلفان الشاعر شططا ، ويضطرانه إلى أن يصطنع ألفاظا
ليست من لغة الشعر في شيء ، وإنما هي إلى العامية المبتدلة
أدنى منها إلى لغة الشعراء . ولكن ندرة القافية تضطر
الشاعر إلى اصطناعها ، فيتورط في ذلك لا مستخدنيا منه
ولا مستشعرا خجلا أو حياء .

وانظر إلى هذا البيت :

حَمَلَتْهُ حَمَائِلُ الدَّهْرِ حَتَّى

هِيَ مُحْتَاجَةٌ إِلَى خِرَازٍ

وإلى قافيته المبتدلة . وانظر كذلك إلى هذا البيت :

شَغَلَتْ قَلْبَهُ حَسَانُ الْمَعَالَى

عَنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ وَالْأَعْجَازِ

فهل تعرف أسمع من هذه القافية وأصفق من هذا

الطباق . وانظر أيضا إلى هذا البيت :

تَقْضِمُ الْجَمْرَ وَالْحَدِيدَ الْأَعَادَى

دُونَهُ قَضَمَ سُكَّرِ الْأَهْوَاِ

فلولا القافية وتحكمها في الشاعر وامتناعها عليه ما احتاج
هذا البيت إلى سكر الأهواز .
والأمر الثاني أن احتياج الشاعر إلى القوافي يستعبده
للقافية ، ويكرهه على أن يستعبد الشعر ومعانيه للقافية
أيضاً . فهو يجمع الألفاظ التي تصلح قافية زائفة أو ذالية
أو شينية ، فإذا اجتمع له منها ما أراد ، نظم قصيدته على
الزاي أو على الذال أو على الشين . وقد يضطر إلى معنى
من المعاني ، لا لشيء إلا ليضع في آخر البيت كلمة من
الكلمات تصلح قافية . وانظر إلى هذا البيت :

سَلَهُ الرَّاكِضُ بَعْدَ وَهْنٍ بِنَجْدٍ

فَتَصَدَّى لِلْغَيْثِ أَهْلُ الْحِجَازِ

فلولا أنه محتاج إلى أن يقيم بيته على الحجاز لما ذكر
نجداً ، ولما نظم البيت كله . وانظر كذلك إلى هذا البيت :

مَلِكٌ مُنْشِدُ الْقَرِيضِ لَدَيْهِ

يَضَعُ الثَّوْبَ فِي يَدَيِّ بَرَّازٍ

فقد جعل ممدوحه ملكاً وبرازاً ، لا لشيء إلا لأنه لا يريد
أن تفلت منه هذه الكلمة المبتذلة . وانظر أيضاً إلى هذا البيت :

وَيَرَى أَنَّهُ الْبَصِيرُ بهذا

وهو في العمى ضائع العكاز

فالمعنى في هذا البيت كله يتبع العكاز ولا يستدعيه .
واست أدري أين قرأت أن فكتور هوجو كان يجمع القوافي
ويهيئها قبل أن ينظم شعره . ولكن الشيء الذي لا شك
فيه أن ذوق فكتور هوجو كان يأبى عليه أن يذل للقافية حتى
يتورط في الابتذال . وما أظن إلا أن الشعراء جميعا يستعرضون
ما قد يتهيا لهم من القوافي ؛ ليختاروا منها لا ليحكموها في أنفسهم
وفي أذواق الناس .

ولعل قصصت في غير هذا الكتاب ما رأيته من المرحوم
زكي باشا حين كان يضع مقدمته لكتاب التاج ، وكان يريد
السجع ، فانتهى إلى كلمة المذكور أو المشهور لا أدري ؛ ولم يجد
لها مقابلا فالتسه وأطال التماسه . فلما أعياه قرأ باب الرء كله
من القاموس المحيط .

كذلك أو قريبا من ذلك صنع المتنبي في هذه القصائد
التي آثر فيها القوافي النادرة ، وكذلك أو قريبا من ذلك

صنع الصولى^(١) فيما كان يحدث من الشعر لمولاه الراضى فى نفس هذا العصر أى أوائل القرن الرابع . وأنت واجد من ذلك فى كتاب الأوراق ما يرضيك ويغيبك معا .

أما الأمر الثالث فأشد من هذين الأمرين خطرا ؛ فقد مدح المتنبى قبل هذا الرجل جماعة من غير العرب ، ولكنه كان يتجنب التعرض لمدح أجناسهم الأجنبية ويكتفى بمدح أشخاصهم . فإن تجاوز أشخاصهم ، لم يعد ما لأبائهم من سابقة فى الإسلام وفى ظل الدولة العربية . أما فى هذه القصيدة فالمتنبى الذى اتخذ العربية لنفسه مذهباً سياسياً وفلسفياً يخرج عن مألوفه ، فيمدح هذا الرجل الفارسى ، ويمدح الفرس ويرقى بمدحه إلى الفرس قبل الإسلام . وانظر إليه كيف يقول :

لَيْسَ كُلُّ السَّرَاةِ بِالرُّوْذَبَارِ

يَّ وَلَا كُلُّ مَا يَطِيرُ بِيَّازِ

فَارِسِيٌّ لَهُ مِنْ الْمَجْدِ تَاجٌ

كَانَ مِنْ جَوْهَرٍ عَلَى أَبْرَوازِ

(١) انظر وصيف الصولى لعلاقته بالراضى فى القسم الثانى من كتاب الأوراق

نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ أَصْلٍ شَرِيفٍ
وَلَوَانِيَّ لَهُ إِلَى الشَّمْسِ عَازٍ
شَغَلَتْ قَلْبَهُ حِسَانُ الْمَعَالِي
عَنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ وَالْأَعْجَازِ
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

بِكَ أَضْحَى شَبَا الْأَسِنَّةِ عِنْدِي
كَشَبَا أَسْوَاقِ الْجَرَادِ النَّوَازِي
وَأَنْثَى عَنِّي الرُّدَيْنِي حَتَّى
دَارَ دَوَّرَ الْحُرُوفِ فِي هَوَازٍ
وَبَابَائِكَ الْكَرَامِ النَّاسِي
وَالْتَسَلَّى عَمَّنْ مَضَى وَالتَّعَازَى
تَرَكَوا الْأَرْضَ بَعْدَ مَا ذَلَّلُوهَا

وَمَشَتْ تَحْتَهُمْ بِلَا مِهْمَازٍ
فَالْمَتْنِبِي هُنَا شَعُوبِي صَرِيحٌ ، لَوْلَا أَنَّنَا نَعْرِفُ أَنَّهُ شَاعِرٌ
سَاخِرٌ بِالنَّاسِ وَبِمَمْدُوحِيهِ خَاصَّةً ، أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ عَلَى أَقْلٍ
تَقْدِيرٌ .

ومن دمشق هجا المتنبي إسحق بن كيغلغ بميميته اللاذعة
المشهورة^(١) والتي أولها :

لِهَوَى الْقُلُوبِ سَرِيرَةٌ لَا تُعْلَمُ
عَرَضًا نَظَرْتُ وَخَلْتُ أُنَى أَسْلَمُ

وفي دمشق عرف المتنبي أن إسحق خرج للقاء الروم
وتوعده . فقال فيه الأبيات التي أولها :

أَتَانِي كَلَامُ الْجَاهِلِ ابْنِ كَيْغَلْغِ
يَجُوبُ حُزُونًا بَيْنَنَا وَسُهُولًا

ثم بلغه أن غلمان إسحق عدوا عليه فقتلوه . فقال الأبيات
التي أولها :

قَالُوا لَنَا مَاتَ إِسْحَقُ فَقُلْتُ لَهُمْ
هَذَا الدَّوَاءُ الَّذِي يَشْفِي مِنَ الْحُمُقِ
وقد أعرض لهذا الهجاء في غير هذا الموضع فحسبنا الآن

(١) وقد قال : إنه أنشأ هذه القصيدة في طرابلس وتركها عند
صديق له وكلفه أن يذيعها بعد أن يهرب ويبلغ مأمنه ، (انظر الواحدى
صفحة ٣٣٩ .)

أن نلاحظ أنه يدل على أن عداواة المتنبي كانت باقية قاسية
يعجز الموت نفسه عن محوها .

ولسنا ندرى كم أقام المتنبي في دمشق ، ولكن المحقق
أنه خرج منها سنة ست وثلاثين وثلاثمائة بعد مقتل ابن
كيفلغ قاصدا إلى أنطاكية ، والديوان ينبئنا بأنه نزل
بعلبك ؛ فأكرمه حاكمها على بن عسكر ، وخلع عليه
وأجازه ، وطمع في مدحه ، ولكن المتنبي لم يزد على أن قال له
هذه الأبيات :

رَوِينَا يَا ابْنَ عَسْكَرِ الْهُمَامَا
وَلَمْ يَتْرُكْ نَدَاكَ بِنَا هِيَامَا
وَصَارَ أَحَبُّ مَا تُهْدَى إِلَيْنَا
لِغَيْرِ قَلِيٍّ وَدَاعِكَ وَالسَّالَامَا
وَلَمْ تَمَلَّ تَفْقُدَكَ الْعَوَالِي
وَلَمْ نَذْمُ أَيَادِيكَ الْجِسَامَا
وَلَكِنَّ الْغُيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ
بَارِضِ مُسَافِرِ كِرَةِ الْغَمَامَا

وما أظن إلا أن هذا البيت الأخير يصور ملل المتنبي
وتبرمه لا بالعطاء ، فقد كان أحرص من أن يتبرم بالعطاء ،
بل بهذا الإلحاح عليه في طلب المديح . وقد مضى المتنبي من
بعلبك حتى جاوز حدود الاخشيديين ودخل أرض الحمدانيين ؛
فاستقبل حياة جديدة ، مخالفة كل المخالفة لما ألف وما ألفنا
من حياته .

وهو الآن في الثالثة والثلاثين من عمره ، وقد أصبح
شاعرا عظيما يتحدث الناس به وبشعره في شمال الشام وجنوبها ،
وفي مصر عند الاخشيديين ، وفي العراق عند العباسيين
والبويهيين .

وهو يعرف هذه الشهرة ويقدرها ويغالى بها ، فلا يمدح
إلا من يريد أن يمدح ، وقد يمتنع على قوم ربما ودَّ في يوم
من الأيام لو استمعوا له أو التفتوا إليه . ولعلك تلاحظ أن
ظاهرة قد اطردت في حياة هذا الشاعر . فهو لم يستطع أن
يرقى بفننه إلا في ظل حام يحميه ويعطف عليه ، وهو لم يستطع
أن يعيش عيشة الشاعر المنتج المرتقى بفننه شيئا فشيئا إلا في
كنف الأشراف والسادة والأمراء ، كأنه النبت الطفيلي

لا ينمو ولا يزهر إلا في ظل الشجر الضخم المرتفعة في السماء .
وثب فنه وثبته الأولى في اللاذقية عند التنوخيين ،
ثم وثب وثبته الثانية في طبرية عند بدر بن عمار ، ثم استمسك
 واحتفظ بقوته أثناء الحنة الثانية . ولكنه أزهروا ونما وتضوع
 نشره في ظل الاشميدى الشاب ، وها هو ذا الآن يتجاوز
 هؤلاء الأمراء والحكام الصغار إلى أمير خطير ، هو سيف
 الدولة ، ولكنه لا يبلغ سيف الدولة فجأة ، وإنما يتوسل إليه
 بابن عمه أبي العشائر في أنطاكية ، فلنلقه في هذه المدينة
 لنرى ماذا يصنع فيها ، وأى وسيلة يبتغى إلى إرضاء هذا الحاكم
 ليرقى على أكتافه إلى سيف الدولة .

٨

ويظهر أنه لم يرحل من دمشق حين أراد الرحيل وحين
أمنت له الطريق ، وإنما تأخر فيها عن رضى واختيار ، لا عن
سخط وإكراه ، فقد بلغه فيما يظن أن حال أبي العشائر
فى أنطاكية ليست على ما يحب ، وأنه قد انهزم لبعض
المغيرين عليه ، وتعرض للخطر فلبث فى دمشق يريد أن يعلم
على من تدور الدائرة ، كما انتظر فى الرملة يريد أن يعرف
عاقبة الحرب بين سيف الدولة وكافور .

ودارت الدائرة على عدو أبي العشائر ففكر هذا بعد
الهزيمة منتصراً ، وانتهت أخبار فوزه إلى المتنبى ، فخف من
دمشق ، وقد أعد فيها أولى مدائمه لهذا الحاكم ، وكأنه
فى ذلك الوقت كان مشغولاً بشوارد القوافى ، فأثر لقصيدته
قافية الشين ، وخضع فيها لمثل ما خضع له فى زائيته التى
مدح بها الروذبارى من الذل والصغار أمام تحكم القافية
الصعبة ، ولست فى حاجة إلى أن أدلك على مظاهر هذا

في هذه القصيدة ، فحسبك ما قلت من ذلك في القصيدة
الماضية ، وأنت واجد في الشينية للقراءة الأولى من ذلك
ما تشتهي وما لا تشتهي .

ومطلع هذه القصيدة غريب لا يخلو من حأحة وشأشة
ثقلين مصدرهما تحكم القافية هذا وهو قوله :

مَبِيتِي مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشِي
حَشَاهُ لِي بِحَرِّ حَشَايَ حَاشِ

ومن يدرى ؟ لعل المتنبي وبعض المعجبين به كانوا يجدون
في هذه الحأحة والشأشة جمالا وظرفا ، والله يهب حسن
الذوق لمن يشاء ، ولست أقف من هذه القصيدة إلا
عند قوله :

أَتَى خَبْرُ الْأَمِيرِ فَقِيلَ كَرُّوا
فَقُلْتُ نَعَمْ وَلَوْ لَحِقُوا بِشَاشِ
يَقُودُهُمْ إِلَى الْهَيْجَا لَجُوجُ
يُسْنُ قِتَالَهُ وَالْكَرُّ نَاشِ
وَأَسْرَجْتُ الْكُمَيْتَ فَنَاقَلْتُ بِي
عَلَى إِعْقَاقِهَا وَعَلَى غِشَاشِ

فالمُتنبّي يتكثّر في هذه الأبيات ويزعم أنه لما علم بكر
الأمير أسرع إليه يشاركه في حسن البلاء . وأكبر الظن
أنه كان خائفاً أن يبلغ أبا العشائر منهزماً . فلما علم بانتصاره
خف إليه . وقد وصل المتنبّي عند أبي العشائر وهو مكبر
لنفسه مستشعر عظمته وتفوقه على الشعراء . وهو من أجل
ذلك يهاجم ، ولا ينتظر أن يضطر إلى الدفاع . فانظر
إلى قوله :

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي

وَسَارَ سِوَايَ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ

ومدح المتنبّي أبا العشائر بعد أن استقر عنده بقافيته
المشهورة التي أولها :

أَتَرَاهَا لِكثْرَةِ الْعُشَّاقِ

تَحَسَّبُ الدَّمْعَ خَلْقَةً فِي الْمَآقِ

وفي هذا البيت مظهر من جمال تبدو فيه صنعة وتكلف
ولكن اقرأ ما بعده فسترى تكلفاً لا يطاق :

كَيْفَ تَرَى الَّتِي تَرَى كُلَّ جَفْنٍ

رَأَاهَا غَيْرَ جَفْنٍ غَيْرَ رَاقٍ

وما أرى إلا أنك تضيق مثلى بهذا التكلف المرذول
الذى يظهر فى هذا المعنى السقيم وفى هذا اللفظ المعقد الرث
كأنه نسج العنكبوت ثم يقول :

أَنْتِ مِنَّا فَتَنْتِ نَفْسَكَ لَكِنَّ

لِكِ عُوفِيَتْ مِنْ ضَنْئِي وَاشْتِيَاقِ

ولم يكفه ما مضى من سخف حتى أمعن فى هذا السخف
الجديد ، فجعل صاحبه تعشق نفسها ، ولكنها لا تشكو ألم
العشق ؛ لأنها ظافرة من نفسها بما تريد من الوصال ، ثم يقول :

حُلْتُ دُونَ الْمَزَارِ فَالْيَوْمَ لَوْ زُرْتُ

تِ لِحَالِ النُّحُولِ دُونَ الْعِناقِ

وهو رجوع إلى المعنى الذى استخرجه فى صباه ورجع
إليه كثيرا بعد ذلك وهو قوله :

كفى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنْتِ رَجُلٌ

لَوْلا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

وانظر إلى هذا البيت الذى يخاطب فيه ممدوحه والذى
تتحكم القافية فيه تحكما ثقيلا :

لو تَنَكَّرْتَ فِي الْمَكْرِ لِقَوْمٍ
حَلَفُوا أَنَّكَ ابْنُهُ بِالطَّلَاقِ
وَلَكِنْ قَفْ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ فَسَيَعْجِبُكَ مَا فِيهَا مِنْ
حِكْمَةٍ وَسَيَلْفَتُكَ مَا فِيهَا مِنْ فَخْرٍ :
إِلْفُ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الْأُنْزِ
نُفْسٍ أَنَّ الْحِمَامَ مَرُّ الْمَذَاقِ
وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزُ
وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ
كَمْ ثَرَاءٌ فَرَّجَتْ بِالرُّمَحِ عَنْهُ
كَانَ مِنْ بُخْلِ أَهْلِهِ فِي وَثَاقِ
وَالْغِنَى فِي يَدِ اللَّئِيمِ قَبِيحُ
قَدَّرَ قُبْحَ الْكَرِيمِ فِي الْإِمْلَاقِ
لَيْسَ قَوْلِي فِي شَمْسٍ فَعَلَّكَ كَالشَّمْسِ
سِ وَلَكِنْ كَالشَّمْسِ فِي الْإِشْرَاقِ
شَاعِرُ الْمَجْدِ خَدْنُهُ شَاعِرُ اللَّفِّ
ظِ كَلَانَا رَبُّ الْمَعَانِي الدِّقَاقِ

لم تزل تسمعُ المديحَ ولكنْ

نَ صَهِيلَ الجيادِ غيرُ النُهاقِ

وأحفظ قوله شاعر الجحد خدنه شاعر اللفظ . فإن هذا المعنى نواة إن صح هذا التعبير ستنبت وتتمو وتعطي شعرا كثيرا مختلفا ألوانه حين يتصل المتنبي بسيف الدولة .

وليس من شك في أن تعريضه بالشعراء ، ثم تصريحه بدمهم والغض منهم في البيت الذي رويناه آنفا حين جعل نفسه جوادا وجعلهم حميرا ؛ قد هاج الشعراء عليه وأغراهم بالكد له . فلم ينوا عن ذلك ولم يقصروا فيه ، ولكن المتنبي لم ينهزم لهم ولم يفر منهم ، كما فعل مع الذين كادوا له عند بدر ابن عمار ، وإنما ثبت لهم وألح في الهجوم عليهم ، وكان يرى أن هذه الموقعة حاسمة بينه وبين الدهر الذي يخاصمه . فهو إن انهزم رد إلى شقاء متصل ، وإن انتصر بلغ ما أمته من الوصول إلى سيف الدولة .

وقد تم له الانتصار بهذه القصيدة الرائعة التي هي أروع ما قال في أبي العشائر ، والتي رويناه لك بعضها في أول هذا الكتاب . ومطلعها :

لَا تَحْسِبُوا رَبْعَكُمْ وَلَا طَلْلَهُ
أَوَّلَ حَيٍّ فِرَاقِكُمْ قَتْلَهُ

والمضى فى قراءة هذه القصيدة يقنعك بأن المتنبي كان
يتمثل حين أنشأها لامية الأعشى التى أولها :
إِنَّ مَحْـمَـلاً وَإِنْ مَرُّ تَحَلَّلاً

وإن فى السَّفرِ إِذْ مَضَوْا مَهَلًا

والغزل فى أول القصيدة حلو يبلغ النفوس على ما فيه
من تكلف غير مملول . فإذا فرغ منه وثب إلى الدفاع عن
نفسه والفخر بها فى شعر مرّ لاذع مُسَكَّت للخصم .

ولست فى حاجة إلى أن أعيد روايته ، فقد رويته فيما
مضى من هذا الحديث . ثم يصل إلى أبى العشائر فيمدحه مدحا
عذبا شائقا متينا يصلح للغناء ، وقاما يصلح مدح المتنبي للغناء
قبل وصوله إلى سيف الدولة .

وانظر إلى قوله :

مَالِي لَا أُمَدِّحُ الْحُسَيْنَ وَلَا
أَبْذُلُ مِثْلَ الْوُدِّ الَّذِي بَذَلَهُ

أَخَفَتِ الْعَيْنُ عِنْدَهُ أَثَرًا
أَمْ بَلَغَ الْكَيْذُبَانُ مَا أَمَلَهُ

ثم انظر إلى قوله :

قَدْ هَذَّبْتُ فِهْمَهُ الْفَقَاهَةَ لِي

وَهَذَّبْتُ شِعْرِي الْفَصَاحَةَ لَهُ

فَصَرْتُ كَالسَّيْفِ حَامِدًا يَدَهُ

لَا يَحْمَدُ السَّيْفُ كُلَّ مَنْ حَمَلَهُ

وأنا أختار الممتنبي في أبي العشائر كلمتين أخريين يقول

في أحدهما :

النَّاسُ مَا لَمْ يَزَوْكَ أَشْبَاهُ

وَالدَّهْرُ لَفْظٌ وَأَنْتَ مَعْنَاهُ

ويقول في الأخرى :

لَا مَ أُنَاسٌ أَبَا الْعَشَائِرِ فِي

جُودٍ يَدِيهِ بِالْعَيْنِ وَالْوَرَقِ

والممتنبي في أبي العشائر مقطوعات كثيرة أخرى في

موضوعات مختلفة . فقد سار الشاعر مع هذا الأمير سيرته مع

على بن ابراهيم التنوخي وبدر بن عمار والحسن بن عبيد الله
الأخشيدي ، فكان نديما سريعا إلى قول الشعر مسرفا في
الارتجال ، مطيعا لمولاه ، يقول حين يريد على القول وحين
لا يريد عليه .

وله كلمة أخرى قالها معاتبا لأبي العشائر حين أرصد
له نفرا من غلمانه ليقتلوه فأقلت منهم ، ولكن أوان الحديث
عن هذه الكلمة لم يأن بعد . وأنا أرجح أن أبا الطيب
قد وصل إلى أبي العشائر في أواخر سنة ست وثلاثين
وثلاثمائة فآتمها عنده ، وأقام معه وجها من سنة سبع وثلاثين
وثلاثمائة حتى قدم سيف الدولة أنطاكية في جمادى الأولى
من هذه السنة ، فمدحه واتصل به وانتقل معه إلى حلب .

23 FEB 1988

IRDAV

AUC - LIBRARY



DATE DUE

 A.U.C. 15 JUL 1996 7 DEC 1996	 A.U.C. 4 - JAN 1999
 A.U.C. 3 - AUG 1997	 A.U.C. MAY 1997
 A.U.C. 1 - DEC 1997	
 A.U.C. 12 MAY 1998	

0 0 0 0 0 0 4 9 8 5 4

PJ 7750 M8 Z85 1936/v.1 c.1

6.1184 3536
7.13161878

23 FEB 1988

